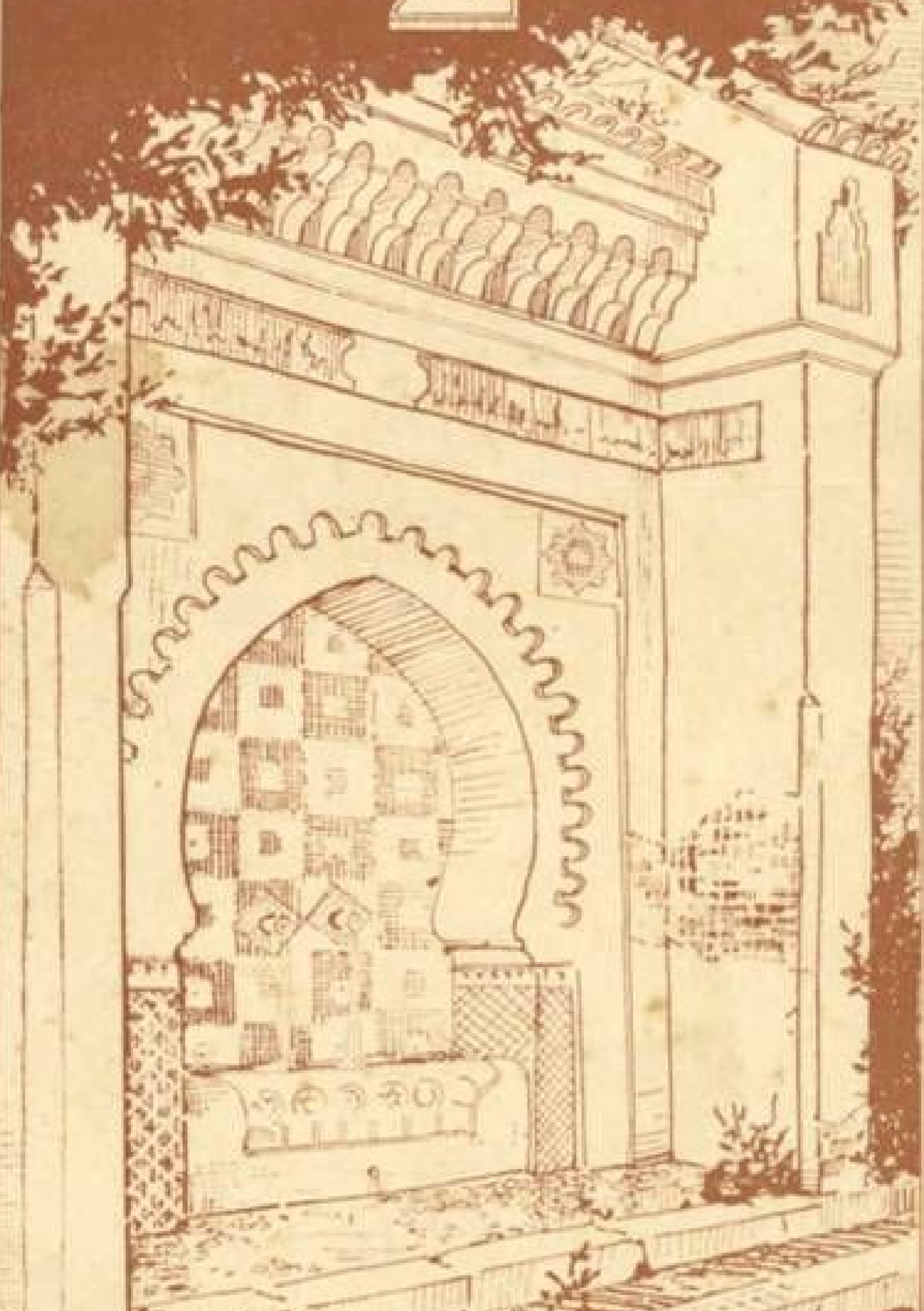
لا غالب إلا الله

تطوان



المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية

« تطوان »

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

الرئيس :

سيادة

وزير التربية الوطنية

السكرتير

محمد بن تاويت

مدير معهد مولاى الحسن للابحاث

المترجم

عبد اللطيف الخطيب

ثمن النسخة :

المغرب، اسبانيا وفرنسا : سنة واحدة	....	12،50 درهم
فى باقى البلاد : سنة واحدة	....	4 دولارات

منشورات الجامعة المغربية

كلية الآداب

معهد مولاى الحسن

للأبحاث المغربية الأندلسية

تطوان

مجلة للأبحاث المغربية الأندلسية

العدد العاشر السنة 1965

محمد بن تاويت

من زوايا التاريخ المغربي

انتهينا في عرضنا للوثائق التاريخية، بالعدد السالف، عند سنة 1621، وفي عرضنا هذا سنستمر الى سنة 1631، وبذلك تملأ وثائقنا هذه فترة عشر سنوات، أو تزيد قليلا، وهي فترة حافلة بالاحداث، التي سجلتها هذه الوثائق بتفاصيلها، مما لا نعثر عليه في مراجعنا ومصادرنا العربية، أو تومىء اليه تلك المراجع والمصادر، ايماءة خفيفة، يكتنفها الغموض والابهام في كثير من الاحيان .

ومن قبل لاحظنا أن تلك الحقبة كانت من الحقب العصيبة التي اجتازها تاريخنا المغربي، فالى جانب القحط والوباء والحروب، كان البيت المالك، قد تحطمت نصاله على النصال، وتوزع المغرب بين أفراده من ملوك وأمراء، واستبد بعض الولاة ببعض الولايات، كما استقل بعض المرابطين ببعض الجهات، وعادت اليد الاثيمة تمتد الى بعض ثغوره فتقتطعها من رقعته

وبالجملة، فان الدولة منذ وفاة المنصور، لم تتمتع لا بالوحدة ولا الاستقرار، وأفلت الزمام ـ كلية ـ من يد البيت المالك، فصار الملك ينهزم أمام أولئك الناجمين، وقد يحتمي ببعضهم ويستصرخه على البعض الآخر، او يؤدى أموالا مقابل تنازله عن جهات، كانت من ضمن ما اختص به دون الدولة من بلاده . وقضية مولاى زيدان مع أبى محلى ثم مع أبى زكرياء الحاحي ثم مع أبي الحسن علي بن موسى تعد المثل القوى لضعف الدولة وانهيار صرحها أمام هؤلاء المرابطين الاشداء

والواقع ان وضع هؤلاء المرابطين والادوار التي قاموا بها، شيء ينفرد به المغرب، ولا يكاد يوجد له مثيل في المشرق وان حاولنا أن نقارن به قلاع الحشاشين والادوار التي قاموا بها، فاننا نكون في هذه المقارنة

بعيدين كل البعد عن اوجه الشبه كما اننا ان قارنا بذلك ما عرف في أوربا بأصحاب الاقطاعات والادوار التي قاموا بها، أو قارنا به نظام الاخوان الدومنيك، كنا في جميع ذلك بعيدين كل البعد عن جهة المقارنة، اذن فنظام الرباطات واصحابها نظام امتاز به المغرب، والفه عدة قرون، وما زال في حاجة من الدراسات المختلفة والجهود المتنوعة

وعلى كل حال فان المغرب منذ وفاة المنصور وهو بتلك الوضعية الاسيفة، كما رأينا في تلك الوثائق السالفة، أما وثائقنا هذه، فاننا سنرى فيها عاملا آخر من عوامل التفسخ والانحلال، فان هذه الجهات من المغرب لم يكفها ماحاق بها من مصائب كانت تعانيها بين قومها في الداخل، أو تتلقاها من الخارج فتحاول اتقاءها بكل الوسائل، بل ان بعضها صار يتفلت من يد الدولة، ليرتمي في أحضان دولة أجنبية عدوة او صديقة

هذه الاوضاع السابقةمنها واللاحقة، هي ما نجد هذه الوثائق تشير اليها، من قريب او بعيد، وسنسترسل في نشرها، مع المراحل الزمنية، وان كنا مع هذا سنقف بعض الوقفات القصيرة التي نراها ضرورية، وبذلك فاننا سنبتدى ببعض الوثائق التي اتصلت بمشكل القرصنة، الذي كانت انجلترا من ناحية واحمد النقيس من ناحية اخرى يحاولان حله، بتلك الطرق السالفة الذكر في العدد السابق .

واول هذه الوثائق ستكون عبارة عن رسالة، صدرت بتاريخ 22 مارس سنة 1621، عن سفير انجلترا بمدريد وترأستون، Water Aston

الى فرنسيس نيذرسول Francis Nethersole (1) ممثل انجلترا لدى أمراء الاتحاد البروتستنتي، وسكرتير المنتخب البلاطي، يقول فيها :

السير روبرت ما نسيل هو الان في ذلك الاسطول بجبل طارق حيث يظهر أنه عازم على اعداد سفنه، وها قسم من الاسطول قد استولى حديثا على سفينة صغيرة للاتراك ولكن بما أنه في هذا الاستيلاء كان بعض رجال القرصنة من الولايات (أى للاراض الواطئة) ساعدوا بالكفاح فان الغنم لهذا كان موزعا بينهم، واني الان من جديد قد اعلمت بحادثة عظيمة وهي ان بعض الانجليز قد اسروا في سفينة بمرسى تطوان، ولهذا فاني آمل من السير روبرت ما نسيل أن يخطرني بكل الوسائل كما يتوقع منه .

بعيدين كل البعد عن اوجه الشبه كما اننا ان قارنا بذلك ما عرف في أوربا بأصحاب الاقطاعات والادوار التي قاموا بها، أو قارنا به نظام الاخوان الدومنيك، كنا في جميع ذلك بعيدين كل البعد عن جهة المقارنة، اذن فنظام الرباطات واصحابها نظام امتاز به المغرب، والفه عدة قرون، وما زال في حاجة من الدراسات المختلفة والجهود المتنوعة

وعلى كل حال فان المغرب منذ وفاة المنصور وهو بتلك الوضعية الاسيفة، كما رأينا في تلك الوثائق السالفة، اما وثائقنا هذه، فاننا سنرى فيها عاملا آخر من عوامل التفسخ والانحلال، فان هذه الجهات من المغرب لم يكفها ماحاق بها من مصائب كانت تعانيها بين قومها في الداخل، أو تتلقاها من الخارج فتحاول اتقاءها بكل الوسائل، بل ان بعضها صار يتفلت من يد الدولة، ليرتمي في أحضان دولة أجنبية عدوة او صديقة

هذه الاوضاع السابقة منها واللاحقة، هي ما نجد هذه الوثائق تشير اليها، من قريب او بعيد، وسنسترسل في نشرها، مع المراحل الزمنية، وان كنا مع هذا سنقف بعض الوقفات القصيرة التي نراها ضرورية، وبذلك فاننا سنبتدئ ببعض الوثائق التي اتصلت بمشكل القرصنة، الذي كانت انجلترا من ناحية واحمد النقيس من ناحية اخرى يحاولان حله، بتلك الطرق السالفة الذكر في العدد السابق .

واول هذه الوثائق ستكون عبارة عن رسالة، صدرت بتاريخ 22 مارس سنة 1621، عن سفير انجلترا بمدريد وترأستون، Water Aston

الى فرنسيس نيثرسول Francis Nethersole (1) ممثل انجلترا لدى أمراء الاتحاد البروتستنتي، وسكرتير المنتخب البلاطي، يقول فيها :

السير روبرت ما نسيل هو الان في ذلك الاسطول بجبل طارق حيث يظهر أنه عازم على اعداد سفنه، وها قسم من الاسطول قد استولى حديثا على سفينة صغيرة للاتراك ولكن بما أنه في هذا الاستيلاء كان بعض رجال القرصنة من الولايات (أي للأراضي الواطئة) ساعدوا بالكفاح فان الغنم لهذا كان موزعا بينهم، واني الان من جديد قد اعلمت بحادثة عظيمة وهي ان بعض الانجليز قد اسروا في سفينة بمرسى تطوان، ولهذا فاني آمل من السير روبرت ما نسيل أن يخطرني بكل الوسائل كما يتوقع منه .

ثم نجد رسالة اخرى منه، الى جورج كلفرط (2) السكرتير بالدولة الانجليزية وكان قد ارسلها اليه من مدريد في 15 شتنبر كما يلي :

سيدي :

منذ أن كتبت الى السير روبرت مانسيل بواسطة هذين الابراديين لم أسمع عنه اى شيء ولا اتاني منه اى خبر بأن اولئك المسافرين قد اتصلوا به ولو اني اظن ان اولهم الذى كان قد ذهب الى جبل طارق قد سلمه هناك الرسائل، لانى فهمت ذلك من رسائل مختلفة أتت من التجار الذين كنت أهتم بشؤنهم، منذ قريب ..

وقد علمت من مالقة أن السير روبرت قد أعلم بان المراكب التركية المذكورة وهي غنية بحمولتها راسية الآن بوادى تطوان على استعداد للابحار الى الجزائر. وقد أرسل اليها 250 من احسن الرجال، وانضم اليها عدد آخر، وأكثر هؤلاء من الجنود الذين وجههم الى القائد حاكم سبتة مع القوارب التي اعدت لاجل الاحتياط استعدادا للمفاجاءة

ولهذا اذا كان هذا الخبر حقيقة فاني قريبا سادرك مدى نجاحهم، وهذ الخبر يفيد أن هذه القوات كانت قد انفصلت عن الاسطول في اليوم 26 من غشت . فلعل سعادتكم يسره ان يعلم سيدى الاميرال بهذا الخصوص. ولا أزعج الان سعادته باى مكتوب آخر .

وبعد هذه تاتي رسالة قيمة مؤرخة بالحادي والعشرين من دجنبر هذه السنة، كانت صادرة عن حاكم تطوان المقدم أحمد النقسيس، وذلك بعد اتصال جون دوبا John Duppa الذى تقدمت الاشارة اليه في معالجة مشاكل القرصنة السالفة، بالمقدم المذكور الذى بعث معه هذه الرسالة الى ووتر أستون، وترجمتها كما يلي : (3)

الى صاحب السعادة السيد

لقد حل عندنا السيد جون دوبا الانجليزى للتفاوض في افتداء الاسرى الاندلسيين الذين وقعوا في اسر الاسطول المنتمي لملك بريطنيا العظمى، واعتمادا على الاذن الذى تلقاه من قائد الاسطول، فانه لم يكن في امكانه الا ان يجرى ذلك الفداء رأسا برأس ..

واني أنهي الى سعادتكم أن اولئك الاندلسيين كـانوا قد ابحروا بسفينتهم التـركية مـن نهـر هذه المدينة، واثقـين من الصداقـة التي تربطنا ومتجهين في سفرهـم الى منازلهم، غـير قاصديـن أيـة غنيمة يصيبونها ، لأنهـم انمـا كـانوا تجـارا يعتقدون أنهـم في مـأمن من الاسطـول المذكور، ان تصادفـوا معـه فلن ينـال أحـدا منه ضرر، غـير انهـم ما توسطوا البحر، حتى تلاقـوا مـع الاسطول الذى كـان تحت قيادة القائد روبـرت منسل، فـأسرهم هـذا جميعـا، ثـم أتى بعد ذلك بأسطوله الى هـذا المـرفـأ، فأرسل بعض رجاله الينـا للتفاوض في افتداء اولئك الذيـن وقعوا في أسره، وفـي هـذا التفاوض سئلت لمـاذا وقع القبض على جرج فرزويل George Friswell (4) فـأجبت بـأنه كـان قـد وصل من قبل الى هذا المرفـأ تـاجـر يدعي تـوتشنـج Touching (5) وأنه لمـا أذن له بالرحيـل، اغتصب من نفس المرفأ مركبا برجاله، وكـان لاولادى، فـاتجه بذلك المركب الى مالقـة، وهناك باعـه كما باع المسلمين الذين وجدهم به. فلما وصل بعد هـذه الحادثـة، جرج فرزويل، الى المرفـأ الـذي نـزل منه الى البـر دون حصوله على اذن مني بالنزول، ونساء المسلمين الذين بيعوا في مالقـة يصحن طـالبات للقصاص، اعتقل حتى يطلـق سراح أولئك المسلمين ويعـاد المركب الذى أسروا بـه ..

وفيما يخص الكارثـة التي حلت بالاندلسيين المذكورين، فان القائـد عرض علي تسليـم هـؤلاء الاندلسيـين والمسافـرين مقابـل الانجليز رعـايـا ملك بريطـانيا العظمى الذيـن هم تحت الاسر بتطوان، غير أن الاندلسيـين وبقية المسلمين عندنـا لـم يقبلوا العـرض دون رجوع الامتعـة التـي ابتزت مـن أولئك القـوم المسـاكين ظلما وعـدوانا ..

فلما لـم يقبل هـذا، عاد ذلك الاسطـول بأسراه الذين باع بعضهم بمدينة «القنت» كـرقيـق، ثـم تـوجـه الاسطول المذكور نحو انجلترا، تاركـا بقية اسراه في عهد جون دوبـا المـذكـور، وفي حالـة يـرثى لها بمدينة «قـادس»، فبقـوا هكـذا يعـانون الاسر، لانهـم فقراء مـدقعـون، وليس لهـم أقـارب يستطيعون افتداءهم ولا لهـم متاع في تطوان او غيرها، وقـد هـزتني الشفقة عليهم، فأمـرت بجمع التبرعـات من السكان الاندلسيين، فكـان ما جمـع منها يفي بفديـة الانجليز الثمانية، الذين عـرض افتداؤهم بالاندلسيـين الستـة عشر، الذين مـا زالـوا في قبضة جـون دوبـا، بقـادس، وادمند كـرسـن Edmund Carson (كان قنصلا لانجلترا بجبل طارق) وقد أتى بهؤلاء الى سبتة، ليسلموا لقـائد الحـامية بها، الذى كان سيتسلم الانجليز الثمانيـة منـي

مع صك موقع باسمي وبخط يد اولادى وقاضي المدينة وأعيانها، ويقضي ذلك الصك بما يلي :

أنه لا يباع بتطوان أي انجليزي او أسكتلندي او ايرلندي، من رعايا جلالة ملك بريطنيا العظمى، باستثناء الموجودين حاليا بتطوان تحت الاسر، وأن أي تاجر من رعايا الملك المذكور، اذا انتهى الى تطوان، فانه ينال الاذن مني في الاتيان الى المدينة، فيتاجر بها أو يتعامل مع تجارها، كما يمكنه ذلك في فاس وفي جهات أخرى من المغرب، على أن يكون قد جلب بضاعة جيدة، وأن يكون تعامله حسنا لا غش فيه . واذا ارتطمت سفينة بالبر فان حمولتها تكون للملك، ويطلق سراح رجالها، وان خشيت سفينة اغارة القرصان عليها فلجأ أصحابها الى تطوان، فانهم في مكنتهم أن ينزلوا بها سلعهم، وان يبيعوها بها في حرية، على ان يؤدوا رسوم الجمرك عنها، دون أن يوسر أحد منهم، وان انتهى أسطول للملك المذكور الى هذا المرفا، فيمكنه أن يحمل منه الماء على حسب العادة، وما يشاءه زادا له في طريقه، ويتمتع رجاله بكل احترام لازم، ان لم يقع منهم اعتداء على احد في البر .

هذا ما وجب به العلم، وكتبناه لسعادتكم، لتمكنوا جون دوبا المذكور من التفويض في ابرام هذا الاتفاق الحسن، الذى ما زلنا بالفعل عند مقتضاه، وعلى محبتكم، ننتظر منكم الجواب، والله يحفظكم

تطوان 6 صفر عام 1031

تذييل : آمل من سعادتكم أن تبحثوا ـ وهذا ما تذكرته بعد كتب المكتوب اعلاه ليتم كل شيء على ما يرام عن الشخص الذى اغتصب المركب المذكور لاولادى، فتنزلوا به العقوبة، سواء كان باسبانيا أم بانجلترا

التوقيع : المقدم احمد النقسيس حاكم تطوان

بعد هذا نجد جون دوبا، يكتب رسائل عديدة في هذا الموضوع الى ووتر أستون، فاولها هذه الرسالة التي ترجمتها كالاتي :

سيدى المفضال

بما أني أدرك ان سيادتكم تتواق بكل استعداد وحماس الى كل ما يعود بالخير على بلادنا وعلى حكومة صاحب الجلالة، فاني اجرؤ الان على ان

احيط سعادتكم علما، بما قد تم الاتفاق عليه بيني وبين مقدم تطوان، بحيث ان كنت قد تعديت حدود تفويضي، فاني آمل أن يحمل ذلك على قلة خبرتي، ولا يعزى الى اى غرض هدفت اليه مصلحة خاصة بنفسي، فكل ذلك موكول الى رأى سعادتكم، فتصدروا فيه ما ترونه ملائما

كنت أعلمت سعادتكم سابقا بالتفويض الذي جعله لي وللمستر كرسن (6)، السير روبرت منسل، فيما يتصل بقضية الاندلسيين الذين وقعوا في أسر اسطولنا، وهم الان في قبضتنا بمدينة «قادس»، وكان ذلك التفويض يقضي بما يلي :

أولا ـ اني أطلق سراح أولئك الاندلسيين مفتديا بهم اولئك الاسرى بتطوان، الذين ينتمون الى حكومة صاحب الجلالة على أن يكون ذلك رأسا برأس، وفي حالة ما اذا لم استطع افتداءهم بهذه الوسيلة، فاني سالجا الى فديتهم بالمال الذى تجمع لنا من نفس السبيل، الى اقصى ما يفي به ذلك المال، في فداء هؤلاء الاسرى المواطنين الذين ذكروا سابقا

أما الوسيلة الأولى فقد رفضت، ويبدو أنها مستحيلة، لأن أولئك الأندلسيين فقراء وأن هؤلاء الانجليز كان أناس قد اشتروهم بأموالهم

ثانيا ـ ان الاسرى المذكورين، قد كلف الاحتفاظ بهم عشرين ريالا يوميا طيلة أربعة أشهر، ولا يمكن أن يحصل من تطوان على أموال يفتدون بها .

وقصة هؤلاء الاندلسيين، أنهم كانوا من سكان الجبال القريبة من تطوان، الى أن جاءهم ذات يوم قريب لهم من الجزائر، فبحث عن هؤلاء الذين كان أغلبهم ينتمي الى عائلة واحدة، من أقربائه ولما اجتمع بهم زين لهم ان يبيعوا كل ما يمتلكون من عقار وماشية وان ينتقلوا بأموالهم الى الجزائر، فعمل هؤلاء المساكين بنصيحته، فنزلوا الى تطوان، وصادف الأمر أن كان هناك اتراك مسافرين فحملوهم الى الجزائر. فلما توسطوا معهم البحر، اسروا جميعا بواسطة اسطولنا الانجليزى الذى انتهب في الحال اموالهم وبضائعهم التي كانت معهم، ولم يكونوا قد تركوا خلفهم في تطوان أموالا لهم او احدا من اقاربهم يمكنه ان يخلصهم او يساعدهم ..

لهذا، فانه نظرا الى فقرهم والى فقر أسرانا الانجليز، والى أني ليس لي تفويض صريح يمكنني من بيعهم، فقد صممت على أن أذهب الى تطوان، مع أحد تجار لندن، واسمه طومس استون Mr Thomas Aston

كـان هنـاك في قادس عازما السفر الى تطوان، وكنت آملا أن أجرى مفاوضات، وأنا على ظهر السفينة مـع الاندلسيين، علني استطيع أن احصل على نتيجـة حسنة يتحرر بها هؤلاء الناس فلمـا انتهيت الى هناك، سمع مقـدم تطـوان بقدومـي، وأني ما زلت على ظهـر السفينة، فبعث الي بأمـانـه، وبرسالـة يعلمني بها أنـه يريـد أن يتداول معي في قضيـة اطلاق سراح الاسرى المذكورين وانـه كبرهان على حسن نواياه وحسن صنيع بـلاده فيمـا يخص مواطنينـا والتجـار الانجليز الذين يرعـون من لدنـه رعايـة حسنة، فقد أمـر برهينة تبعث الى ظهـر السفينـة تظل هناك الى حين عودتي اليها، وفعلا فقد نفـذ ذلـك تمـامـا ..

وعليه فقد توجهت في اليوم التالي الى المدينة، حيث كان المقدم قـد جاءهـا في انتظاري، وقـد أرسل في طلب رؤساء الاندلسيـين بالمدينـة، فلمـا جـاءوا طلب منهـم في حضور أولاده، ان يجيبوا بما يرون فيما جئت اليهم من اجله، وهو اطلاق سراح المنتمين الى جنسهم، الاندلسيين الذيـن اسرهم الاسطـول الانجليزي، فـأجابوا بأن هـؤلاء الناس لا شأن لهم بهم، ولا عـلاقـة تربطهم معهـم، فـلا أصدقـاء لهـم ولا أقرباء لهم بـين ظهرانهم، ومع هذا فانهم مقابل اطـلاق سراحهم، يستطيعون ان يجمعوا من الزكـوات اموالا تفي بشراء الانجليز الثمانيـة الذين هم تحت الرق فيطلق سراحهـم . هذا كـل مـا يستطيعـون تقديمـه مـن معـونـة ..

حينئـذ اجبتهم باني لـو كنت أعلم ان عزمهم سيكون هكذا لو فـرت على نفسي تعب المجيء من هناك، والان ليس لي ان اقوم بعمل مـن تلقـاء نفسي، سوى ما يسمح لي بـه التفويض الموكـل الي ..

بعـد هـذا قـال لي المقـدم بواسطـة ترجمانـه ما يلي :

انـه في جميـع عهود الملكـة الزابث، بل في كثير من السنوات قبلها، ومنـذ أن جلس على العـرش صاحب الجلالـة، وبلادنا المغربيـة في سلام وعـلاقـة حسنة مـع الامـة الانجليزية، ونحن نسعى ليستمر ذلك كما كان، ولكن حدث أن اتت مرسى بلادنـا سفينة انجليزيـة يدعى ربانهـا توتشنج، وكما هي عادة التجـار، فقـد طلب مني أمـانا ليتعامل معنا، وصادف ان كان ملكنا آنـذاك قـد أتى بقوة من العرب أحاطت بمدينتنا (7) بحيث ان توتشنج تعـذر عليـه انزال بضائعه، فحينئـذ رفـع مرساته وأبحر الى بعض المواني الاخـرى، وفي طريقه بصر بمركب آت من نواحي سبتة، فلم يكن منـه الا أن أسره مستوليـا

عليه ثم اجراه صوب مالقة، حيث باع كلا من المركب ورجاله، وكان هذا المركب من مراكب أولادى التي يجهزونها في بعض الاحيان ويرسلونها لحماية شواطئنا من سفن سبتة وطنجة، وأيضا ليباغتوهما ان استطعنا . ولكنهم ما وقع منهم تعد قط على الانجليز ولاعلى الامم الاخرى، بل كانوا لا يضادون الا خصومنا الذين نحاربهم في كل يوم

أمام هذا الضرر الذى لحق بنا، والذى أفقدنا احسن وسيلة ندافع بها عن شواطئنا البحرية، الى جانب الصرخات المتتالة من زوجات اولئك الاسرى على فقد أزواجهن الذين وقعوا في نير العبودية، صمم أولادى ورئيس هذه المدينة على ان ياسروا كل من ينتمي الى حكومة ملك انجلترا، وفعلا قد احضر منهم من بيع كرقيق، كما صمموا على ان يلقوا القبض على اول تاجر انجليزى ياتي الى هذه الناحية، وطبقا لهذا القرار فقد وقعوا على أحدهم واسمه جرج فرزويل، وهو رجل اسكتلندى اتى هنا بسفينته معتمدا على الحرية التي كان يتمتع بها في هذا البلد سابقا . وبذلك نزل الى الساحل، بدون أن يطلب اذنا مني، وتوجه الى المدينة حيث وقع في أسرها، الى ان ينال أولادى ترضيتهم ويسترجعوا مركبهم برجاله، او ان ينالوا من صاحب الجلالة ملك بريطنيا العظمى وعدا بعقوبة توتشنج المذكور، الذى اوقع بنا الاذى، وخرق ماكان بيننا وبين الامة الانجليزية من سلام معقود

وبذلك فاننا نعتبر أنفسنا قد حل بنا ضرران، الاول ما ارتكبه في حقنا التاجر المذكور، والثاني ما ارتكبه الاسطول الانجليزى من بيع بعض الرجال واستعباد الاخرين من المسافرين المساكين الذين كانوا قد توجهوا من هذه الميناء الى الجزائر

وفيما يتصل بالخصوص الاخير، فانت تقول انك لا تستطيع ان تغير من الاوامر التي اسندت اليك من قبل القائد الانجليزى، ان لم يكن ذلك من صاحب الجلالة، سواء ما يكون صادرا من انجلترا نفسها وما يكون من سفير صاحب الجلالة بمدريد فانهما كليهما يمكن ان يصدر اليك الاوامر الخاصة، ومهما يكن فاني صادرا عن الرغبة في تجديد صداقتنا السالفة مع شعبك، ساكتب الى سفير صاحب الجلالة بمدريد، ليمكنك من التفاوض الذى تستطيع به تخليص الاسرى ومنح الحرية لاولئك الاندلسيين الذين تركتهم في الاسر بمدينة سبتة ، بقصد انك في المبادلة ستتسلم قبلهم ثمانية من الانجليز سوى هذا فان على السفير المذكور ان يمكنني من الوعد بأن العدالة ستجرى في توتشنج المذكور .

وحينئذ سواء كنت في سبتة أم كنت ستاتي الى تطوان، فانك ستتسلم خطابا ممضى بخط يدي وبيد اولادي وقاضي مدينة تطوان، حيث انه في الوقت الحاضر كل لـه الحرية في ان يشتري او يستعبد اي شخص ينتمي الى حكومة ملك انجلترا، وحينما نمضي ذلك الخطاب نصدر أمرنا بايقاع العقاب على كل من يشتري او يبيع او يسترق اي فرد ينتمي الى حكومة صاحب الجلالة المذكور، وبذلك فجميع اولئك الذين هم من الشعب المذكور قد اتى بهم الى هنا، باستثناء الذين هم الان رقيق بالفعل، سينالون حريتهم، ولهم الخيار في ان يذهبوا الى سبتة او طنجة، وزيادة على هذا، ان صادف أن سفينة كانت هناك من السفن المنتمية الى حكومة ملك بريطنيا العظمى، وقد طاردها القرصان الى هذا المرفأ أو الى اي ساحل من السواحل التي تحت حكمنا فاضطرت ان تلتجىء الى البر، فان السفينة والبضائع التي سلمت، يتصرف فيها بحرية كما يريد اصحابها، الذين سينجون من الاسر ومن السجن .

ولكن ان حدث أن سفينة عطبت بواسطة الرياح الهوج أو الاهمال، ففي هذه الحال يكون كل من السفينة والبضائع ملكا للحكومة، الا رجالها فيكونون احرارا

والى جانب هذا، ان اتى الى مرفانا اسطول ينتمي الى ملك بريطانيا العظمى، فانه ستكرم وفادته جدا، وتكون لـه الحرية التامة، في أن يشتري باموالها ما يحتاج اليه، من زاد او طعام او اي شيء آخر، مما يعرض في بلادنا عليه، الا ان ابدى غدرا او ارتكب جورا في حق مواطنينا

واخيرا فان اي تاجر ينتمي الى حكومة صاحب الجلالة، يمكنه ان يتاجر في أي ثغر او اي مكان تحت حكمنا، وكذلك ان صادف انه لم يستطع تصريف بضاعته كما يرغب، فله أن ينتقل باية بضاعة أراد، وان يخرج بها من مدينتنا تطوان، بعد أداء واجب الجمرك . ولهذا فله ان ينقل بضاعته الى فاس مثلا او اي مكان آخر يرتضيه

والان وقد سمعت قولي في القضية، فانك ستتاكد بنفسك من أن السفير، وقد ادرك هذه الاشياء، سيذعن راضيا الى تخليص هؤلاء المساكين، بمقتضى تلك الشروط الشريفة الملائمة، فان كنت ستظل هنا الى ان تحصل على جواب السفير، فانك ستقيم في ضيافتنا لانجاز هذا العمل الذي أرغب فيه كثيرا، وأرى انه سيكون له الاثر الفعالفي في صالح كل من الشعبين .

وهكذا فاني قدمت لسعادتكم بيانا مفصلا عن اجراءاتي التى قمت بها مع المقدم، حول الاندلسيين الذين مازالوا في عهدتي فارجو من سعادتكم ان تمكنوني من التفويض الذى اتصرف على مقتضاه معهم، وان رأت حكمتكم سبيلا أحسن، فامروني لاسلكه بكل احتياط واجتهاد، وكذلك ان أرادت سعادتكم، فاني ساعطيكم بيانا عن عهدتي التي كانت أيضا للمستر كرسن، فيما يتعلق بكل من هؤلاء اليهود الذين، ان رأت سيادتكم ذلك لائقا، سنتسلم منهم 500 قطعة من ذوات الثمانية (يعني عملة اسبانية ذات قيمة عالية) والباقي على ضمانة بعض الاشخاص القاطنين في قادس، وهم قادرون وملتزمون تادية الباقي من 1000 قطعة ذات الثمانية خلال ستة اشهر، وبهذا سنكون احرارا في أية عهدة فيما بعد، وسيكون لنا المال لتسديد ما كان قد اتفق من ذى قبل، فان ارادت سعادتكم فاني ساعطيكم بيانا خاصا عن الجميع

ارجو من سعادتكم المعذرة لازعاج سيادتكم الوقور، بهذه الاحداث، واني باق

خادما خاضعا لسيادتكم

الامضاء · جون دوبا

صدرت هذه يوم 7 يناير سنة 1622

وبعد هذه الرسالة التي بعث بها جون دوبا الى السفير الانجليزى بمدريد، نجد رسالة ثانية منه الى نفس السفير بعثها اليه من جبل طارق بتاريخ 10 يناير من سنة 1622، وترجمتها كما يلي :

سيدى الشريف الامجد

منذ اتياني الى جبل طارق وقنصلنا به يلح علي في أن أكتب الى سعادتكم، طالبا من مشيئتكم الموافقة على تمكينه وتمكيني من الاذن في منح الخمسة اليهود، الذين ما زالوا في عهدته، وهم الان في السجن، حريتهم، وكانوا قد حبسوا في السجن هنا بامر روبرت منسل، الى ان يؤدوا مبلغ 200 لبرة، كانوا قد وعدوا كتابيا بأن يؤدوها خلال شهر، وهذا المال كان ينوب تاجرا اسمه جلس بين Giles Pen فان هذا التاجر كان قد اسلف الاسطول مبلغ 550 لبرة ليقضى بها مآربه، فكان ذلك المبلغ المذكور حصة منه،

سيتسلمها من اليهود المذكورين، كما كان سيتسلم حصة اخرى منه في مالقة، والباقي في انجلترا، ولكن لاشيء من ذلك قد أدى

وفيما يخص اليهود المذكورين فليس لهم اصدقاء في تطوان، بحيث ان احدهم يتعامل معه، ولهذا فاني متاكد من انهم سيظلون في السجن والحديد في ارجلهم خمسة أشهر، الا اذا استطاعوا ان يجدوا وسيلة تخلصهم، ولكنهم يقولون على تهديد من الجنرال لهم، انهم قد أجهدوا انفسهم في الحصول على 200 لبرة ومع هذا كانوا غير قادرين على انجاز ذلك. لهذا ان وافقت مشيئة سعادتكم على أن يفك سراحهم مقابل اطلاق سراح خمسة اسرى من الانجليز هم الان في تطوان، حيث ان هناك بعض اليهود في ملكهم رجال من الانجليز رقيقا، وهم متاكدون من انهم سيعتقونهم، فاني اترك هذا لمشيئة سعادتكم، التي انا دائما على استعداد لطاعتها .

ان سيادتك كانت مرغوبا منها ان تكتب الي بقادس، في خصوص الخمسة اليهود الذين هم في عهدتي هناك، وانهم قد عرضوا علي خمس مائة قطعة من ذوات الثمانية من 1000 قد حصلوا عليها، وهم سيؤدونها في الحين، اما الباقي فانهم سيعطون به ضمانا من شخص يدعى جون بربودى لاغنا John Brabo de Lagona وهو تاجر بقادس، ليؤدى ذلك خلال ستة أشهر، حينئذ فلن تبقى أية عهدة فيما بعد عليهم . فان كانت سيادتك ترى ذلك ملائما، فاني ساقبل هذا العرض

واخيرا فاني سأتوسل الى سيادتكم بان مستر كرسن ربما يكون قد أرضى سيادتكم فيما كان قد رتبه، وفي المال الذى قد اتخذ من الاشياء التي استندت الى عهدته من قبل الجنرال، ولهذا فانكم ربما يسركم ان تقدروا الالام والمتاعب التي تحملتها في سبيل هؤلاء القوم، فقد انفقت 12 شهرا من الوقت كمنتظر للاسطول، كاتبا جميع الرسائل الاسبانية، ومبعوثا الى الشواطىء، بينما لم يمنح أى شيء لي في خدمة الاسطول .

وكمكافاة لجميع تلك الخدمات، فان كل املي ان اعين قنصلا لرعايا صاحب الجلالة الذين سيتاجرون بتطوان وأرجو ان احصل على ذلك من الرسالة التي تتكرمون بها على من لدن سعادتكم، وان الفائدة التي ساجنيها من ذلك قليلة، الا ان رغبتي ان استطيع تخليص كثير من مواطني من العبودية، بواسطة اقامتي هناك، فهذا هو الغرض الرئيسي الذى اهدف اليه، فاني بخضوع ارجو أن انال هذا الطلب

وفيما يخص رسالة المقدم التي كنت سابعثها مع رسالتي، فاني لم ابعثها الا بعد اتياني الى قادس، حيث سيكون ذلك أضمن من هناك ولهذا فاني قد عزمت حسب المألوف ان أرسلها الى سعادتكم من قادس

جبل طارق 10 يناير سنة 1622

ثم كتب اليه رسالة ثالثة بتاريخ 13 يناير المذكور، جاء فيها ما يلي :

سيدى الفاضل الماجد

أرجو منكم المعذرة على ازعاج سعادتكم بتقريراتي، ولكن بسبب الالحاح الشديد من قبل المستر تومس أسون (8) الذى كان معي في تطوان فالح علي في الكتابة الى سعادتكم، فاني لم أستطع رفض طلبه، فأرسلت رسالتي مدفوعا بهذا الاستعطاف

ومن هذه الرسالة تدركون مدى ما يتمتع به مثل هذا التاجر من امان مستتب، يعم نفعه اولئك الذين يتاجرون هناك، فهذا اكثر فائدة بالنسبة الى مملكتنا من بيع الستة العبيد، ومع هذا فاني أترك ذلك لنظر سعادتكم

لقد هممت منذ يومين أن أذهب الى قادس، ومن هناك أبعث الى سعادتكم برسالة حاكم تطوان، ولكني لما كنت غير متاكد من كون الجو سيسمح لي بهذه الرحلة، فاني أبادر ببعث هذه الرسالة الى سعادتكم، متوسلا اليكم بان تتكرموا بارسال الجواب الى في قادس، حيث انى ـ بلا شك ـ ساكون هناك خلال ايام قلائل، واملي ان يكون ابحارى اليها غدا

واخيرا أرجو من سعادتكم ان تغفروا لي ازعاجي المستمر، وانا باق

خادما مخلصا محبا لسيادتكم

الامضاء : جون دوبا

جبل طارق 13 يناير 1622

ملحق : قد اعدت الى سيادتكم رسالة اليهود التي ارسلتها الي ولا استطيع دحض أى شيء ادعوه لانفسهم، واقصى ما اتخذ لهم هو ان الجنرال (يعني السير روبرت منسل) استطاع تحرير أربعة رجال انجليز، رئيس وبحارة آخرين وطليان، وترك هؤلاء اليهود كاسرى ليباعوا، او يؤدوا 1200 قطعة من ذوات الثمانية، ان استطعت الحصول على ذلك ولكن تفضيلا للاستراحة منهم توخذ 1000 قطعة (ويعنى من ذوات الثمانية) مقابل اطلاق سراحهم

ويلاحظ من هذه الرسالة ان خطاب المقدم النقسيس الى السفير الانجليزى لـم يرسل اليه الا في 13 يناير من سنة 1622 فبقيت المشكلة قائمة كما سنـرى في هذه الرسالة التي كتبها اليه في عاشر يليه وهذه ترجمتها

الى سيدى الشريف الحق الجيـد

ان خدمتي الضارعة تذكر سعادتكم وقـد عدت من طنجة، بـأني رأيت من اللائـق ان أقـدم لسعادتكـم تقريرا مفصلا عن اجراءاتي التـي قمت بها مـع المورسكوس الذين ما زالوا في عهدتي، وأيضا عن الحالة الراهنة للبلاد، من طنجة الى فاس، حيث اني كما هو في ذكر سعادتكم، سأكون عازما على تنفيذ أوامـر الجنرال الذى استخدمني وبذلك فاني سأكون على يقين مما سيطلب منى من تقـرير وان اجـراءاتي هنـاك ستسر الجميـع

كنت أخبرت سعادتكم سابقا، أن السير روبرت منسل قد ترك المرسكوس معي، ليفادى بهم كثيرا من مواطنينا الاسرى بتطوان، وبما أنهم كانوا عديديـن وان فداءهم لا يمكن الان تنفيذه، فاني كتبت الى السر روبرت منسل، عن كـل مـن طريق البحر وطريق البر، لاعلـم منه الاجراء الذى سأتخذه معهـم، ولكن حتى الان لـمـا اتلق منه جوابا، بـل ولا اى انسان من انجلترا، والى جانب هذا فان السير روبـرت منسل كان قبل سفره الـى انجلتـرا، قـد بعث في طلب المورسكوس المذكورين ليحضروا الـى سفينتـه، ووكـل أمرهم الـي، حتى لا يبـاعوا، الشيء الـذى اهتممت بـه واستوعبتـه، واني لست قـادرا على تنفيـذ اوامـره حـاليـا، كمـا أمـرت بـذلك

لهذا صممت تمامـا على حملهم الى طنجة، ومن هناك بواسطة الرسائـل المتداولة بيني وبين مقـدم تطوان، انتهيت معه الى ان يـؤدى المـورسكـوس مصاريف الطعام الذى نصرفه لهم، وان يسلم ثمانية من الانجليز، مقابلهم

وحيث انه ليس في الامكان الحصول على اكثر من ذلك فقـد اعدتهـم معـي الى فادس، وزيـادة على ذلك فان المقـدم المذكور، كـان قـد اصدر اوامـره بالابتياع او يشترى اى انجليزى او اسكتلنـدى ينتمي الى صاحب الجلالة، ملك بريطانيـا العظمى زيـادة على هـؤلاء الذين بقوا هناك في الوقت الحاضر وهـم ستون فـلا يسمح بذلك سواء في المدينة وفي جهات اخـرى من البلاد التى هي تحت حكمه، كمـا هو واضح في الرسالة التي ارفقها هنا بما أرسله الى سعادتكم، وقد صمم على ان يبين السبب الذى حمله على هذا الاجراء، لمـولاى عبد الله ملك فاس، الذى يعترف بـه ملكا لـه، بحيث ان الملك المذكور ربمـا

سيصدر في هـذه المناسبة، أمـرا يشمل جميع المغرب، وجهاتـه التي هي تحت حكمـه، بالايباع اى شخص ينتمي الى ملكنا او يشترى

وبمقتضى هـذا، فان تجار بلادنا في كل الثغور، سيعاملون معاملة حسنة، ويتاجرون بكـل انصاف وعـدل

ولكن من اجـل النتيجة النهائيـة التي ستسفر عن هـذا الصنيـع الحسن والتي سيتمتع بها تجارنا، كمـا ينال بهـا هـؤلاء الذين ينتمون الى شعبنـا حريتهم، وقـد كانوا سيوتى بهم الى بلاد البربر ليباعوا، فـان المقدم المذكور يطلب مـن صاحب الجلالة ان يرسل الى تطوان، من ياتي منه برسالة التصديق ومـن هناك يوجـه الى ملك فـاس

وبموجب رسالة صاحب الجلالة، فان المغاربة (9) والمورسكوس سيتعاملون مـع شعبينـا معاملة لا تعـرض جانبهـم لحيف قـد يقـع منا، بـل يتمتعـون بالعدل والانصاف سواء في المكان الذى حدث فيـه ذلك الخطـأ وفي انجلتـرا بطبيعـة الحـال

وفي هـذا الخصوص اذا رأيتم سعادتكـم انـه يليق بعرضه على صاحب الجلالة، وان صاحب الجلالة سيوافق على استخدام خديم لـه هنا للقيام بهـذه المهمة، فاني ساكون مدينا لسعادتكـم جـدا في ان اعين لذلك، بمـا اني قـد قمت بمثل هـذه الاعمال خير قيام، وان كنت حتى الان لمـا أتلق أيـة مكافأة او اى وعـد بهـا على ما قمت به من اعمال وانفقت فيه من الزمـان سنتين أديتهمـا في مثـل هـذه الخدمـة وفي خـدمـة اسطـول صـاحب الجـلالـة .

وعلى كل فاني اعتبر نفسي قـد نلت اكثر من مكافأة وشرف، فأملي ليس في ان اصبح غنيا بواسطة هـذه الوظيفة، بـل انا متاكد من أني ساكون مرتاحا فيمـا يخص تحرير هؤلاء الذين هم في ذلك القطر يعانون الشقاء، والبلاء الذى يصيبهـم من رعايا صاحب الجلالة، فأمنـع بذلك المثل الذى قد يقع لكثير مـن البحـارة المساكـين

وبعطف النظر الى الحالة الراهنة التى عليها المغرب، فان مولاى زيـدان يحكـم من فاس الى مراكش، وعلى فاس ملكها عبد الله، ويلقب نفسه بملك فـاس وجميع البلاد أو السواحل المغربية القريبة مـن السواحل المسيحيـة، ولكـن مولاى محمد (10) تمكن من اغتصابه للسلطان طيلة ثلاث سنوات، وتملكه فيها حكم القصر الذى كان مدينة محصنة ذات مبان جميلة . الا ان مولاى محمد

لأجل أن يستولى على هذه المدينة أصابها بكثير من الدمار . ثم انه لم يقع هذا الدمار للمدينة وحدها حيث كان قد بويع له بل انه لما علم بان مغربيا كان مقدسا محترما محبوبا من الناس لفضله، خاف من ان يخلعه، فأرسل في طلبه سرا، متظاهرا، بأنه سيباشر معه بعض المهام، ولكنه كان ليبتر حلقومه وحينئذ لما مرت بعض الاعوام، كان برتغال طنجة، الذين لم يكونوا يجرؤن على الخروج من ابوابها بسبب الهجوم الذى كان المغاربة (9) يشنونه عليهم، مما شهر وكان له خطر عظيم، فانه الان بسبب ان مولاى محمد المذكور، كان بوسيلة الغدر قد قطع حلاقيم كثير من الناس فان البرتغال الان مستريحون جدا، بحيث انهم يتقدمون في بعض الاحيان عشرة فراسخ بدون ان يتعرض لهم أحد

والان بسبب كثرة الشكاوى التي وجهت الى ملك فاس، من ظلم وطغيان مولاى محمد فقد جاء ملك فاس المذكور، وانتهى قريبا جدا من القصر، ليطرد ذلك الطاغية من البلاد، او يقطع حلقومه، وقد حصل هذا بسهولة، لان الاهالي كانوا يبغضونه، على حين كان البرتغال قد اخطروه بأنهم لن يحموه او يقبلوه لاجئا في مدينتهم . وبقتله فان مولاى عبد الله المذكور، سيتمتع بهدوء عظيم في بلاده، مما ييسر للقوافل ان تسير سيرها في سلامة وأمان وذلك من المدن الثغرية الى المدن التجارية الداخلية

وبهذا فقد قدمت لسعادتك هذا التقرير عن الحالة، التي علمتها عن الوضع الراهن بالمغرب، واني بخضوع أتوسل الى سيادتك ان تصفح عني في ازعاجي الممل بهذا وانى ما زالت

خادم سيادتك الخاضع الطائع للامر

الامضاء : جون دوبا

من قادس 10 يليه 1622

ملحق : آمل من سيادتك متوسلا، ان تعيدوا الى في البريد الصادر الاتى رسالة المقدم، الا ان كنتم ترون انه من اللائق اجراء ترتيب آخر عوضا عن ذلك

ننتقل من هذه الصلات، التي كانت تتركز حول شمال المغرب، ونتجه الى جنوبه الاقصى، فنجد هناك وثائق تتعلق بالمرابط على بن موسى، ويصح

أن نجعل اول هـذه الوثـائق التاريخيـة، رسالة كتبها تاجر انجليزى متوسلا بها الى المجلس الاستشارى وكان هـذا التاجر متصلا بهذا المـرابط وكان ـ كما يقول ـ اول تاجر مسيحي، تاجـر بهـذه البلاد، هاسة والتاجـر المذكور يدعى سمويل كيد، أمـا تاريـخ الـرسالـة، فكـان 3 غشت سنـة 1623 . وهـذه تـرجمـة الـرسـالـة :

الى السادة اعضاء المجلس الاستشارى الشريف، لصاحب الجلالة، يبعث الضارع سمويل كـد بهـذا الالتمـاس الذى مضمنه

ان المتوسل بكم المسكين، كان فيما مضى يعيش في قصر بعض أمراء المغرب، يـدعى سيدى علي، رلم يكن حينئذ مسيحي سبق له ان أقـام بهـذه البلاد، وقـد حظى المذكور بحب الامير المذكور وشعبه، لدرجـة انهم صاروا يرغبون في أن ياتوا مـع المتوسل بكـم الى انجلترا ويعودوا معه، فحصل هذا في سفينـة شحنت ببعض السلـع التي عينوها

وبذلك كان المتوسل اليكم، قد حصل على الذهب المغربي، وبعض السلع يتصرف فيها بما يرضيه، فاتى الى انجلترا بسلعه ولـما كـان هنا بلندن، اتصل بـه سيد يدعى المسترجون بول M. John Ball احـد تجار هذه المدينة، فعرض عليه عرضا مرضيا ان هو مهد له القيام بالمثل . وبنـاء عليه، فقد ابحر في غشت سنـة 1621 في سفينة قاصدا المكـان المذكور، الذى وصله وتزود منه بتلك السلع مستفيدا من ذلك الامـير الذى كان يستخدم المتوسل بكم كتاجره هناك، وبهذه الوسيلة، كـان صاحب السفينة المذكورة يتردد على ذلك السـاحل وتلك الموانى متصلا بالقصر والامير، ومتعاملا مـع تجار آخـرين من المغاربـة (9) واليهـود، فـي عـدد 500، فكـان في أقصر مدة يبادلهـم السلـع ويحصـل بسرور على ما قيمته 5000 لبرة، ذهبـا وعنبرا كهرمانا، وكـان سيعاود ذلك، الا انه لـم

يجـد لسفينته ربانـا بسبب معاملته التى نالهم بضررهـا

لهذا ـ ان سر سيادتكـم ـ فان المتوسل بكم، استغل في تلك الرحلة المفيدة فكـان هناك مـع المستر بـول المذكور، وانفق فى هذا الصدد اموالا طـائلـة تبلـغ 78 لبرة و 17 شلينا و 6 بنسات، أجـرة الركوب للقصر الاميرى المذكور والعـودة منـه، ولاداء سلـع مختلفـة لـرفقـاء السفينة، ولتقديم هدايا للامير وشعبـه، ممـا ادى المتوسل بكـم ثمنـه من كيسه، وركب لهذا الغرض فقط في تلك الـرحلـة الشاقة التجاريـة، ومـع هـذا فان المستربول لـم يمكـن المتوسل بكـم مـن أيـة ترضية، ولا يعلـم سببا لهـذا الرفض الذى أصر عليه

مخلفا بذلك ما تعهد بـه ووعد بتنفيذه، وكـل ما أذكـره حقيقة يشهـد بهـا جمـاعـة تجـار السفينـة المـذكـورة

ففي استرحام وخضوع، يتوسل اليكم، المصاب بالضرر مـن تلك الرحلـة المذكورة، فيما قيمته 500 لبرة، الى جانب المشقة التي تحملهـا بسببهـا، ان تنظروا في شكواه المقدمـة الى سيادتكـم الطيبة. فعسى ان يطيب لشرفكم أن تنالـوا القضية بحزمكـم الشريف، فتامروا المستر بول المذكور بابداء الاسباب أمـام سيادتكم، او اى شىء تعينه سيادتكـم في هذا، ولمـاذا لـم يرض المتوسل اليكـم المسكين، بنـاء على تعهـده ووعـده

كمـا يفـرضه الـواجب

وهكذا تشير الوثيقة الى هذه الصلة وسنرى فيما بعد أن الصلات بهـذا المرابط ازدادت استحكـامـا، وأن الملك الانجليـزى شرل الاول صار يكـاتبـه ويعقـد معـه معـاهـدات السلـم

وعلى حـين كانت هـذه الصلات تتقوى بـين هـذا المرابط وغيره مع الدول الاجنبية، كانت صلات هـذه الدول تفتر مـع الحكومة التقليدية، او مع البيت المـالك بعبارة أخـرى، اذ أن موضوع هـذه الصلات، كـان منصبا على التجارة ومشاكلها والقرصنة ومعضلاتها فلما خامر اليأس هـذه الدول من كون الملك يستطيـع حـلا لهـذه المشاكل والمعضلات، حصل هـذا الفتور، أو الانصراف بالمرة، كما كـان مـن جمس ملك انجلترا، ففي أوائـل العقـد الثالث من هـذا القـرن، نشطت حـركة القرصنة نشاطـا هائلا، وصارت سلا بصفـة خـاصة يلجـأ اليها قرصان الاتراك وغـيرهم من مختلف البلاد الاوربيـة، بعد ما كـان هـؤلاء يـاوون الى المعمورة التى كانت قد سقطت في يـد الاسبان، منـذ عشر سنـوات كـما سلف .

وهـذه رسـالـة، كتبهـا Thomas Cely عـمـدة بليمـوث Plymouth

وبعث بها الى المجلس الاستشارى، بتاريخ أواخر ابريل من سنة 1625 جاء فيهـا مـا يلـي :

ان واجبي بكل خضوع يجعلني أذكـر : ـ ان سر سيادتكـم أن تشعروا ـ أنـه في هـذا اليوم سمعت، أن بعض الاتـراك والمغاربة (9) والجرمان، المنتمين الى سلا بالمغـرب، قـد أغاروا على ساحلنا، فنهبوا عـدة أشياء، ممـا استطاعوا

التغلب عليه، تلقيت هذا من تقرير رجل يدعى الفارس وليم William Knight (كما ستجده سيادتكم مرفقا بهذا) مما عسى أن يبدو، في التقرير الذى حملته مصدقا لكم، وهو أن سفينتين للصيد، ذكرت في تقريره، كانتا منذ قريب طافيتين على البحر، وليس بهما رجالهما ولاحبالهما. كما أن التقرير، الذى قام به رجل يدعى وليم دربر من بليموث، يؤيد بعض ماورد (كما تجدونه في هذا التقرير المرفق والمرسل الى سيادتكم) في تقرير الفارس المذكور

فان سر سيادتكم أن تزدادوا علما، فاني حصلت على معلومات حقيقية، وهي أن رجلا يدعى Pethericke Honicomde وهو احد الانجليز بسلا، بعث أخيرا برسالة الى زوجته، مؤرخة بخامس مارس الفارط، وهي تقطن بستونهوس قريبا من بليموث، يخطرها فيها، ضمن أشياء اخرى، بأن هناك ثلاثين بحارا في سفنهم بسلا، يستعدون للاتيان الى سواحل انجلترا، أوائل الصيف، فان لم يكن هناك أخذ بالحيطة لمنع ذلك، فانهم سيحدثون هناك أعظم الاضرار.

اني لم أستطع الحصول على تلك الرسالة، نفسها بأية وسيلة، غير اني تلقيت هذه الانباء من جار صدوق، استقى هذه المعلومات، من قراءته لتلك الرسالة، ولهذا فاني أعتقد أن من واجبي اخطار سيادتكم

واني في خدمة سيادتكم بكل صدق

طومس ميور

بليموث 18 (أو 28) من أبريل سنة 1625

هذه هي رسالة العمدة المذكور أما التقريران الوارد ذكرهما فيها، فهما كما يلي :

(تقرير وليم الفارس)

انه في اليوم الخامس عشر من أبريل الحالي، كان آتيا من نهر يلم Yalme (مرفأ قريب من بليموث) في صندل محمل بالرمل، فالتقى بسفينة صيد من يلم، ثم أتت سفينة من سلكم Salcum (مرفأ قريب من بليموث بـ 30 كلمترا) ينتمي الى نيوفوندلند، وكانت، كما قال له أصحاب السفينة المذكورة، انهم

أسروا في اليوم الثاني عشر من ابريل الحالي، بواسطة سفينة من سلا، حمولتها ثلاثة عشر طنا أو نحو ذلك، وكان أصحابها تسعة من الجرمان وستة من الاتراك وثلاثة من المغاربة (9) أحدهم أسود كما قالوا انه كان أيضا هناك آخر أزهر في رفقة السفينة السلاوية المذكورة، فحملوا ذلك صوب لو Looe في كرنول Cornewall حيث ظن أنه كان في رفقة السفينة السلاوية المذكورة

ويقول هذا التقرير زيادة على ذلك، ان احد الذين كانوا في سفينة الصيد ولا يتذكر اسمه، حكى له هذا الخبر وهو انه كان في سفينة لو المذكورة في رفقة سفينة اخرى لصائد، وكانتا معا قد أسرتا في اليوم الحادى عشر من هذا الشهر، قريبا من ايديستن Eddystone مشهد من مرفأ بليموث، بواسطة السفينة السلاوية المذكورة، فأخذوا جميع الرجال من هتينك السفينتين المذكورتين التابعتين للو، وكانوا اثنى عشر، فقطعوا احبال السفينتين المذكورتين، وتركوهما بعد ذلك تطفوان على التيار ويقول هذا التقرير أيضا، ان الشخص المذكور حكى له، انه فر من السفينة السلاوية المذكورة، بعد ما أسر، وفي هذه الحال أتى ليشهد بانه كان موثقا في السفينة السلاوية المذكورة مع الاخرين الذين قد اسروا معه مغربي أسود ينتمي للسفينة السلاوية المذكورة ففك قيده، وبعد ما صار مطلقا من القيد، فر من خلال كوة في جانب السفينة المنسوبة لسلكم Salcum المذكورة، كانت جاثمة بقرب السفينة السلاوية

واخيرا يقول ذلك الرفيق، الذى استطاع الفرار بمشقة من السفينة السلاوية المذكورة في هذا التحقيق، انه كان هناك احد عشر شخصا أسروهم من سفينة سلكم المذكورة، وأخذو كثيرا من الازودة التى تقدر بنحو مائة لبرة، وانتزعوها من السفينة، ويقول المقرر المذكور انه أخذ الرفيق المذكور خارجا من سفينة يلم المذكورة الى صندله، وأنزله الى Crymmell Passage القريب من بليموث في يوم هذا التحقيق

اما ما ورد في تقرير وليم درير، فهو ما يلي :

انه منذ عشرة أيام، كان في فلشنج Flushing وهناك رأى سفينة رجل فرنسي، حمولتها نحو 35 طنا أو نحو ذلك، مع تسعة من الاتراك وآخرين من الجرمان، ومغربي أسود فيها، كما قص قوم فلشنج : انهم كانوا ينتمون لسلا، خرجوا بسفنهم من هناك وابتدأوا رحلتهم نحو 18 يوما منذ ذلك، أماما

وقـع بعـد هـذا فانـه لا يدرى، الا انه في الواقـع يعتقد ان تلك السفينة هي التي سرقت من سلكـم، مـع السفـن الصيديـة للـو

التوقيـع : وليـم دربـر

وهذا تقرير آخـر لرجل يدعى وليم كرت William Court بعثه من بلموث بتاريـخ 17 ماى سنة 1625، بمـا يلي :

أنـه منذ سنة سافر من مرفـأ بليموث الى سفينة تنتمي الى «امستـردم» تدعى الحظ Fortune حمولتها مائتا طن، في رحلة تجارية الى البرتغال، وكـان ربانها يدعى وليم طومس، وخلال ستة أيام بعد ابحارهم مـن بليموث، دوهموا بقرصانة الاتراك من سلا، فأخذ الاتراك القرصانة من السفينة المذكورة «الحظ» هـذا المذكور واربعـة انجليزيين آخرين، وباقي الرفـاق وكانوا من الفلمنك، فلـم يتحرشوا بهم، ولكنهم أمروهم بان يتابعـوا بسفينتهـم «الحظ» رحلتهـم المقصودة بعـدما حملوا هـذا الذى قـدم هـذا التقرير والاربعـة الانجليـز الاخـرين الى سلا، حيث ان هـذا المصاب ظل منذ ذلك في قيد العبوديـة

ويزيد قائلا، انه حول ثمانية أسابيع منذ ذلك، خـرج من سلا في سفينـة تركية من سفن سلا، في رفقـة خمسة سفن أخـرى تركيـة مـن نفس المكـان، فاتجهت في طريقها الى سواحل انجلترا، وظلت في الطريق تتربص نحو شهـر وحينئذ، أسرت احدى تلك السفن الست التركية سفينة من لنـدن، حمولتهـا ستون طنا أو نحـو ذلك، في الرأس الشمالـي Norther Cape وأخـذت منهـا رجالها الاحد عشرة، ومدافعهم، وبعد ذلك أغرقوا السفينة المذكـورة، وحوالى ستة أيـام بعد ذلك، أسروا ست سفن فـرنسية، وسفينة صغـيرة مـن سلي Sylly (II) وستين رجلا كانوا في تلك السفن المذكورة، فأخـذ القراصنة هـؤلاء الرجـال جميعا الى سفنهم، وسلسلوهم، وتركوا المراكب تطفو مع التيـار

ويزيد فيقول، انـه بعد ذلك باثنى عشر يوما، كان الاتراك القراصنة الذين داهموا السفن والسفينة الصغيرة من سلى قد اسروا سفينة من بليموث كـانت حمـولتهـا ستين طنا، كانت قاصدة الى نيوفوندلند في رحلـة صيدية، وكـان رئيسها يدعى وليم لج نـاخذوا منها رئيسها المذكور وسبعة عشر آخرين مـن رجالها الممتازين، فسلسلوهـم ايضا، وتركوا في سفينة بليـومث ستـة مـن رجالها الذين لا غناء فيهم، ووضعوا هذا المصاب فيها، ثم سرحوا سفينة بليموث المذكورة، وبعـد خمسة أيام من ذلك، اتـوا الى سنت ايفـز في كرنوول .

ويعتقد هذا المقرر حقيقة ان المدعو كوبر Cooper كان قائد السفينة التركية المذكورة، حيث كان هذا المذكور والاربعة الانجليز الاخرين، والخمسة الفلمنك المرتدون، الى جانب ثلاثين تركيا ومغربيا، وهكذا فانه سمع الانجليزي والفلمنك المرتدين يقولون ان عليهم أن يختطفوا المسيحيين من سواحلهم

الامضاء : طومس سيلي ميور

هذا ما ورد في نشاط قرصنة سلا على هذا العهد الذي انتهى بنقض الصلح بين انجلترا واسبانيا وقيام الحرب بينهما

وفي هذا التاريخ بالذات، كان جون هرسون قد أبحر الى المغرب، فوصل الى تطوان في ثالث عشر من ينيه هذه السنة فالفى احمد النقسيس قد توفي وخلف أولاده الاربعة، الذين كانوا يحكمون بالتناوب، وفي مقامه هذا بتطوان بعث برسالة هامة، الى قائد الاسطول الانجليزي، الذي كان يحاصر قادس، بعد اعلان الحرب من شرل الاول على اسبانيا، (12) وهي كتقرير عام عن حالة المغرب بما يلي :

سيدي

قد امرني السكرتير المستر مورتون Mr Morton بانه بمجرد ما أتصل بالاسطول الذي يرسو في هذا الشاطىء ارسل الرسائل على وجه السرعة ولم اكن اعلم حينما خرجت من انجلترا من سيحل قائدا رئيسا في هذه الخدمة ولهذا فاني التمس المعذرة اذا كنت اخطات في حق الاسلوب او حقوق اخرى ولكن لنصل الان الى جوهر الموضوع من حيث اتصاله بعملي الحاضر لصاحب الجلالة ومن حيث اقدم التقريرات، والحمد لله ان ارسل علينا ريحا طيبة ومسايرة من انجلترا بحيث اننا كنا في تسعة ايام ـ تماما ـ على فم المضيق ولكن هناك التقينا بالرياح الشرقية التي كانت تهب من الابيض المتوسط بضعة ايام وفي ثالث ينيه قد وصلت هنا الى مرسى تطوان هذا وفي نفس الليلة نزلت الى الشاطىء وكتبت الى المقدم بوصولي مع رسائل صاحب الجلالة وفي الصباح التالي بعث لي رسالة يهنئني فيها بسلامة الوصول ومنها علمت ان المقدم الشيخ كان قد توفي حديثا، وكان على قيد الحياة حينما كنت هنا في المدة السالفة وكتب رسالة الى مولاي زيدان وبعثها معي طالبا مني ان اشهد له بانه لم يعترف باي ملك آخر بل به فقط (وما زالت عندي رسالته للاطلاع عليها) ولكن اولاده الاربعة الان كل منهم يحكم على انفراد وثلاثة منهم كانوا قد

خرجوا الى الخارج مصحوبا كل منهم بالفرسان والرجالة كما هي العادة عندهم في عملهم ضد الاسبان بسبتة وطنجة واحد الاربعة يبقى دائما للمحافظة على المدينة وهو الذى ذهبت اليه وسلمته رسالة صاحب الجلالة حيث سر بذلك كثيرا وبعد يومين او ثلاثة رجع باقي الاخوة واجتمعوا معا ثم أرسلوا حولي ولم يأذنوا لاحد. ان يحضر اجتماعنا لا مغربي ولا يهودى الا السكرتير وهو احد «الموريكوس» الذى يترجم بالاسبانية وبواسطته أعربوا جميعا عن ترحيبهم بي واني أتيت من اعظم امير يحفظون له الوداد والصداقة ويشيدون بفضله فاجبتهم بالمثل وفهمت ان كلا من المغاربة واليهود عموما قد سروا بهذه السفارة خصوصا الاندلسيين و «الموريسكوس» الذين طردوا من اسبنيا وهم في هذا الجزء من المغرب وفي فاس كثير العدد ولهم اعتقاد سابق في ان صاحب الجلالة له اعظم قوة حربية على استعداد دائما، وقد جعلهم اتياني يظنون ان ذلك لاجل العمل في هذه الناحية ضد اسبانيا .

قلت لهم ان لى ايضا رسالة من مولاى الملك الى مولاى زيدان تتعلق بالاسرى الانجليز واشياء اخرى واني آمل ان اذهب لتقديمها اليه بكل سرعة فالاولى ان اتخذ سبيلى من هذا الطريق الى هناك واني لما كنت اخيرا هنا كتب لي أبوهم الرسالة التي اريتهم اياها، بانه يعترف بان مولاى زيدان الملك لاغيره، فقالوا لي ان سفرى عن طريق البر مستحيل لان البلاد مضطربة والطرق خطيرة فهناك ملك في فاس وهو مولاى عبد الملك وهو حديث الشباب وملك آخر في الرباط وهو مولاى محمد وفي مراكش ملك آخر هو مولاى زيدان وهو الان قد خلعه سيدى يحيى (بن عبد الله) وسيدى علي (بن موسى) اعظم اولياء سوس فهما يعلنان عزله ويحاولان ان يقيما ملكا «اخر هنا ولهذا فان مولاى زيدان قد بعث اخيرا يطلب الفا من مورسكوس، سلا على هذا الحادث لانه يعدهم احسن جيوشه .

اما فيما يتصل بهم فقد اقروا بانهم لا يعترفون بهؤلاء الملوك ولا بملك آخر الا بالله فكل من ابيهم وهم قد أدوا خدمات سابقة لمولاى زيدان ولكنه عاملهم معاملة سيئة الى جانب هذا فقد اظهر نفسه بانه الطاغية القاسي في حكمه ولهذا فلهم الحق أن يقفوا عند الاعتماد على رعايتهم ويعتبروا أنفسهم حكاما احرارا كما هو الشان في البندقية والاراضي الواطئة وهم يدعون ان الزعيم في اعتبارهم هو الذى يستطيع ان يخلص البلاد من اسبانيا وليس في هؤلاء الملوك واحد منهم ـ كما يبدو ـ قد اراح البلاد فصار اسم هؤلاء ممقوتا بينهم كما كان الامر في الازمان الغابرة على عهد الرومان . ولهذا فليس

لمولاي زيدان اي حكم عظيم عليهم ولكن للملك الاسم فقط . وقد قسمت مدينة فاس بين الاندلسيين والمغاربة وهم في تنازع مستمر لان الاندلسيين تجمعوا سريعا في كل مكان وهم ـ كما سبق ان قلت ـ أحسن الجنود . وقد استطاعوا أن يلتفوا حول رئيس واحد فكانوا بذلك قادرين على ان يؤدوا خدمات جليلة جدا

لقد مكنني المقدمون من التصرف وفق ما اتفقوا معي عليه وهو أنه ان سر صاحب الجلالة أو هؤلاء الذين يقومون بتمثيله أن تهاجم سبتة أو اى مكان قريب من حكومتهم فهم سيساعدونه بعشرة الاف مقاتل من البر ولن يعمل الانجليز الا في البحر وبقوة صغيرة وبمجموعة من البطارية في البر وسيرى هؤلاء ان المقدمين سيموتون دونهم ليقوموا بخدمة ملك الانجليز ضد اسبانيا، وحينئذ فسواءهم والمدينة التي هي آهلة بالسكان واحواز المنطقة من أقصى ما يحكمون الى أقصاه كل ذلك سيكون في خدمة ملك الانجليز تابعا له وهم يأملون أن يضعوا انفسهم تحت حمايته ولا يطلبون مني الا شيئين فقط ان اعمل على مساعدتهم ببعض البارود ليكونوا في خدمة صاحب الجلالة وليدافعوا ضد عدوهم المشترك، ولهم بعض القطع الحربية قد كسرت هنا فصارت غير صالحة فيرجون ان تحمل الى انجلترا لتصلح هناك وتجدد ثم ترد اليهم على أن يقدموا كل انواع الزاد والمعدات الضرورية التي يمكن أن تقدمها هذه البلاد سواء لسفن صاحب الجلالة أم لاغراض اخرى مرغوب فيها مما هو مفصل في رسالة صاحب الجلالة

وبما ان لي التفويض في ان اثير اقصى المسائل حتى اطلع على العلل فقد فعلت ذلك فرأيت اندفاعهم مع احتياط قليل من جانبي وحيث وضعوا في عظيم ثقتهم وأفضوا الى باسرارهم ايضا فاني سألتهم اذا كان هناك اسباب قد تستدعي كثيرا من السرعة (ولكني نفسي لا اعلم الترتيبات الخاصة) في تقديمهم لهذه المساعدة من البر كما سبق ان وعدوا به فهل يمكن ان المورسكوس او غيرهم يوجهون الى بعض الجهات الاخرى حيث يحتاج اليهم جدا فاجابوني بانهم لا يمكنهم ان يكرهوا احدا على الخروج او ترك بلدته فريدا غير محروس خوفا من اعدائهم ولكنهم يمنحون حق المغادرة لكل من المورسكوس او اليهود او غيرهم فيذهبون باختياهم اما اذا كان بواسطة البر (كما سلف) تجاه سبتة او اى مكان اخر قريب منها فانهم يذهبون متنقلين بانفسهم شخصيا في كل جهات المنطقة مع القوة التي يستطيعون ان يجهزوها مؤكدين لي أنهم سيقفون عند كلامهم وانهم لا يعدون بأكثر مما يستطيعون انجازه .

وبهذه الترضية الطيبة فاني قد ارتحلت عنهم ولكن ما انجزناه مقدما بيننا كان طبقا لذلك التكتم . ولهذا فاني التزمت السرية عند اول الامر (سبتة قريبة جدا وقد ارسل مغامر مع بضعة فرسان من هناك ليفتكوا الاسرى) وكل من سالته في اى مكان عما يطلب فيما يخص عملي يجيب بمثل ذلك وقد كان صدر من المقدم انه يوافق على كل شيء دفعة واحدة كما افضى بذلك السكرتير حينما جئت ايضا لافتك الاسرى ولا بـرم الصلح والتعامل المستمر للتجار وفي النهاية لنعمى اعين الاسبان .

وفي بضعة ايام بعد ذلك اذيع بلاغ يقضي بان لا يباع او يشترى اى انجليزى من الان فصاعدا من الاتراك او غيرهم ويقضى كذلك ان لا يقع اسير من الانجليز في يدهم ولكن يعامل معاملة الاحرار كما كان سابقا ومن خالف تجري عليه اقصى العقوبات وقد كان ياتيني برتغالي من هؤلاء الرجال في اوقات متعددة يزورني ولكن في الحقيقة لاحظت انه كان ياتي ليتفحصني فاجبته وفق المطلوب

اما هؤلاء الموريسكوس فانهم باستمرار كان الواحد منهم او اكثر معي لا يرغب في سماع شيء كما يرغب في سماع اخبار الحرب ضد اسبانيا وكانو يتداولون معي الحديث ويقرءون في الانجيل الاسباني الذى معى وكان معهم ايضا انجيل لهم يتملكونه فيما بينهم ويتوقون الى الذى معي كما يشتاقون الى كتاب Colvin (أحد اصحاب المذاهب المسيحية) والى كتب اخرى مؤلفة في ديننا وقد استطاعوا ان يحصلوا عليها بكثرة في اللغة الاسبانية كما كنت وعدتهم بها نعم كل من المغاربة او اليهود جميعا لا ينصتون الى شيء الا الى الحرب ضد اسبانيا والسلم والصداقة مع انجلترا وذلك بعطف عظيم ورغبة صادقة نحو شعبنا بل حتى نحو ديننا المسيحي مراعين بلا ريب ان الله له اصبعا يقلب بها قلوب جميع الخلق ويستطيع ان يوجهها الى اى طريق يرضاه حتى قلوب الملوك كما يقول سليمان وانا اعتقد انه من واجبي سواء لله او لصاحب الجلالة ان لا ينفق هذا الوقت من وظيفتي الا فيما يرضى الله والملك .

كل المسيحية الان في السلاح ولكى تنفخ في النار التى اوقدت سابقا ارجو ان شاء الله ان اشفع هذه التصرفات بتلك الحملة التى بدأتها فان ذلك ربما يمتد مع الزمان الى اعظم شعلة تفنى في النهاية العدو بل اتجرأ فازعم في ذلك ان فم الله قد نطق بذلك فان بابليون سيسقط

كما في الوحي الالهي اعملوا فضلاء أيها الانجليز النبلاء سيروا بشجاعة كما كنتم في الازمان السالفة فانه واقع انه واقع لا محالة (عبارة مسيحية)

وفي هذه النهاية بدا لفكري وارجو ان يكون ذلك من الله ايضا ان اكتب منشورين عامين بالاسبانية واحد الى المغاربة وآخر الى اليهود بمجرد ما سمعت ان الاسطول كان راسيا على الشاطئ.

وقد انهيت الى الاندلسيين ان يوزعوا منشورا آخر عاما ـ تحذير ايضا ـ على الاسبانيين انفسهم والبرتغال وكل هذه المنشورات باسلوب عام حيث لا المغاربة ولا اليهود ولا الاسبان يستطيعون ان يستثنوا منه وبالنسبة الى المغاربة فأنا متأكد من انهم لن يقدموا على خلافه لانهم كانوا من قبل قد تقبلوا ذلك وسلكوا الطريق الى تنفيذه وبالنسبة الى الاخرين فانهم ان لم يذعنوا له فهم جميعا لن يعذروا وسينصب ذنبهم على رؤوسهم لابد ان ينفذ امر الله وكلمته ولا بد ان ينفذ ذلك بكل قوة (كما يمكن ان يبدو هناك) وقد ارسلت نسخة من الرسائل بواسطة الرسول الذي يستطيع هناك ان يبلغ الى سعادتكم بعض المهام الاخر حيث انه من الممل جدا ان يكتب فيها وانه كان كثيرا بالنسبة الى حالة القطر في الوقت الحاضر فرأيت انه من واجبي ان اخبر سعادتكم بما يجري فيه وان اظل هنا الى ان اعلم مشيئة سعاتكم وانا غير مدرك بالتاكيد مقدار ما يجلب هذا المكان الى المهمة الحاضرة او مقدار ما يقصد به من حيث ان الاسطول ربما يكون احسن واسرع تزويدا من اي مكان آخر من اراضي البربر كما اني غير مدرك مدى ما تراه سعادتكم في عرض المقدم وفيما يخص احتلال سبتة فان ذلك يقع موقعا مناسبا جدا لكل سفننا التجارية المتصلة بالمضيق لتتقوى هناك ولتكون مزودة بكل الضروريات من وقت لاخر من انجلترا ولكوننا لنا هذه المدينة «تطوان» صديقة وكل البلاد التي حولها والتي وعدت بكل مساعدة فيمكن أقل حامية ان تحتفظ بها ومن هناك يتمكن تجارنا من أن يروجوا تجارتهم بسلامة ويتخذوا بها أسواقهم لكل البضائع سواء في مملكة فاس وفي امكنة اخرى تشعر بالحاجة العظمى اليها وتدعو الى التجارة ولكن المهم قبل كل شيء والرئيس في الموضوع هو التأييد الالهي وقوة الدين في هذه الاجزاء وسيطرة الايمان المسيحي عليها حيث يكون صاحب الجلالة هو الحامي الحقيقي لهم وقد نصب الميزان الذي يزن كل شيء حسب التقدير الديني فمن كل ذلك سيكون له هناك اعظم أرجحية كما يكون كل من اليهود والموريسكوس قبل المسيحيين في معظمهم بل كلهم سيكونون رعيته نعم

حتى المغاربـة انفسهم وحنئذ فكل ما يرغب فيه صاحب الجلالة سواء من التموين او من الرجال او من ذخائـر اخرى فان هذه المنطقة تستطيع ان تقـدم كـل ذلك اليه من وقت لآخـر واذا امتلك صاحب الجلالة جبل طارق فانـه سيتحكم في المضيق وبقيـة بـلاد البربـر التى تقـع على تلك الشـواطىء والتي احتلهـا الاسبان ولا تستطيع ان تعيش طويلا لاحتياجها الى القمح ومواد اخـرى مـن الذخائـر حيث انـه في الوقت الحاضر يقولون انهم يقعون عند اعظـم الاحتياج اليها، نعـم وكذلك الحال في اسبانيـا نفسها ولكن هناك في باقي بلاد البـربـر اعظـم الذخـائر كما اني آمـل ان تكون المعمورة ايضا في قبضة صاحب الجلالة للاسباب المذكورة سابقا والنهر يجري منها الى فـاس حيث ان صاحب الجلالـة يسيطر على اسبانيا بواسطة البحـر وتكون ملجـا لسفننا في كل العمليـات الواجب اتخاذهـا .

احتل مولاى زيدان سلا وهي بعيدة عن المعمورة بخمسة عشر ميلا ولكن اى حكـم لـه هنـاك ؟

انه في الوقت الحاضر يعتمد على العرب الذين تتمثل قوتهم الرئيسية في الخيول لهـذا لا أدرى مـدى قيـام هـذا الحكـم الـذى يعتمـد عليهـم

حينمـا تقلدت اولا مهمتي في هذه الخدمة كان على ان تكون تحت مسؤوليتى بعض السفن الصغيرة وغيرهـا كمـا كان علينا ان نضـع سلا تحت حوزتنـا ومن هناك نملك مدينة الرباط مدركين ان يكون ذلك بوسائل مختلفة ولكـن تغـيرت القضية حسب ما طرأ وقبـل هـذا الوقت بزمـن طويـل كنت استطيـع ان احقق ذلك بواسطـة مولاى زيدان نفسه ولكنى الان غـير مدرك ـ كما سلف ـ مدى ما يسعفنا هـذا المكان في المهمـة الحالية ارجو الله ان يصير كـل الامـور الى احسـن .

قـريبا أتى ببعض الاسرى من سلا الى هنا ليباعوا فقصوا على كيف وقعوا في الاسر هـم والانجليـز وكيف كـانـوا يعاملون هناك بشدة وقساوة وانهم قد اسروا بواسطـة هـذه السفن التى تنتمي الى سلا تحت حكم مـولاى زيـدان (زاعمـا انـه سياتى حتى الى القنوات الانجليزيـة التى هي ليست بعيدة عن سـلا) وهناك رايت الاسرى ستـين ينتمون على الغـالـب الى Newfoundland والآن قد وقف هـؤلاء المقدمون على مثل هـذا التصرف من مولاى زيدان. وبما ان لهـم اعظـم حكـم هنا سواء في المدينة نفسها ام فيما جـاورها فاني ارى من واجبي ان اعلـم سعادتك بكل هـذه الاشياء موضحا كل شيء يتعلق بسعادتك مـع الافتقار الى نصائحك الغاليـة لتشيروا على بمـا يجب عملـه سواء فـي

صيانة شرف صاحب الجلالة وتوجيه الخدمة الحاضرة التي يكلاها الله ومصالح صاحب الجلالة او الاسرى الذين سبق ذكرهم والتجار الذين يتعاملون هنا او في اى مكان آخر والذى اراه في نظرى الخطة المثلى هو ان نحصل على مفاوضة مع الكل في اسرع ما يمكن حيث تكون التجارة هنا احسن وسيلة لتمكيننا من السياسة التي تخلص امراء المسيحية هؤلاء المسالمين والمحاربين ـ على السواء ـ من ايدى الكفار (يريد الاسبان) بعناية الله الخاصة التي بعثت بينهم وايضا فانهم سينمون أقوياء جدا خصوصا وان كل العالم المسيحي الان في حيرة فلنبعث بالقوة من كل الجهات وهناك على الخصوص نقطتان قد سبق ذكرهما وهما سبتة المعمورة ومن السهل الاستيلاء عليهما بواسطة الطريقة التى سلفت : أن نضع باتقان قوة في الداخل واخرى في الخارج من المضيق نعم وحتى من الاسبانيين انفسهم فاذا امتلك صاحب الجلالة «جبل طارق» او اية ميناء قريبة الى تلك الجهات حيث ان كل واحدة تعضد الاخرى فانا لا اشك كثيرا حتى فى احتلال اسبانيا او البرتغال كما لا اشك في بلاد البربر التي تئن المسيحية تحت نيرها . فربما تسقط هذه البلاد في يدنا او يفر اصحابها من جانب الى جانب ـ ان شاء الله ـ خارج «بابليون» (تعبير مسيحي) ان هؤلاء الذين هم هناك قد بعثت اليهم بمنشورى العام وتحذيرى وارجو ان يكون تاثير ذلك حسب افتراض الحسن . وكذلك المنشوران الآخران كما قلت من ذى قبل بدون اى استثناء حتى لا تستغل ضد واحد منها على الاطلاق كذلك . وانا لا اشك في ان الله الذى قد حل من ذى قبل في قلب صاحب الجلالة الذى هو الحامي الحقيقي للايمان ولباقي الامراء المسيحيين ـ سيصنع جميلا . وهذا ما يجعل لي التفويض الكافي الذى يحفزنى على العزم في الامور .

ان ذهابي الى مولاى زيدان برسائل صاحب الجلالة يجب ان يكون عن طريق البحر لا البر حيث ان حالة القطر الان واقفة بالمرصاد بل حتى المقدمون مع خلو ذمتهم لا يسمحون لي بالسفر في البر لانهم يقولون اذا انا فقدت فيكون ذلك في حكومتهم وتحت حمايتهم التى هي ملجأ مقدس وبذلك تتوجه اليهم من امر عظيم تهمة في حقهم ولكني بعيدا عنهم استطعت ان الائم بين كلامهم وكلام غيرهم ايضا فاستنتجت انهم لا يهتمون مطلقا بذهابي الى مولاى زيدان قائلين انه قد يعد كثيرا ولكنه ينجز قليلا

اما فيما يخصهم فانهم سيكونون احسن من وعدهم حينما يحين الوقت لهذا فاني باق هنا وساظل في حيرة حيث انى لا اعلم كذى قبل ما هي

مشيئة صاحب الجلالة فاني اذا ذهبت الى مولاى زيدان فهؤلاء المقدمون ربما سيغارون كثيرا من ذلك وربما سيركنون الى اسبانيا من خوفهم منه وبذلك لا تكون لنا اية نجدة من هذا المكان . وقد بعث حاكم سبتة ـ كما قال لي بعضهم ـ من ذى قبل اليهم يعدهم بحمايته اذا هم وضعوا حدا لتلك السياسة وهنا رجلان مقيمان لاجل القيام باعمال الجاسوسية وليكونا على علم بكل الحركات ولكن في الوقت نفسه فقد كتبت الى مولاى زيدان اعلمه بوصولي الى هذا المكان وبانى أحمل رسائل صاحب الجلالة اليه واني راغب في الذهاب الى هناك ولهذا فاني على استعداد لاسافر من هنا اولا ـ بالبر ـ أو اذهب عن طريق البحر مع اول ريح تهب من الشرق وساكون مستعدا للسفر في اى قارب صغير ان شاء الله فانتظر ان اعلم رغبة سعادتك .

تطوان 20 يليه سنة 1925

ملاحظة : الاندلسيون هنا قد كتبوا الى اصدقائهم في سلا وفي اماكن اخرى يحرضونهم وقد ترك احد «الموريسكوس» هذه الخطوط معى والمرفقة بالكتاب حيث تدرك سعادتك الاتجاه العام للكل ولهم ايضا بعض التنبؤات القديمة تؤول الى ذلك التاثير الذى اظن انه من المستحسن ان يشفع بشرحهم لحقيقة ثابتة فينا صادرة عن كلمة الله .

أما رسالته الى مولاى زيدان، فترجمتها كما يلي :

لنغض عن كل ما فرط من المكاره والمؤسفات التي حاقت بخدماتي السالفة، وأسفاري التى كانت ترمي الى اقرار السلام، وربط الصلات بين جلالتكم والملك سيدي، ملك السلام، الذى هو الان في جوار الله، ولم يكن لذلك اثر كبير حتى الان وفي ذلك الباعث الذي كان قد عرض، كنت على كل حال قد أزعجت جلالتكم، بذلك التصرف الذى كان صادرا عن حيز الصبر الطويل وقد مكثت طويلا بسفينتي ذلك الوقت، في مرسى آسفى، طيلة سنة، اطفو فوق وارسب أسفل، بدون الحصول على اى اذن مطلقا من جلالتك، أو جواب على رسائل الملك سيدى، مما اعتبرته اعظم اهانة نزلت بذلك الملك العظيم، الذى كنت قد أتيت من حضرته

والان قد جئت مرة أخرى برسائل من الملك سيدى صاحب الحكم الان، وهو الملك شرل، الذى هو، بناء على معلوماتي، راغب في تجديد الصداقة السالفة، التي نشات بين أسلافكما، جاعلا اياى موضع الثقة، في القيام بأعمال هامة توجه بها الى جلالتكم، كما سيبدو في هذه الرسائل

وحيث اني رسوت في تطوان، على سفينة تابعة لسفن المضيق، فقد فكرت في السفر من هنا الى سلا (بطريق البر) ومن هناك اسافر بحرا الى آسفي غير ان المقدمين قالوا لي ان الطريق البرى مخوف جدا، ولهذا فانه من المستحيل ان أسافر عن طريق البر، بل انهم لن يسمحوا لي بذلك، قائلين انني الان في حمايتهم، فان وقعت في تهلكة بطريق البر، فربما يعرضون بذلك الى اتهام عظيم

ولهذا فارى انه من واجبي أن ألفت نظر جلالتكم، الى انه ربما كانت هناك سفينة من الاسطول راسية بمرسى آسفي أو سلا في هذه الايام، مستعلمة عني، ولعله يطيب لجلالتكم ان تكتبوا الى قوادكم هنا، للمداولة معهم، ممن يكون له نفس التفويض الذى حصلت عليه من الملك سيدى او من جنراله وذلك في حالة ما اذا كنت ساتعرض (للهلاك في سفرى اليكم) ومن المعقول ان نحتاط لجميع الاحداث

ومهما يكن فاني على العموم في حاجة ملحة الى ما عسى تقترحه جلالتك سلفا، وبذلك فان جلالتكم تدركون اكثر من غيركم، انه حينما كنت بحضرتكم، كنتم ـ ان طاب لجلالتكم أن تتذكروا ـ وعدتموني، بانه ان كانت هناك حرب أو حالة شبيهة، واسترعى انتباه جلالتكم، فانكم ستقدمون لنا مساعدتكم، فها هو الوقت الان قد حل، وجاءت الفرصة ليتوجه كل من الانجليز والمغاربة لحرب عدوهم المشترك، واني لا أقول اكثر من هذا، منتظرا ان اعلم مشيئة جلالتكم، فيما ترونه بعد، وطالبا المعذرة على رسالتي هذه الجافة، أو أى خطأ آخر حصل مني داعيا الله لجلالتكم برعايته المقدسة، وان يعلي أمر امارتكم

خادم جلالتكم المتضرع اليكم

الامضاء : جون هرسون

ومن فحوى هذه الرسالة، (43) ومن التقرير الذى سبق بعثه الى قائد الاسطول، عن حالة البلاد واطرافها، ندرك أن هرسون لم يات الان ليعالج مشكلا من مشاكل التجارة او الاسترقاق، بل جاء ليحمل الدولة المغربية وزعماء المغرب على حرب اسبانيا الى جانب انجلترا، وهو حلم طالما ساور الملكة الزابث والمنصور، كما تقدمت بذلك الاشارات، في تلك الوثائق التى نشرناها، غير ان النتيجة كانت شبيهة بسابقتها، فلم يشترك المغرب في حرب اسبانيا مع انجلترا، لظروف خاصة، كانت الان أعسر وأعقد من تلك التي سبقتها على

عهد المنصور وسبق منا تبيينها، وبذلك انصرف زيدان انصرافا كليا عن هذا المشروع، وأهمل حتى الرد على رسالة السفير، الذي كان قد سخطه من قبل

لقد ظل جون هرسون بتطوان، محاولا فيها ان يكون على اتصال بقائد الاسطول الذي كان قد شرع يهاجم قادس، ولهذا فاننا نجده يعاود الكتابة الى هذا القائد، فيرسل اليه رسالة بتاريخ 13 نونبر من هذه السنة، ترجمتها كما يلي :

سيدي قد ارسلت قريبا رسولا عن طريق البر الى سلا ولم اسمع هنا اي خبر اكيد عن الاسطول . أبواب سبتة وطنجة مغلقة منذ زمان طويل ولا يسمح لمغربي ولا ليهودي بالدخول اليهما ولا بالخروج منهما واخيرا قد فرت سفينة انجليزية من مالقة ووصلت الينا وقد حملت الينا خبرا بالوصول الثاني السعيد للاسطول الانجليزي الى قادس فاستقبل ذلك بالشكر لله

آمل ان تكون رسائلي الاولى عن طريق سلا قد وصلت الى سعادتك قبل هذه كما آمل ان تكون الاخرى قد وصلتك مع رسل اخرين حول الشائعة الكاذبة بان الاسطول قد رؤي بجوار الموانىء والتي كنت بعثتها في سفينة المانية ولا اعلم ما اذا كانت قد وصلت الى سعادتكم شخصيا في هذا الصدد حتى الان بواسطة هذه السفينة ـ ولهذا فاني ارجو من سعادتك ان تسامحني اذا كنت قد اخطأت اى سبيل في هذه الرسائل ومهما يكن فاني متوقف ومقيم هنا الى ان اعلم من سعادتك مدى ما تقصد اليه مشيئتك.

وخوفا من ان تكون رسائلي السالفة لم تصلك فاني قد ارسلت ايضا رسولا ثالثا يمكن ان يفضي الى سعادتك بكل الحوادث التي تقع هنا وكنت اردت ان اقدم بنفسي غير ان المقدم ربما لا يسمح لي بذلك الى ان تاتي اخبار اخرى اكيدة .

ارجو الله ان يحقق آمال سعادتكم .

لعل هرسون حينما كتب هذه الرسالة، لم يكن قد تلقى العلم بانهزام الاسطول الانجليزي في مياه قادس، فقد كان هذا الاسطول قد هزم بتاريخ 6 من الشهر المذكور، ولهذا لما وصلته الانباء فيما بعد نراه يستولي عليه الياس والقنوط، فيكتب في نهاية هذه السنة رسالة يبعث بها الى الملك شرل، فيما ترجمته :

حيث ان المتوسل بكم، قد استخدم رابع مرة من المرات المختلفة، منذ سلف جلالتكم الملكية، الشهير الذكر، الى ان استخدمت الان من لدن جلالتكم فبعثت الى بلاد المغرب، لاباشر بعض المهام المتصلة بمصالح اسطول جلالتكم، كما اقوم بمهام أخرى تتصل برعايا جلالتكم، الذين قد وقعوا في الاسر هنا، فاني انهي الى جلالتكم، ان تلك الاجراءات التى عهدت الى في تلك المهام، كنت فيها أبعث أصحابي بمجرد ما اتلقى نبأ جديدا، ولكني حتى الان ما تلقيت اى خبر عنها

ومع هذا فانه لما كان اسطول جلالتكم بقادس، كنت ابعث خادمي هذا برسائل الاعلام، وعلمت ان قائد الاسطول كان سيدي دوق بكنجهام Buckingham غير ان خادمي وقد حمل الى ايطاليا بواسطة سيد من لندن، على عكس ما وعد بنه، جعلني لا استطيع ان اتلقى اى خبر، زيادة على ما سلف

وعليه فاني بخضوع اتوسل الى جلالتكم، ان تنظروا بعين العطف الى تلك الالام التى عانيتها في خدمة جلالتكم، والى تلك العهدة التي عهد بها الي، في هذه المراسلات، فتتفضل جلالتكم ـ ان طاب لها ـ أن ترسل الي مرتبي، لأني آمل العودة الى وطني، حيث أسلم لجلالتكم تقريرا بكل ما جرت به الامور، وكل ما حصلنا عليه هنا، وعسى لجلالتك أن يطيب لها التفضل بارسال بعض المعونة الى هؤلاء المساكين من رجال الانجليز الذين وقعوا في الاسر هنا، وعددهم 34 شخصا .

هذا ما يفرضه على واجبي، واني سأظل دائما ادعو لجلالتك بالسعادة والتوفيق في حكمك للاقطار (على الارض) وبالحياة الدائمة في العالم الآتي (14)

كانت هذه الرسالة قد بعثت وجون هرسون ما زال مقيما بتطوان، لم يستطع او لم يسمح له بمغادرتها الى سلا، التى كان ينتظر ورود أخبار منها، وفي أوائل سنة 1626، نجده قد استطاع التوجه الى سلا، وعلى وصوله اليها اتصل برجالها خصوصا منهم الموريسكوس وتفاوض معهم، في مسائل، كان أهمها اطلاق سراح الانجليز هناك، على شروط ارتضاها الطرفان، وكانت على أن انجلترا تزودهم بالمدافع والاعتدة الحربية، مقابل اطلاقهم ما كان بيدهم من أسرى الانجليز، بل انهم بمقتضاها كانوا سيصبحون في حماية تحت التاج الانجليزى وهذا ما كان يحلم به هرسون أيضا وفي رحلته هذه اتصل بالمجاهد محمد العياشي، وتداول معه قضايا هامة، كان على رأسها مناوءة

الاسبان بالمغرب، خصوصا في المعمورة التي كانت الهدف الاول بالنسبة للمجاهدالعياشي وبعد ذلك توجه الى انجلترا بالمشروع المذكور

وفي اوائل سنة 1627 كان يعود الى المغرب فوصل الى مرسى آسفي فاتح فبراير من هذه السنة، ومن هناك استانف رحلته الى سلا، حيث أنزل بها المدافع والمعدات الحربية، التي كانت جزأ مما التزمت به الدولة الانجليزية لهؤلاء السلاويين، أو الموريسكوس منهم، كما تقدم .

الان نجد هؤلاء الرباطيين قد تمكنوا من قوتهم فشكلوا منهم حكومة جديدة، وطردوا الحكام الذين كانوا يحكموتهم من قبل مولاى زيدان وبذلك شكلت هيئة «مجلس الديوان»، ودخلت هذه الحكومة في حماية شرل الاول، وفي يوم 18 أبريل من السنة، كان قد تم كل شيء بين هؤلاء وجون هرسون، فأذيع بلاغ منه بالتعليمات التي التزموها، تجاه ملك انجلترا، وبمقتضاها كان عليهم أن يخدموه بأسطولهم وأعيانهم في جميع الاحوال والظروف، وبصفة تلقائية لهذا أطلقوا سراح ماكان بيدهم من أسرى الانجليز، وكانوا مائة وتسعين .

بقي الان على هرسون أن يعالج ماكان قد اتفق في شأنه مع المجاهد العياشي وهو طرد الاسبان من المعمورة، وقد اتصل مرة أخرى بالمجاهد الذى لاشك انه ذكره بالموضوع، ولاجله حمله رسالة الى شرل، بتاريخ 17 مايه، كما سنرى .

وبهذه الرسالة، وبممثلين عن السلاويين أهل الديوان وبالاسرى الذين أطلق سراحهم، عاد هرسون الى انجلترا، في يوم 20 من مايه المذكور، فوصلوا الى انجلترا في شهر ينيه من السنة المذكورة، فكان الممثلان في انتظار مقابلة الملك الانجليزى للمصادقة منه على الاتفاق غير أن شرل، بالرغم من كونه قد اذن لهرسون في ابرام الاتفاقية مع هؤلاء، وأرسل اليهم المعدات الحربية أصبح يانف من المعاملة مع هذين السفيرين، بدعوى أنهما يمثلان القراصنة والثوار، وبذلك يظهر أن ما حصل من هؤلاء السلاويين، كان من املاء هرسون، الذى اراد الانتقام من مولاى زيدان، والا لما رفض شرل التعامل مع هؤلاء الثوار .

والنتيجة أن الاتفاق لم يعمل به من طرف الانجليز، الذين استمر قراصنهم يلحقون الاذى بالسلاويين

على حين كان هؤلاء قد اعتقدوا أنهم قد اصبحوا أصدقاء، وفي حماية شرل ومأمن من قراصنة رعاياه

وحدث أن هؤلاء القراصنة الانجليز أغاروا على سفينة لمورسكوس سلا، فاستولوا عليها واغرقوا من كان بها من الركاب، بعد ما نهبوا ماكان بها من متاع، فخف المورسكوس الى بعث ممثلين عنهم، يحملون شكواهم الى البلاط الانجليزي، وكان هرسون آنذاك، لما يزل مقيما بانجلترا، فعين لاستقبال هؤلاء الممثلين استقبالا رسميا .

أما رسالة العياشي التي أشرنا اليها، فكانت كالاتي :

الى الامير الاعظم

ان العلاقة التي قام باحكامها بيننا وبينكم، جون هرسون خادم جلالتكم، والتي وطدها معي في سفرته من تطوان الى هذه المدينة سلا، كانت عملا جليلا، في حق المعاهدة والالتزامات التي على كل منا مراعاتها، وعلى هذه الحكومة، أن تعمل على مقتضاها، لجلالتكم وباسمكم والعظمة التي تتحلون بها .

لهذا فاني أرجو من جلالتكم أن تامروني بكل ماعساه يسر مشيئة جلالتكم ويقوم بخدمتكم، واني مسرور جدا، من السلام المعقود بين سكان هذه المدينة الرباط الاندلسيين، لان في ذلك السلام كل خير وصلاح، سواء بالنسبة لشئون جلالتكم وبالنسبة لهؤلاء المقيمين هنا جميعا، وبذلك يتأيد ما كان قديما بين الدولتين من معاهدات معقودة .

الله يحفظ ويوفق جلالتكم، ويزيد في قوة ملككم

من معسكر سلا في 2 شهر رمضان عام 1.036 (موافق 17 مايه سنة 1627)

فمن هذه الرسالة نرى أن مشروع الاتفاقية بين الرباطيين وانجلترى، كان قد اطلع عليه العياشي وابتهج له، ولا شك أن مسالة الحماية، كانت مما تطور به هذا الاتفاق فيما بعد، كما أن الاشارة الى الصلات التي كانت بين الدولتين، تشعرنا بانه لم يكن في علم العياشي، على الاقل، تصميم من هؤلاء الرباطيين على طرد عمال الدولة الشرعيين، فلعل ما حصل من ذلك كان

مما تطورت به الظروف، وتمخضت عنه الاحداث، وان كان جواب شرل على هذه الرسالة يفهمنا عكس هذا، كما نرى في هذه الترجمة :

الى الحاكم المجيد السامي القدر

لقد تلقينا رسالتكم التي تفصح عما أسديتم من معروف لخادمنا جون هرسون، في رحلته من تطوان اليكم، مما نكرر لكم الشكر عليه، في هذه الفرصة، وسنجازى عليه بمثل ما يجازى به هذا الصنيع

وقد أحطنا علما كذلك، أنه بواسطة تعضيدكم ومساعدتكم، استطاع اولئك الاندلسيون الذين قد هاجروا الى سلا ان يتمكنوا من مدينة سلا، وان يطردوا عنها أولئك القواد الذين كانوا العاملين على الاضرار والتلف الذي أصاب رعايانا، وان يقيموا هناك حكومة مستقرة، تتمتع بالحكم الرشيد هناك، فنلتمس منكم أن تستمروا في عطفكم عليهم ومديد المعونة اليهم

كما تلقينا بغبطة وسرور ما عرضتم علينا من صداقة واستعداد لاسعاف مطالبنا، ونحن نؤكد لكم المثل من جانبنا، وارادتنا في مواصلتكم ومواصلة الاخرين من القواد المتصلين بكم، لصالح هذه المملكة، حسب ماكان بين اسلافنا من صداقة عتيقة، وان ظروفنا الان، وقضايانا المشتركة ملائمة لذلك، فننهي الى علمكم عزمنا، على تنفيذ تصميماتنا متمنين لكم الصحة والسعادة

عن قصرنا الملكي وستمنستر

بتاريخ 12 اكتوبر (بالتاريخ القديم المقابل 22 منه) سنة 1627

ومن هذه الرسالة يظهر أن شرل كان جادا في مسالة الاستعانة بالدولة وزعماء المغرب وقواده على حرب الاسبان، وان كان ذلك لم يعد الوعود، اما العمل على تنفيذ الفكرة، فليس بيدنا من الوثائق ما يثبت شيئا من ذلك

وفيما يتصل بهذه الاحداث، نجد لجون هرسون تقريرا ضافيا، في غاية الاهمية، كان قد كتبه بتاريخ 11 شتنبر من هذه السنة، وقدمه الى الملك شرل، ولاهميته تلك، ناتي بترجمته على طوله، وهي كما يلي :

قبل الحملة الاخيرة لاسطول جلالتكم الملكي العظيم الى قادس كنت سلمت بعض الانباء الى السير ألبرتس مرتن Sir Albertus Marton احد كتاب الحكومة الرئيسين الذى كان قبل قد استخدمني في ارض البربر لاختبر صداقة هؤلاء الناس واتجاههم خصوصا «الموريكوس» الذين طردوا من اسبانيا والاندلس والقسم الاعظم منهم في ارض البربر التي تصلح للعمل حيث انه يمكن لجلالتكم ان تعملوا اعظم عمل بناء على تلك الاحوال مدركين ان القطر الاسباني قريب ومتاخم جدا وكذلك يمكن ان تتخذوا السبيل لمهمات اخرى من الزاد والمأكولات وما يحتاجه الاسطول الذى ربما استدعته الحاجة الى ذلك .

والحمد لله ان يسر لي الطريق بحيث اننا في تسعة ايام كنا قد أبحرنا من Dover وانتهينا الى شاطىء ارض البربر . وعند وصولي الى تطوان وهي مدينة على المضيق حيث يقطن اعظم عدد من «الموريكوس» قد وجدت كلا منهم ومن المغاربة مستعدين ومتحمسين الى اقصى مما كنت اتوقع فكلهم يعرض خدماته على جلالتكم ـ وعلى حسابهم ـ وهم مزودون بالسلاح وما يحتاجون اليه من زادو غيره مستعدون للمخاطرة بارواحهم مثل رعاياكم ومنتظرون بفارغ الصبر وصول تلك Armada العظمى ـ على حد تعبيرهم ـ تلك القوة الشهيرة المرعبة التى جعلت كل شواطىء اسبانيا والمغرب تضطرم لما يجلبه الاسبان من حامياتهم ـ من حين لاخر ـ كما قال لي المغاربة ولكن النتيجة لا تجيب بما كان يتوقع من اشارة صاحب الجلالة على تتويجه، فانها اثر تتويجه كانت اعظم ما يرتقب كاول عمل صادر عن الملك يرد كثيرا من الشرف الى جلالتكم ويدفع الخزى عن شعبنا وعقيدتنا .

هذا الشعب المحارب وقد فقد فكرته السابقة التى عمل بشدة لتحقيقها يقول : كان العدو مرتجفا اما الان فهو منتصر مع كثير من الغرور كما ان المغاربة واليهود حكوا لي عن اسبان سبتة وطنجة أنهم يقولون : ان ليس هناك الان غير البط في انجلترا كلهم دجاج مع الاخرين المدعين للشجاعة Bravados .

ان المغاربة وخصوصا «الموريسكوس» يؤملون ان تكون الساعة قد حلت لاسترجاعهم اسبانيا وذلك بناء على تنبؤاتهم القديمة وهم يتميزون حنقا وغيظا لهذا السبب مثل رعاياكم : لاسفينة بالمرة ولا رسائل الاشارات ولا تلويحات تصل الى كما وعدت بها . ولقد اثيرت حولى شبهة من

بعضهم باني أتيت كجاسوس واثيرت شبهة اخرى من بعضهم الاخر ولكن لكوني طالما عملت في هذه النواحي من ذى قبل وعرفت بينهم بالغرض الذى جئت من اجله فقد جلب الى ذلك احسن انواع الاراء في حقى وبناء على ذلك فقد كتب مقدمو تطوان الى جلالتكم مظهرين انهم على استعداد في اية فرصة مواتية ليساعدوا جلالتكم بكل قواتهم وكذلك مقدم انجزة المجاورة لهم .

اما «الموريسكوس» الذين يحكمون الان في سلا فقد بعثوا الى بانه : اذا أتيت اليهم للعمل معهم فانهم سيزحزون مولاى زيدان الحاكم الطاغية الذى كان السبب في اسر كثير من رعايا جلالتكم وفقد سفنهم وبضائعهم وارواحهم . وهم يضعون انفسهم تحت حماية جلالتكم كرعاياكم الخاصة بكم ولاجل القيام بخدمة جلالتكم فقد قمت باعظم الاسفار خطرا مسافرا من تطوان الى سلا ومتنكرا في شخصية مواطن مغربي (اذ ان البلاد خطر جدا لسفر الاجانب والجميع في ثورة لا يعترف بملك) وفي هذه الاسفار ادركت أن الاسبان قد تربصوا بى ليغتالونى بواسطة الاعراب الذين يبيعون ذويهم بالمال فسلكت رؤوس الجبال العالية والربى القريبة من فاس لتجنب هذا الخطر وكنا ـ في اغلبنا ـ نمشى على الاجل مكشوفي السيقان في هيئة الحجاج اذ لواتينا الى السهول وحاولنا المقام بجانب الرباط لكشف امرنا ولتعرضنا الى اعظم خطر يهددنا مقابل الف دوكة تحمل الى المعمورة او العرائش ولكن الحمد لله ان التقيت برجلين شريفين من المرابطين او الاولياء الذين لهم اعظم احترام في ذلك القطر الذى اتى منه احدهم (ولي مصمودة) ليقابلني الان في سلا والشيخان الشريفان ايضا يحكمان في محلهما او قبيلتهما فنقلني هؤلاء من مكان لاخر مرة في النهار ومرة في الليل الى ان وصلت سالما من كل خطر الى سلا القديمة حيث الولى الاعظم سيدى محمد العياشي الذى يخضع لحكمه الجميع وهم يعرضون على جلالتكم احتلال المعمورة او العرائش او اي مكان استولى عليه الاسبان من شواطىء ارض البربر راغبين في ان تقع في ايدى جلالتكم لاجل تلك الصداقة القديمة والصناعة والتجارة التى كانت تتبادل بين الانجليز والمغاربة في القديم ويستحسن ان يزحف على المعمورة ليلا وعلى ميلين منها .

ولما اتيت الى سلا ـ التى هي على الجانب الاخر شمالا ـ كان «الموريكوس» الذين يحكمون على الرباط ـ المدينة المبنية حديثا على الجانب الاخر جنوبا ـ قد ارسلوا الى ان اظل هنا حتى يصرفوا قائد مولاى زيدان (هو عبد العزيز الزروري) ثم بعثوا يستدعوننى الى الرباط عارضين خدماتهم

ايضا على جلالتكم بكل الخلاص واطلاق سراح كل رعايا جلالتكم الذين اسروا في حكومة مولاي زيدان فبيعوا واشتروا من جماعة لاخرى على ان يرضوا مولاهم بعروض اخرى وهم يطلبون فقط من جلالتكم اربع عشر قطعة نحاسية من المدفعية Ordinance وكمية البارود والفشك ليدفعوا عن انفسهم الاسبان وأعداءهم الاخرين . وهم مع كل هذا يعرضون انفسهم جميعا على مشيئة جلالتكم في كل شيء كما يبدو من اقوالهم وعند ذلك وعدت بان جلالتكم ستعاملهم بصدق ونبل كما يجدر ذلك باعظم امير .

ولما قطعت على نفسي هذه الشروط ابحرت راكبا كل الاخطار في سفينة لرجل من «الفلامنك» وهو من رجال القرصنة صدفة رسا هناك ليعالج صدعا (في سفينته) وقد زودت لمدة خمسة اشهر استعدادا لما عسى ان نستهدف له من عدم التقابل مع سفينة او اكثر في البحر تنتمي الى انجلترا . وقد بعث «قبطانو» القطر لاجل التاكد من السلامة معي القبطان «جون» وهو الماني مرتد ولكنه صديق جدا لشعبنا وذلك مع سفينتين اقلعتا من الشواطيء خوفا من الاسبان فان اربعة من السفن « Almirantasgo » كانت في المرسى قبل بضعة ايام فقط ولكن والحمد لله بعد يوم او يومين كنا قد فقدنا القبطان «جون» في الليل والتقينا مع ثلاثة من السفن الاسبانية التي كانت احداها سفينة العبور (وهي احدى سفن الملك) فشرعنا معهم في اطلاق القذائف معتمدين على بحارتنا وبعد ما اطلقوا القذائف علينا اشتبكوا معنا ولكنا استرسلنا مع الريح وابحرنا ناجين بانفسنا وبعد لحظة اخذوا سبيلهم وتركونا فعجبنا من ذلك وهكذا اتجهنا في طريقنا ثم رسونا بعيدا عنهم حيث بعثنا في الحال واحدا الى المركز الرئيسي لطلب خمسة من البحارين زيادة على من كان معنا منهم ثم بدا لنا أن القراصنة الاسبان ظنوا انهم شركاؤنا فتركونا حينئذ والحقيقة انه امتحان للقبطان John الذي كان قد فقد منذ اسبوع والذي كان قد اسر اثنين من Hamborgers كانا آتيين من مالقة وخمسة من التجار الانجليز كانوا في طريقهم الى وطنهم فأطلق سراح هؤلاء وسلم قيادهم الى كما يصنع دائما مع الانجليز فلا يضر أحدا منهم ولكنه ياخذ بضائعهم . وقد وضعناهم في قارب صغير آخر اتى في رفقة الهمبرغيين القاصدين الى هولندا، وكان منذ قريب قد نهبه الاتراك، وهذه السفينة الصغيرة لم تكن تزيد حمولتها على 40 tunn ولم يكن معنا اكثر من قطعة Ordenance للدفاع عن انفسنا كما لم يكن معنا من الزاد الا ما زودنا به القبطان John فوضعت نفسي بين مواطني وبقيت

معتمدا على العناية الاهلية التي لم تضيعني ابدا (ولا ادعي جميلا) خصوصا في الخواتم وفي رحلاتي هذه التى كانت من اولها لاخرها تشفع لي كل فرصة باخرى اعظم منها كان تلك الظروف كان محسوبا حسابها كل يوم ولهذا فلا ينكر ان لله يدا في ذلك واننا على صراط مستقيم والحمد لله ان وصلنا الى Falmouth في 14 من ماى سنة 1626 وكنا في نفس اليوم في الشهر الذى بدأت فيه اول رحلة من انجلترا الى بلاد البربر 1610

ومن هناك اتجهت الى لندن، وقدمت نفسي الى جلالتك، بالبهو الابيض Whithall وبعد ذلك وقد أحطت علم جلالتك بهذه المفاوضات فانه طاب لجلالتك أن تحيلني على سيدي دوق بوكنكهام Lord Duke of Buckinghame للادلاء بمعلومات أكثر حول ذلك، ولكن بسبب من الاسباب الاخرى ذات الاهمية، فاني لم أستطع الحصول على المقابلة خلال مدة طويلة، وأخيرا صممت على السفر في الاسطول مع سيدى ويلوبى Lord Willougbie ببعض التوصيات المتعلقة بهذه المهام، حاملا معي أربعة مدافع نحاسية، ومدفعين حديدين، وكمية من البارود والقذائف لسلا، لاجل فداء رعايا جلالتك هناك، وتلك الاغراض الأخرى المعروفة لجلالتك، ولكن الاسطول، لم يبحر وأقبل فصل الشتاء، فاخترت سفينة تجارية اسمها « Rainbowe » اتجهت بي توانحو سلا، حيث وضعت المدافع الستة والبارود والقذائف وأنزلتها من تلك السفينة

وفي يوم الخميس سابع دجنبر، سافرت من لندن الى غرفسند Gravesend وفي دونس Downes حيث توقفت بضعة أيام، باضطرار الرياح، وفي الخميس 14 منه ابحرنا، ولكن في اليوم التالي، حدث خرق في السفينة، فاضطررنا للرسو في درتموث Dartmouth وهناك قضينا عيد السنة الجديدة واستمرت الرياح طيلة ثلاثة أسابيع، وفي نفس الوقت كان علي أن أقوم بالمامورية التي كلفتني بها جلالتك، المهورة بالطابع الاعظم لانجلترا Great Seale of England لنقل جميع المغاربة (9) الذين استطعت أن أجدهم في الاسر بانجلترا، مقابل فداء رعايا جلالتك، الماسورين بالمغرب، وكذلك كنت مفوضا من قبل شيوخ المجلس Lords of the Counsell لنفس الغاية تلك، فارسلت شخصا الى لنسستن Lanceston لياتي بهؤلاء من هناك، ولكن في نفس ذلك اليوم أتى آخر بتفويض مماثل من أولئك السادة، بناء على التماس السيد برت Mr. Barrat مطالبا كذلك بنفس الغاية لنقلهم الى المغرب قصد الافتداء بهم أسرانا، ولكن الواقع أنه

كـان قـد اتفق مع بعض تجار لندن (كـانت له سفينـة بـدرتـوث، في نفس الـوقت، تقصد الى ليغورن Ligorne في ايطاليا) لحملهم فيها، على وجـه الخير والمعروف، ليباعوا هناك كرقيق، وهذا أعظم حيف وتعطيل كلي لاوامر جلالتك، وقـد نجحت تلك المـؤامرة، ولكن شاء الله ان يكـون تفويضي قـد نفـذ مـن قبـل ان ياتي الثاني، وعليه فان هؤلاء المغـاربة قد اتي بهـم الي في در تموث، حيث وجـدت فيهم ثمـانية فقط ينتمون الى سلا، فـاخذتهم مبحـرا بهـم، والباقي كانوا ينتمون الى الجزائـر، فارسلتهم مع ميور Major عميـد درتمود، في مروره على لنـدن، الى التجـار، لاخطر السـادة الشيـوخ، كيف انتهك شرفهم كثيرا، ومن ثـم يمس شرف جلالتك بـواسطـة هـذه البـوادر، وانـه مـا كـان قط قبلنـذ ان شرف اجـدادك، ولا شعبك أيضا والعقيدة، لتسمح بالعبوديـة ومزاولتهـا، لا بيعـا ولا شراء، قضى بـذلك كتـاب الله في سفـر الخروج 21 (من التوراة) بـائـع الانسان ومشتريه كـلاهما لـم يكـن اعظـم عدو لقومه ودينه فقط، بل هما يشوهان صورة الله عند التكوين الاول فيقعان فـي أمـر عظيـم .

وفي يوم الخميس 11 من ينايـر سافرنا مرة اخرى على ظهر سفينة الى Dartmouth وكـان في رفقتنـا ايضا ثلاث سفن اخـرى تتجـه الى الجنـوب وفي الصباح التالي باكرا كنا قد استهدفنا لسفينة من Dunkirk فاطلقنا عليهـا القذائف ولكنها لـم تجبنا مـرة اخـري ولـم نصب وكـان تجـار السفينـة لا يريدون أن يخاطروا بحياتهم ورحلتهم، وحملهم عظيم، فتركنا «الدنكركيـة» وكانت الريح ضعيفة الى يوم الاحد حوالي الزوال، وقـد انتهينـا الى Lazard ولله الحمد ان أرسل علينا ريحا طيبـة منعشـة بحيث اننـا في سبعة أيـام بعد ما سافرنا من شواطىء انجلترا وصلنا الى ارض البربـر كما كـان المضيق الهائل الـذى سلكته الى تطـوان تحفه السلامـة ايضا وكان البحارة انفسهم في عجب قائلين ـ كما قالوا في الرحلة الاخرى السالفة ـ انهم يعتقدون ان ذلك كـان وفق بعض الاعمال الطيبة حيث ان الله ارسل علينـا ريحا طيبـة عجيبة وفي هـذا اليوم كنا سنرسو بسلا في الشمـال ولكن اولئك التجار ولهـم اعظم حمل من البضائـع ترجوني ان يرسوا اولا عند آسفي في الجنـوب ليمارسوا ما عسـاهـم يستطيعون ان يعملوا هناك وليكونوا بعيديـن الى أقصى الغـرب، خوفا من القرصان الاسبان الذين قالوا انهم قد استطاعـوا بجـرأة أن ياتـوا سلا التي كنت قد قصدتها بماموريتي السالفة تلك فاذنت للتجـار بناء على ذلك ان تكـون لهـم الحـريـة في تصريف بضائعهـم حيث شـاءوا وكنت قـد

استدعيت الى سلا مرة اخرى لمامورية جديدة قد حدثت بالنسبة الى سلا وأغراض أخرى، تركت خارجا (14)

وعند رسونا بمرسى آسفي، علمنا أن مولاى زيدان، الملك، كان في المحلة، بعيدا عن المدينة بنحو ميلين او ثلاثة وقد أرغمه أعداؤه الذين كانوا من قبل بقليل قد هاجموه، وخلال بضعة أيام بعد هذا انتقل بمعسكره الذى اقامه بجانب المدينة على مرأى منا، وهناك كان نائب اسباني معه في ذلك الوقت قد أتى من مازكان (الجديدة) فاجرى معه عدة اتصالات، وكان المغاربة أنفسهم لهم بعض الامتعاض من هذا، لانه ربما سيسلم بعض جهات من بلادهم الى يد الاسبان، كما فعل أخوه مولاى الشيخ بالعرائش وهو نفسه قد سلم باهمال (ان لم يكن بارادة) المعمورة، التى على العكس، كانت له فرصة الاحتفاظ بها، حيث كان في نفس الوقت أسطول ينتمي للاراضي الواطئة على استعداد لتنفيذ أوامره اذ بناء على وعده الذى جعله لحكام تلك الاراضي حينئذ، فان أولئك كانو سيدخلون أولا النهر ويحصنونه، ولهذا فانه خوفا من هذا النائب الاسباني، فربما كان سيخطر أصحاب مازكان ثم اسبانيا، بوصولي الى الساحل فتكون قطع المدافع، وبعض السفن قد أرسلت لتباغتنا، من قبل ان أستطيع الاقلاع، لكن اختفيت واخفيت المدافع، فلم أعرف الا من سفينة تجارية أتت من قبل للاتجار. وشاء الله طيلة ذلك الوقت، وكان منتصف الشتاء حسب المالوف، فكان عرضة للرياح نحو الجنوب والطقس العاصف، أن يبعث علينا هواء غير معتاد، عليلا : فكان البحر هادئا طيلة الشهر، من 22 يناير حيث كنا قد وصلنا الى يوم 22 فبراير حيث فصلنا، وقد قال المغاربة أنفسهم انهم ما رأوا مثل هذا منذ أمد بعيد، ثم في الايام التالية، كان التجار على الغالب قد زاولوا مهمتهم (وكان أيضا يوم الخميس)، فشاء الله أن يبعث الرياح الجنوبية لتهب وتجعلنا نذهب، فكان ذلك في الشتاء، ولم يكن هناك مراكب تجرى مع الرياح الهابة نحو الجنوب، وخلال الوقت الذى كنت هناك في مرفا آسفي، سمعت أن القبطان كمبن Captaine Compaine كان أعظم قرصان في مازكان البلدة البعيدة عنا بنحو 14 فرسخا عن ناحية الجنوب، وقد كنت قد طلبت له حماية من جلالتك، تحت الطابع الاعظم، مع بعض التوصيات من جانب اللورد دوق بكنكهام . ولهذا فان سفينتنا التى كانت تتاجر باسفي، لم تستطع أن تتجر ولا أن تخاطر فترسل زورقها، اليه حيث كنت أمرت بالذهاب بنفسي، فخسرت الفرصة في هذا الصدد .

وخوفا من الذهاب توا الى سلا (أو بالاحرى كانت بعض الشكوك تساورني في الذهاب الى هناك تماما خوفا من القرصان الاسبان، حيث ان المعمورة قريبة بنحو خمسة فراسخ) فقد ارتأينا أولا ان نرسو بفضالة، البعيدة عنها بنحو ستة فراسخ جنوبا، وعلى وصولنا بعثت في الحين رسولا عن طريق البر الى قبطانات القصبة بسلا، الذين تلقوا بسرور خبر وصولي بعد انتظار طويل منهم صادر عن أمل عظيم، ولكن الرسول عاد بعلم ان القبطان Compan (كما أراد الله) كان كذلك وصل هناك، ولكن من قبل اتيانه بيوم فقط ذهب واعلمه بحماية جلالتك، التي كانت معي له. فيها فأعلمه قائلا انه متاسف جدا، لانها لم تاصل أسبق من هذا الوقت، فكانت تكون له من قبل، ولكن مع الاسف منذ يوم قد تسلم الحماية من الولايات العامة، بواسطة أخيه الذي أرسل في طلبه الى سلا، والا لكان بسرور يتقبل ذلك، مدليا بأن تحت يده رسالة تشهد لتجارنا بأن لهم أن ياتوا بمنتهى الحرية وبدون خوف الى سلا، وبانه لن يضايقهم، بل بالعكس سيساعدهم ويساعدني كذلك، بكل من رجاله وسفينته، لا تزال المدافع او اي شيء آخر، وعلى كل حال فان البعض كانوا خائفين (الان منه أيضا كما كان قبل من الاسبان) بحيث انه كان لي كثير من العناء لاحملهم من هناك .

ثم انه على الاثر، وبعد كثير من المتاعب التى قاسيناها للوصول، أضافنا، وشرعت كل سفنه الثلاث (كما تقضي بذلك تقاليد الضيافة البحرية تطلق مدافعها العظيمة، كما فعلت مدافع القصبة تعظيما لجلالتك وفي اليوم التالي حسب تلك التقديمات التى كانت لى من سيدى الدوق للقيام بواجبنا، ذهبت اليه في السفينة وأعلمت بمنحة جلالتك الكريمة التى اعترف فيها بالفضل لجلالتك جدا، قائلا بالنسبة اليه خاصة وبالنسبة لاعتبارات شتى، فانه كان يتقبل حماية جلالتك أكثر من الاخرى، راغبا مني اعطاء مهلة لاعلام الآخرين ولمحاولة ما عسى ان يفعل مع رفقائه في الامر وللبرهان على ذلك وللتعهد بانه يعود الى سلا، أعطاني سلسلة ذهبية قيمتها 12 ليرة استرليني .

وفي ذلك اليوم كانت الرياح التي تهب نحو الجنوب والزوابع الهائجة قد أرغمتنا على ان نرسو، طيلة خمسة او ستة أيام، ثم تلطف الجو شيئا في الجملة، فعدنا الى المرسى مرة أخرى (ولكن لم يكن به القبطان كومبن الذى اضطر لعبور المضيق نحو تطوان) وقد ابتدأت الرياح

تهب على الاثر باردة، مما جعلنا نعود الى عرض البحر مرة أخرى، ولكننا ما استطعنا، حيث استمرت الرياح تهب بشدة نحو الغرب، ودفعت بنا الى البحار العظمى، وبذلك راينا ان نقيم الدقل الاعلى مع أعواد الشراع العليا العرضية على ظهر المركب، وخلصنا بذلك مصممين على مجابهة الموت والحياة، فأقمنا على ذلك مدة ثلاثة أيام، مددنا فيها الامراس وارسلنا الاناجر، وعالجنا بعض الاسعافات اللازمة، التي كان يتطلبها ذلك الموقف الخطير، الى أن شرعت الرياح ـ والحمد لله ـ تنتشر من جانب البر، فتركنا الشراع وعدنا الى الطمانينة، ولو لم ينظر الله الينا، ولم يمدنا برحمته، لما كان في مكنتنا ان تنجو من هذه العاصفة، بل كان سيقذف بنا على صخور الشاطئ.

وبعد هذا بيومين كانت الرياح تهدأ والطقس يتحسن، فعدنا الى المرسى مرة أخرى، وبعث قواد القصبة احدى سفنهم الكبار، باذن رسوي ففعلت، وان كان البر قبيحا بعض الشيء، فلما نزلنا أضافوني هم وجميع الاندلسيين وعملوا على توفير الراحة لنا، سواء في الاقامة ببيوتهم، وبالازودة وجميع ما احتجنا اليه أنا ورفقائي، قدموه لنا في ضيافتهم . وقد خصص قائد مع خمسة من الاندلسيين، للقيام على حراستي، خوفا من أية مؤامرة أو غدر ياتي من جانب مولاى زيدان، الذى كان قد ارسل من قبل، أحد رؤسائه القواد الى هنا، واسبانيا مرتدا، اسمه أجيب Agib (16) متظاهرين، على زعم آخر بانهما آتيا لاستخلاص دين، كان للقائد السابق (وهو عبد العزيز الزرورى) ولكن الواقع، كما قد اكتشف من بعد، أنهما آتيا ليتداولا في السر، مع بعض المغاربة والعرب، قضية مداهمة القصبة، التي لم تكن آنذاك خاضعة له، بعد ما أنزلت المدافع الى البر، مع اعتدة أخرى، بدون التعرض الى خطر عظيم او أية مشقة، بسبب ذلك البر الذى كان رديئا

وقد كتب مولاى زيدان رسالة صارمة الى قواد القصبة، عهد اليهم فيها، بناء على ولائهم، بارسالي اليه، فاجابوه باني جئت في امان وعلى كيفية شريفة من جلالتك لفداء رعاياك الاسرى، ولعقد معاهدة سلام، ولهذا فانه ينبغي ان يكرموا ضيافتي، مدة ما اشاء، ولما اريد الفصول عنهم فلا بد ان يكون ذلك في امان وسلام وفي احتفال مشرف، حينئذ ارسل على التوقائده الذى لم يكن بعيدا من المدينة حتى نهب وذبح بواسطة الاعراب، فغدر به واوقع، لما اراد ان يوقع بالاخرين، وخلال يومين او يوم بعد،

كـان كل فرسان سادة المدينـة، مائات مـن احسن الرؤساء والاعيـان، قـد اخذوني لاصطياد الخنازيـر الوحشيـة، وكانوا يعاملـونني باعظـم احترام وتبجيـل، ومن وقت لاخر كنت اجد عندهم، تعبيرا اكثر شعورا عما يكنـونـه نحو جـلالتك، وليس ذلك بالكلام فحسب بل بالاعمال، وعلى التوبناء على هـذا اطلقوا سراح جميـع رعاياك، حسب وعودهم السالفـة وقد حملت بعضهم في السفينة التي جئت فيها، وبعضهم في سفن اخرى، وكنت قد نلت الاذن م.م: سـادة المجلس Lords of the councell بان أشتريها لتلك الغاية، ولكـن القسم الاعظم منهـم كـان في سفـن الحكومـات العامـة قـد وصل في اعظـم مشهد على تلك الايام هنـاك، او بالاخـرى كان ذلك مقصودا بعنايـة الله الخاصـة كما قلت مـن قبل فمن الاول للاخـر ما حصل اخفاق، كأنهم كانوا مرسلين مـن الله لذلك القصد الخاص، وان كـان اتيانهم الذي عزموه وقصدوه لـم يكـن منهـم الا ليسعفـوا انفسهـم بالمـاء الزلال والطعـام الطري . وكـانت ثمـان سفن في الجميع، والرياح حتى آنذاك ما هـدأت، ولا البـر كان ملائمـا للسفن، لتجري وتعود حاملة ذلك المقـدار العظيم مـن المـاء، فاعلموا أن أعظـم مكـان مـلاءمة لهذا الغرض، يبعد بسبعة فراسخ نحو الجنوب، ويدعى أنفى (البيضاء) فسافروا في البـر، وساروا مـن هناك، ثم انهم أرسلـوا سفنهـم مـن بعـد الى الساحـل فـاستقوا الميـاه لاربـع من سفنهم (وأخذت الرهينة من الاعراب فـي الاتصال التالي زيـادة في الحيطـة ومـع هـذا، فـان جمـاعـة منهـم عـدوة للاخرى، ولـم يكن القلمنك مرتابين، أتت فجـأة هـاجمـة فقتلت 13 وأسرت 15 شخصا، حيث ان المعشر الاخـر قد أجرى بعـد بضعة مذابح فيهـم كمـا قـد اخبـر بذلك . أمـا الآخرون فيظنون أن الامر ليس ذلك، ولكنـه فقط تمويه لمـؤامرة دبرت منهما للحصول على المال، وعلى هـذا فـان الجنرال لـم يـرد أن يخاطر مـرة اخرى بأيـة سفينة اخـرى مـن سفنـه فيبعثهـا الى الساحل، وقد فقد أربعة قوارب فقرر أن ياخذ الاربع السفن الى عـرض البحـر معـه، بالميـاه التي كانوا قـد استقوهـا، وأرسل الاربـع الاخـرى الى سلا مـرة أخـرى ليحتاطوا على انفسهم من ايـة كارثـة أخـرى، ومـن هناك بعثوا رجالا منهم بواسطـة البر، كاتبـين الى كل مـن قواد القصبـة والى ايضا، لاتوسط لهـم ففعلت ذلك ومكافـأة على ذلك عرضوا علي ان يحملـوا على سفنهم كل الاسرى الانجليز وأنا ايضا، ان كنت في استعداد للذهاب الى انجلترا، وبهذا كانت الفرصة الثانية فهذا هو الحادث الغريب، أو بالاحـرى عنايـة الله الخـاصـة (كمـا قلت مـن قبـل) قـد منحت لي، فاعتقـدت أنـه لا يمكـن ان ينكـر ذلك عقـلا .

وكـان قبطانات سلا وقوادهـا بنـاء على هدفهم أولا، كما أعلمت جلالتك، قـد عزموا على ارسال نخبـة من رجالهم معي لتقديم أحسن تـرضية وضمان لجلالتك حـول خدماتهم المخلصة وعواطفهم، حيث انهم بواسطة هـؤلاء النواب يتضرعون بطلبهم، وليس ذلك باسمهم فحسب، بل باسم سلا، بل باسم جميع الاندلسيين أو المورسكيين بالمغرب بقـايـا الطروادييـن، وهـم في كثـرتهـم يعـدون بمـائات الالاف التى أجليت عن اسبانيا، وربما لايكـون قـد بقـي الثلث مـن هؤلاء وهم الان سيساقون من جميع الجهات الى سلا ان كـان هناك بطل طروادة يثور ولم يحصل قط مثل ذلك التشريد للناس منذ أن وقع للشعب اليهودى (المملكة المستحقة للشفقة) . نعم انه أكثر مـن أن يكـون محزنا يرثى لـه الكبار بدموعهم، ان يجلى ويغدر، ليس فقط بأشخاصهم، بـل بـالارواح أسلمت الى الشيطـان قسم منها الى يـد الاتـراك وقسم الى المغاربـة، نساء واطفالا . من سيعتبر قيـم الاشياء تماما، هذا الشعب الحقير المخـذول المشتت والمبدد، كاليهود في هـذه الايـام، ليس لهم مكان يلجأون اليه للدفاع ولا مدينة يـاوون اليهـا الا سلا التي عينت لهم وبنيت لهـم بواسطـة ذلك الملك الشهير يعقـوب المنصور، الذى تنبأ بطردهم هذا، كما يقولون، ولكنهم الآن بفضـل جلالتك فقد حصنوا بقطـع المدافع الجيدة والاعتـدة الحربيـة، بحيث صاروا اعظـم قدرة للدفاع عن أنفسهم سواء ضد الاسبان وضد اعـدائهم الاخـريـن، معترفـين لجلالتك، كمنشئهم الثاني، وليس الان لهـم ملك آخـر الا جلالتك، فـان طاب لجلالتك ان تشملهـم بحمايتك الملكيـة، كما يقضي به شرف جلالتك فـانـه تسند بذلك سياستنا، التي هي الان في حالة حـرب مـع اسبـانيـا، لان الاغلب من هـؤلاء كانوا غير مسيحيـين وكـان صنيعهم عملا يجانب الشرف بحيث انه لم يسمع ولم يقرأ عن اضطهاد مثل اضطهادهم، فقد طردوا كثيرا جدا مـن الارواح المسيحية المعمـدة وعملـوا على تسليمها الى يد أعـداء الـديـن المسيحي، الاتـراك والمغاربـة، وحينئذ فـلا غـرو ان هؤلاء محتاجون الى كل مـن حمـاة المسيحيـة ومتطلعون الى العمل الشريف الخير الـذى يصدر مـن جلالتك لحمايتهم وبذلك فانهم يقدمون خدماتهم عـن طواعية الى جلالتك كما سلف (من لا يركن الى فاضل يظلم، كما يقول طبي Tubbie في طقوسه)، وجلالتك الحـامـي لـلايمـان

وبالرغم من انه الان لامظهر مطلقا للدين المسيحي بينهم، اذ ان صورة الله شوهت بالمحمديـين والموت لمن يومن بالمسيحية، فان كثـيرا منهم يسرحـون الفكر وهم بين تلك الديانـة الرمانية الوثنيـة التى كانـوا قـد ولدوا عليهـا والمحمدية التي هم الان يرزحون تحتها فانهم في حيرة ماذا يعتقدون، وبم يومنون

غير انهم يحدوهم الحب العظيم جدا والنزوع الى قومنا وديننا، نعم وحتى المغاربة أنفسهم، كثير منهم هكذا بحيث انه لا شك في صنيع الله الذي يقلب قلوب الناس ويوجه بيده قلوب البشر جميعا، فان كان سيستجيب لهذا ويعززه، فانه لاشك في كون الله سيمنح بركته لذلك الغرض، كما قد فعل من ذي قبل في كل هذه المناسبات تجاه الذين يعلقون عليه الرجاء وان روما نفسها لم تكن قد بنيت في يوم واحد، ولا الدين المسيحي كان بواسطة الرسل انفسهم قد توطدت دعائمه دفعة واحدة ولكنهم كانت لهم بدايات وطفولة نمت وترعرعت مثل باقي الدول والاشياء كلها تنمو شيئا فشيئا وكذلك كانوا في بلادة فجاء مخلصنا (المسيح) فكان في مقابلاته الرمزية لملكة الله فتبذر بذورها على الارض فكان الزوج، بعد لا يدري كيف ينام ولا يعلم كيف ينمو، وان «بولس» عليه أن يغرس ويسقى بماء «ابولو» : ولكن الله المنمي وهكذا يفعل الرسول نفسه الذي يهيمن على الكنيسة لتقديس الله، القادر على انشاء الكون أكثر فأكثر على الحقيقة ودون ذلك من قدرتنا الضعيفة، التي ليست تقوم على الظن أو الادراك الوهمي، كما يقول الرسول نفسه، في محل آخر، وفي بعض الاحيان ليست قائمة حتى على التصور لجميع الاسباب الانسانية والادراكات كذلك الذي فكر في أن روما كان أول أساس لها قد وضع في الدم وأن الجدران قد سقيت الدماء، وبعد ذلك فنيت جميع الالوان الحمراء في دم الرسل، وحوارى الكنسية، فقاست تلك العشرة من الاضطهادات، التي تعرضت لها الكنيسة الاصلية، فكان لها بذلك ان اصبحت الكنيسة الام وكرسي أباطرة المسيحية، والاساقفة وغيرهم من أساتذة العصور العديدة . فبايمانهم انتشر الايمان في العالم بين الالاف كما يشهد بذلك الرسول ، وهذا السبب نفسه سيجعلني اعتقد أنه سيقع المثل لمدينة سلا أو البلاد التي هي تحت حكم الاتراك وطغيانهم والتي قد قامت على دماء كثير من المسيحيين المساكين الذين اسروا أو غصبوا ودفنوا هناك، فسيكونون دائما معبدا للسيد فيسكن هناك، لان تلك التجربة، قد قضت بأن دم الشهداء صبغة الكنيسة، هذا أمر الله وهي معجزة ظاهرة لعيوننا

الحكام جميعا قد استنكرا أعمال مولاى زيدان الطاغية المذكور وحكمه القاسي الذي هو اصل لكل هذه الشرور وقد كرسوا انفسهم جميعا ليكونوا في خدمة جلالتكم وذلك انهم اثاروا سخط مولاى زيدان حيث اطلقوا سراح رعاياكم (خصوصا بعض اطفال الانجليز الذين كانوا قد ختنوا واضطروا الى ان يصبحوا مغاربة) ليذهبوا الى بلادهم وينقلبوا مرة اخرى مسيحيين، فكتب اليهم مولاى زيدان رسالة جد مستعجلة يوغر فيها صدور المغاربة على

الاندلسيين بانهم كانوا قد قاموا بمؤامرة سرية ليسلموا الرباط الى جلالتكم ويصبحوا مسيحيين، وان سلا كانت على اتفاق مع «الموريكوس» المنبثين في كل المغرب ليتجمعوا هناك .

وفي الحقيقة كان الامر كذلك وقد تأكدوا منه حينما رأو الرباط محصنا بالمدافع النحاسية (الانجليزية) والصخور العظيمة ليعبثوا اليه هؤلاء الذين هم ـ على كل حال ـ اشباه المسيحيين والذين كانوا قد التفوا هناك حول رئيس لهم فاسر مولاى زيدان حينئذ رؤساء الاندلسيين في مراكش وفرق شمل الباقين كما اوجب على اخرين ان يعودوا ـ مكرهين ـ من تلك النواحي وان يتقهقروا الى سلا وقد اتت من تطوان الان عشر عائلات دفعة واحدة

وحتى الان ما زالت مكاتبات عظيمة مع الولى الاعظم سيدى محمد العياشي الذى يحكم تلك النواحي من سلا الى تطوان كما ان له رغبة اكيدة في جلالتكم وهو عدو لدود للاسبان عارضا مساعدته على جلالتكم بكل قواته لاحتلال المعمورة او اية مدينة اخرى كما وضحت سابقا لجلالتكم وقد سلمت اليه رسائلكم في سلا القديمة على الجانب الاخر من النهر فسر بذلك سرورا عظيما وعاملني بمنتهى التبجيل والاحترام كما صنع فيما قبل حينما اتيت اليه من تطوان وقد ذهبت اليه مرتين وفي كل مرة كان يحدث ان السماء تمطر امطارا غزيرة حينما اكون على اجتماع به فاعتبر ذلك بعض المغاربة دليلا طيبا على انى قد اتيتهم بحظ حسن لان ندى السماء مرغوب فيه جدا بهذا القطر الحار الناشف وقد اخذونا في اول الامر الى قاعته او خلوة عبادته حيث انه لم يصل الى ذلك المكان اى مسيحي من ذى قبل لان اولئك الاولياء لا يسمحون لاى مسيحي يتخطى ابوابهم بناء على ان معابدهم تتلوث من ذلك . وفي أثناء احاديثه قال لي ان جلالتكم تنال من التشريف والحب بين المغاربة اعظم حظ فانكم تجدون الصداقة القديمة التي بدأت قديما بين هذين الشعبين وهم قد وضعوا في رغبتهم الطيبة في ان انفذ ما وعدتهم به وان احمل اليهم رسائل جلالتكم بترضية حسنة على كل حال وما قاله كان من ذى قبل مشهورا في كل اراضي البربر كما وعد بانه سيكتب رسائل الى كل النواحي فلا يمر وقت طويل حتى يكونوا بارادتهم وحسب طواعيتهم رهن الاشارة لتنفيذ مثل هذه الرغبة بدون اى ضغط عليهم وقد اجتمع اليه من كل ناحية عدد من المغاربة يصل الى 40.000 وهم يعرضون خدماتهم في الذهاب الى المعمورة

وبنـاء على ذلك فقد ارسل الى بحماس عظيـم ملتمسا مني ان اكلم امير البحر في ان يقف بسفنه امـام المعمورة بضعة ايام قلائل على بعد خمسـة فـراسخ ليحولوا دون الامدادات الى أن يهيء مـاذا يلـزم في البر، لاحتلال المعمـورة .

غير أنـه اعتبارا، لكونـه لا يتلاءم مـع شرف جلالتك ولا مـع الحكومات العامـة، أن تتواطـاوا على مثل هـذه المداهمة مـع المسلمين ضد المسيحيين، وان كان في الواقـع عكس هـذا، لانهـم أعداء في العقيدة، وقد ارتكبوا تلك الوسائل التي أسلموا بها اخـوانهم الى أيدي الكفار، فوقعوا في عبوديتهم – فـانـي تشاورت والامـيرال (17) وانتهينـا الـى مـا فيـه العـذر في ذلك .

أمـا قواد القصبة، فانهم طلبوا مني أن اضع العراقيل الكثـيرة، بقـدر ما أستطيع، لهـذا الولي، فـأجعله ينصرف عن هذا الغزو المداهم، ويفضلون ان يكون ذلك مدخـرا لجلالتك او للحكومات العامة، أو لكليكما بالاشتـراك، فتحشدون قواتكـم جميعا في البحر والبر أيضا، وهـم مدركون تمام الادراك، ما تتطلبـه تلك الخدمة المذكورة، وبذلك تبقى المعمورة في يد جلالتكم، ولكـن على أن تكـون هناك قـوة عظيمة مهياة لا حتلالها .

وان كان الولي لم يستطع طردهم منها، ومع هذا فانهم ربما احتاجوا الى بعض مساعيه في الجملة، وعليه فانهم ياتون معه الى المعمورة زاحفين، ويكـون الولي نفسه هو المتولي لقيادتهم . ومهما يكـن وحسب وعـدى السابـق عند اجتماعي بـه فانه أرسل في استدعائي مرة أخـرى وقال لى : ان أنـا حصلت على السفـن لـلاتجـاه الى هناك، فلـن يشك في احتـلال المـدينـة

وبهذا سيكون أكثر تحمسا لعتق البقية من رجـال الانجليـز، في البـلاد الساحلية والذين هم في حوزتـه، بسلا العتيقة، وكذلك رجال الفمنك، الذين لـم يـاتـوا حتى الان مـن آنفى (الـدار البيضاء) .

وقد أكـد لي بعض المغاربـة (9) أيضا وغيرهم، أنـه ان هو استولى على المعمورة، فسيضعها في يـد جلالتك، وبذلك فقد بعثت احدهم برسالة اليـه، كتبت باسمي باللغة الاسبانية، انـه بمجـرد ما يتحسن بر الشط، فـانـي سآتي بحـرا في تلك السفـن، للقيام بالمساعي المطلوبـة، ولـما ختمت الرسالة، داعيا الله بأن يرسل له النصر والتاييد على أعـدائه، وقـرىء علي ذلك، رغبت مـن الكـاتب ان يـرفـع ذلك، لاني استنكفت ان اضـع خط يدى على تلك الفقرة، ضد المسيحيـين، ولكن الرسول، وقد تنبه في سرعة لذلك، قال انـه لـم يكـن الا تتمـة للـرسالـة، وبـذلك وقعت الـرسالـة وأرسلتها اليه .

ثم كانت أول الاخبار التي سمعتها بعد ذلك، أن سفينتين اسبانيتين، كانتا قد ارسلتا الى المعمورة، وبينما كانتا تمران بالشط الرملي، استهدفتا تجاه بعض المرتفعات، لثلاث طلقات من مدافع صغيرة للمغاربة (9) الذين سرعان ما أحدقوا بهما وساقوهما الى الساحل، وكان بهما 800 اسباني، وقعوا جميعا في الاسر، الى جانب ماغنموا فيهما من مدافع عظيمة وبارود، وقذائف وذخائر اخرى، وقد وقع جميع ذلك في يد الولي، وشجع المغاربة (9) كثيرا، وكان له صيت عظيم بينهم، أو بالاحرى كان له اعظم صدى مما هو في الواقع بحيث انهم القوا الرعب في جوارهم، وصار يزداد وينمو أكثر فأكثر، فأصبحوا بذلك قادرين على السيطرة على المملكة، وقد تمكنوا من حسن النظام ثم أتت سبع سفن من اسبانيا بمؤن وزاد طري، فكافحت لعبور حلق الوادي، لكن الولي في نفس الوقت كان قد أقام بعض المدافع على فم النهر، فاضطر الاسبان حينئذ الى سلوك طريق اخر، متنكبين هؤلاء المغاربة (9) ومحاولين ايقافهم في الحين، بتعويق انزال رجالهم ومعداتهم الى شاطىء البر، وهكذا فعلوا فارتدوا عنهم، حينئذ رأى الولي أن المكان قد أفرج عنه، وكان هو قد وقع في ضيقة، بسبب الحاجة الى كل من الرجال والزاد، حيث كان العرب قد غادروه، لان هؤلاء ما أتوا الاطلبا للفديات والغنائم، وفعلا فقد أخذ كل واحد منهم من كل شيء ما أصابه، من السفينتين حتى أتوا على الامراس وحبال الزوارق، التي اقتسموها فيما بينهم قطعا، كما اقتسموا الملابس التي خلعوا عن ظهور أولئك الاسبان المساكين، فعلهم من قبل مع الفلمنك بآنفي، فان هؤلاء العرب الاجلاف قد وقعوا جميعا بهذا المكان على الملابس المختلفة، فاقتسموها بينهم، بعد ما مزقوا جوارب اولئك الرجال عن سيقانهم واستاقوهم في سرعة واستحثاث، فصارت أرجلهم مكلومة مسيحة يابسة اما الاخرون فقد ذبحوا

كان هذا أيام رمضان (18) وهو لهم Lent (19) الذي يعقبه التعييد والصلاة (وخلال هذا الوقت يكون هؤلاء الاولياء منقطعين الى تبتلهم، لا يتدخلون في الشؤون الدنيوية، مهما كان خطرها، فما يزالون في انقطاعهم الى تعاويذهم، مقصرين جدا في تحدثهم مع أى شخص) وبذلك فك الحصار عن المعمورة، فعادت الى ماكانت عليه من قبل، وكان في حصاره معتمدا على أندلسي سلا، الذين حصلوا على المدافع من تينك السفينتين، وكان اثنان منها نحاسيين جيدين، وستة منها صغيرة، فأراد القبطانات وقواد سلا أن ياخذوها للقصبة التي اعتبروها أحق بذلك، وسحبوها صوب سلا

(الرباط) ولكن مسلمي سلا العتيقة لما لهم من لقانة، وتقع هذه المدينة على الجانب الاخر من النهر، اعتزموا العبور اليهم لانتزاع المدافع منهم واقامتها على سلا العتيقة، فيحصنوا بها البر، وبناء على هذا تكون جميع السفن التي تاتي الى النهر، واقعة في حمايتهم، كما هو الشأن الان، وعليه، فان الاندلسيين أرسلوا رسولا الى قبطانات القصبة يخطرونهم بهذه المؤامرة،

حينئذ خف هؤلاء الى تسليح 300 رجل، وتعبيرهم النهر في سفنهم الكبيرة، للانضمام الى باقي الاندلسيين الذين كانوا قد ذهبوا بالمدافع تجاه سلا، وكان المغاربة في الجانب الاخر يرقبون الحالة (وهم كذلك دائما في تاهب) زاحفين للقائهم بخيلهم ورجلهم، فشرعوا في مناوشة حامية على ذلك الوقت، وهرعوا نحوهم من أسوار المدينة، الا ان الاندلسيين بالرغم من أنهم كانوا أقل منهم عددا، كانوا احسن منهم نظاما عسكريا الى اقصى حد، كما كانوا مزودين بالبارود والقشك، والمدافع العظيمة كذلك، مما كنت جلبته لهم، وكانت تلك المدافع كلها مقامة على القصبة، فالقت بعض منها قذائفها على المدينة (حيث كان هناك مدفعيون ماهرون من سفن الولايات العامة الراسية على الشاطئ) فانفجرت بينهم، كما انفجرت بعض القذائف فوق المدينة على المغاربة، وهدمت بعض منها دور المدينة، فوق رؤوس أصحابها، فاصاب ذلك الرجال والنساء والاطفال، وجعلهم جميعا يفرون خارج المدينة، كما أن أولئك الذين كانوا على أهبة القتال جعلوا ينجون بانفسهم الى الخارج .

في هذه الاثناء، جاء الولي، وقد سمع قصف المدافع، حيث كان معسكرا قريبا منها (وكان بقية من الاندلسيين معه) وعلى مجيئه أصلح بينهم، وأعاد السلام الى نصابه (لان جميع هؤلاء قد نصبوا أنفسهم للاصلاح بين الناس) بعدما كان الاندلسيون قد توجهوا نحو مدينة سلا وأحدقوا بها، الا أن الولي الان قد اضطلع بعلاج المشكلة، وأذعن المغاربة الى أن يتركوا للاندلسيين تلك المدافع يقيمونها على قصبتهم، وكان بعض منها قد أرسل قبل خروجي، ولهذا فان ملك الاسبان لا يستطيع الان ان ياخذ على جلالتك، أنك أرسلت المدافع الى سلا، لانه نفسه قد ارسل اليهم المدافع، ضد رغبته .

ومهما يكن فقد توجهت الى سفن الولايات العامة، ومعي رعايا جلالتك، الاسرى الانجليز، والفلمنك العائدين كذلك من آنفى مع بعض زوارق الاسرى الاتين كذلك من المعمورة، وكانوا قد أطلق سراحهم، بينما كان قبطانات

سلا وجميع الاندلسيين على العموم، قد عملوا ما في استطاعتهم ليبرهنوا على تعلقهم بجلالتك والولايات العامة، ولولاهم لكان هؤلاء الرجال جميعا قد فقدوا، وفي هذا فاننا لم نتحمل أداء اى مبلغ من المال مطلقا، كما أننا لم نتحمل شيئا من ذلك في تزويدنا بالماء من قوارب المدينة، التي كنا في عهدة حراستها هناك، فتزود جميع رجالنا بالماء، وأزودة أخرى سرعان ما حملت الى سفننا .

وفي آسفي كنا في المدة القريبة، قد قمنا بجميع أعمالنا، ومنها ابحر آخر سفين لنا، وشاء الله ان يرسل علينا ريحا ملائمة، وهواء حملنا من الساحل، وكان ذلك يوم الخميس أيضا، اليوم الرهيب، ففي يوم الخميس غادرت لندن، وفي يوم الخميس ابحرت من دونس، وفي يوم الخميس أبحرت من دورتموث، وفي يوم الخميس أبحرت من آسفى، والان في يوم الخميس أتيت من سلا، في العاشر من مايه الاخير، صحبة سيد بنفس الاسم، كان رفيقي في الحل والترحال، نعم : لست قراء، لابنى اى شيء على ذلك النوع من الملاحظ ولكني مع هذا أزعم أن لي براهين جيدة وبيانات واضحة جاءت من الله ومن جلالتك على السواء، على صدق مهمتي هذه، ولا أقول الا هذه فقط، والحق اقول، وأنا كرجل ما زال على قيد الحياة، وقد أصبحت جميع وسائل حياتي ونسكي ماثلة لي معلومات لنفسي (بحيث انه ربما من الان فصاعدا ساكون عند حساب أوسع اقدمه عن كل أعمالي السالفة، كما هو واجبي) وان المولى الكريم قد فعل فعله العجيب بحيث ان ذلك كان ماثلا للذاكرة، وبذلك فاني أجرؤ أن أقول، ان هذه لايات بينات من الله، شاهدة من لدنه على صدق أعمالي، ومهامي التى قمت بها وكانت هذه سادستها، في تلك السفارات التى توجهت بها الى ذلك القطر، انها ستة أيام في الاسبوع ستة أيام سوف تعمل فيها، وفي السابع آمل أن استريح (20) وكما قال يوسف لفرعون في تلك الرؤيا العظيمة (21) هكذا قضى الله بتلك الامور، وهو صنيع المولى الحكيم الباهرة لاعيننا، قضى به الله كما قلت من قبل، ولا يمكن ان يجحد أنه صنيع المولى، في تلك المهام التي قمت بها وعلى غير عادة، تم انجازها في تلك الاسابيع، فليس لهذا معنى غير المعجزة الباهرة، ان الله قد اختار الامور الغفل في العالم ليبلبل بها عقل الحكيم، وأبرز اضعف الاشياء في الدنيا ليحير بها عقل القدير، وحتى خسيس الاشياء والامور المزدراة فيها عبرة للمعتبر، نعم : انها قضايا لا يتطرق اليها البطلان، هي أشياء بحيث انه لا أحد سيمارى فيها لدى حضرته كما حدث في هذا الذى وقع أخيرا للمعمورة،

على قدمتي بالمدافع وسفن الولايات أيضا، وقد أرسلت معجزة من الله، كما قلت من قبل، فكانت السفن التى حملت هؤلاء المساكين المسيحيين الى ديارهم، من رعايا جلالتك، ولتخلص اولئك من هؤلاء الاسبان الضالين الذين كانوا أولا يخرجون من المعمورة الى عرض البحر، فينالون تلك السفن الانجليزية ثم كان حاكم المعمورة يتكبد تلك التحصينات، المقامة على الجانب الاخر من النهر، ساحبا جميع جيشه معه، وكاتبا للرسائل العديدة الى البلاط الاسباني، بأني وصلت وفي معيتي حفل للمدافع، التي تم انزالها الى البر، وأسطول من السفن الانجليزية، كان يمخر البحر لاحتلال المعمورة، وان كان حتى الان لما يقع هذا العزم (انها الاشياء التي ما كانت تخطر على بال) لذلك فان هذه الزوارق التى كانت في الحال موجهة وجهتها، وقوارب أخرى للامداد أصبحت تبعث الى اسبانيا اشاعات مريعة، بأنها قد أسرت، فسادت الضوضاء جميع البلاد، وصارت الناس من نساء وأطفال في فرار من مكان الى آخر، يصعدون وينحدرون في الشوارع، باكين صائحين «ضاعت اسبانيا España es perdida» كما حكى لنا انجليزي صادفناه في البحر، على سفينة فرنسية، أتت من قادس بأزودة لمزكان (الجديدة)، وكذلك كان الجميع باسبانيا من قبل سنة أخرى خلت، على قدومي لتطوان من قبل ماكان الاسطول قد خرج من انجلترى، وقد أرسل الله بين يديه ملكا، ليقذف الرعب في قلوبهم، كما فعل أيام يشوع، ان كان هناك اى يوشع في أيامنا هذه، لقتال صناديد الحروب، الذين سقطوا في تلك المعارك، وان الله يختار واهن الامور وغفلها، وبشيع الاشياء وقنوطها، نعم : الاشياء التي لا طائل تحتها، هي التي يميل اليها قلوب المغاربة (9) كثيرا، والكفار لانجاز ارادته . أقول ان صنيع المولى هذا، به يملك قلوب الناس، حتى ولو كانوا ملوكا، كما يقول سليمان، يقلبها الى حيث شاء ويوجهها الى حيث يريد، كما فعل بقلب سيروس ودارا ملكي الفرس، اذ كان جنتلس عطفهما الى عتق شعبه المسكين، كما فعل ببني اسرائيل، فأخرجهم من أسرهم الطويل ببابل، لبناء بيته وهيكله بأورشليم، ومع هذا فان الشيطان من ناحية أخرى أثار سنبلاط Sanballat وآخرين ليصدوه ويعوقوا مثل هذا العمل

وبما أني أحسب حسابي، فان هناك بعض السنبلاطيين، حتى في أيامنا هذه، حيث وجدت بالضبط سنبرط (22) وشبيه فسل (23) وهما أكثر اختصاصا واحتراما لنبيهما من الاخرين، سواء في ذلك ما يخص جلال الله وما يخص شرف جلالتك والصالحين من رعاياك، الذين قد سعوا جدا، بما

هو في مكنتهم، لا للمنع والدفاع فقط، بل للهدم تماما والقضاء على خدماتي التي أقوم بها لجلالتك لفك رقاب رعاياك المساكين، الذين يرزحون في قيد العبودية، وللتداول في مسائل اخرى ذات الاهمية، كما هو معلوم لجلالتك، وان الذى فعلت كان وفقا للمهمة التي كنت مبعوثا فيها من جلالتك، ومهرت بالختم الاعظم لانجلترا، وما تصرفت فيه تصرفات خاصة لم يكن الا بناء على تفويضي

اولا، فان برط المذكور وفسل، تآمرا معا خلال تلك المدة (كما ذكر من قبل) فعملا على شحن هؤلاء المغاربة وارسالهم الى البلاد الغربية، ليباعوا بها، كرقيق في ليجورن Ligorne بايطاليا، حاجزين مع ذلك الاخرين، الذين أخذوا بالبحر وحملوا الى الخارج، وكانوا 28 نفرا، أسروا في حملة واحدة، وقد تمكن بعضهم من الفرار، وأتى الى سلا بهذه الاخبار، قصدا بذلك، كما يبدو، الى بتر حلقومي (أنا وبقية رعايا جلالتك) فأخبر هؤلاء بأن رجال الانجليز، قد ألقوا بالمغاربة من سفنهم الى البحر، فأحدث هذا جلبة وضوضاء، كلفت قبطانات القصبة كثيرا من العناء في تهدئة الشعب وتسكين ثائرته، موضحين لهم أن هذا لم يكن وفق خطتي، وأني قد وعدت بالفعل، أن جلالتك ستنصفهم بكل نبل، وبذلك ركنوا الى السلم، وفي الوقت نفسه تعهدت لهم بأخذهم ومعاملتهم بكل احترام ونبل . هذا وان قبطان السفينة الانجليزية الذى أسرهم قد هتك بذلك، على كل حال، ما كنت أعالجه من أعمال وكلت الي، وقد أخبرني المغاربة الذين فروا، بأنهم أفهموه أني كنت في ذلك الوقت بسلا، ابرم الصلح مع أهلها، فأجابهم بأنه على علم جيد بذلك، ولكنه لا يابه لمداولتي تلك، ولهذا الصدد، فان أهل سلا أرسلوا رجلين معي، بهذه المامورية الى جانب ماموريات أخرى، ليرفعوا شكواهم الى جلالتك، بما قد سمعوه سلفا (من أولئك المغاربة الذين حملتهم معي)

وهكذا، فان كلا من تآمر برط، وصنيع أولئك الذين قذفوا بهم الى البحر، مماذكر قريبا، وكذلك اثارة بعض قضايا أخرى وعرضها على جلالتك، خصوصا ما يتصل منها بمبالغ عظيمة من المال، كانوا قد أنفقوه في فك رقاب رعاياك، وسلم لمن كانوا يمتلكونهم، ولم يتسلموا مقابل ذلك الا أربعة مدافع نحاسية، بينما كانوا ينتظرون أربعة عشر، ومع هذا فانهم ما زالوا معينين انفسهم لخدمة جلالتك وتنفيذ ارادتها، في جميع الامور، ولاول ما يطلب منهم ذلك، وقد أتوا ببعض الشروط التي يعتمد عليها ابرام

الصلح، وقدموهـا لي، وقد وضعوا عليها خطوط أيديهم، راغبين مني أن أضع عليهـا كذلك خط يدي، ولكني اعتذرت مستثنيا بعض المسائل، ومتلطفا بأن تلك الشروط، التي صادقوا عليها، ينبغي أن يستبقى التوقيـع عليها لجلالتك بعـد عـرضها على المجلس الاستشاري الموقـر، ليرى ما عسى يكون منها ملائما لشرف جلالتك، وصالح رعايـاك

والان، بمـا أنـه ربمـا يعترض، كما قد حصل لي عدة مرات، بأنه ينافي شرف جلالتك، أن تتعامل مـع هـؤلاء أو تعقد معهم اتفاقـا بدعوى أنهم ثـوار قـراصنة الخ، فاني أجيب بادىء ذي بـدء، كمـا قـد قلت ومـا زلت : اذا كان لا يمكـن افتداء رعايـا جلالتك الا بالتفاوض معهم فلما ذا لا يكون هـذا التعامل معهـم، كما كان مـع اهل الجزائر ؟ أهؤلاء أكثر تورانا وأشد قـرصنـة ممـا كـان عليه أولئك ؟ ومـع هذا فمع من ؟ ان هـؤلاء قـد ولدوا على المسيحيـة في اسبانيا، ونشأوا معمدين، ثـم طردوا منها، وأسلموا الى أيـدي الكفـار، وهـم الان يعيشون تحت نـير طغيانهم، وحيث ان لهـم ميولا مسيحية، فـي أن تشكل حكومـة لهم من جديـد، فقد اختاروا حمايـة جلالتك، وفضلوهـا على جميـع الملوك المسيحيين الاخـرين، وبذلك فقد أودعوا أنفسهم في خدمتك، لانهـم يعتبرونك الحامي الحقيقي للعقيـدة، أمـع هذا يكـون هؤلاء ثـوارا ؟

انهم قـد تنصلوا من اسر أو جعل أحـد من رعـايا جلالتك في قيد العبودية ويضعون كـل ما حصل من ذلك في عهـدة مولاى زيدان وقواده وقد مهـدوا السبيـل لكل من الاتـراك والمغاربـة (خصوصا عندما عقد صلحنا مع اهـل الجزائر) لان كـل ذلك سيكون في صالح سلا ، ليتزودوا هنـاك، ويحصنـوا سفنهم، ويأتوا بغنائمهم، حيث كـان هـؤلاء الاندلسيون مرغمين ليفتحوا لهم الطريق (كما قـالوا أنفسهم في عـدة مسائل أخرى) خوفا من الناس (24) والا فـان كـان لهم أن يبدو بأى سبيل مشربين بحب المسيحية، فان كلا من الاتراك والمغاربـة جميعا سينقضون عليهم، كما القيت عليهم من القائد تعاليم، بـأن مشيئة مـولاى زيـدان أن يوضـع رجال الانجليز في قيـد العبـوديـة، وان جبروتـه في الحكـم أصبح الان في امكانهم أن يتخلصوا منه بأحسن الوسائل، حيث انهم قـد خلعوا قواده جميعـا، وبدلا منهـم أقامـوا حكـومـة مدنيـة شبيهة بالحكومات المسيحية، تدعى كفلدو Cavildo (25) على غـرار مـاكـانـوا عله باسبانيـا، فحققوا بذلك تنبؤهم وكأنهم في الـوقت المرتقب، ليكـونـوا على بكرتهـم قـد سبقـوا ليسودوا بتشجيـع جـلالتك والملـوك المسيحـين الاخـرين والولايات العامـة، التي هي على ديننا، والتي يـرغبون أيضا فـي

تثبيت العلاقات معها وهم لا يشكون في انهم سيقيمون حكومة أكثر مسيحية مما هي عليه باسبانيا، بعد ما أجلى ملك اسبانيا هؤلاء المسيحيين الحق، بل ان هؤلاء الذين هم خارج اسبانيا (أعني هؤلاء الموريسكوس أو الكثير منهم) احسن مسيحية من الذين هم داخل اسبانيا، وان هذا الملك كان بترحيب قد دعاهم في بلاغه الى العودة، ولكنهم لن يعودوا للانضواء الى تلك الحكومة الوثنية مرة أخرى، قائلين ان لهم ملكا يحبهم أكثر، يقصدون به جلالتك، كما أجاب بذلك بعضهم، الاسبان الذين حدثوهم بهذا البلاغ، الا يعامل هؤلاء معاملة طيبة، كما يعامل أتراك الجزائر ؟ نعم : بل احسن جدا، ويستعطفون وان بعضا منهم ما زال يعاني قيد العبودية، في سفن الجزائر حتى اليوم هذا، لان هؤلاء لما طردوا أولا، قالوا انهم مسيحيون، وانهم سيظلون كذلك، وجميعهم كان قد تلقى ختم التعميد، في ايامهم السالفة، ولكنهم الان لا يجرؤون على اعلان ذلك، ويرثى لاغلبهم

ان هؤلاء الاندلسيين قد أعتقوا جميع رعايا جلالتك، وقد بيعوا واشتروا في حكومة مولاى زيدان، وأدوا فيهم مبالغ عظيمة من المال لاسيادهم، نعم : بل أكثر من هذا انهم بناء على هذه المعاهدة، قد حرروا كثيرا من الاطفال الذين صيروا مسلمين، وقد ختن أعظم هؤلاء، وأصيب بعضهم بعاهة من جراء ذلك، وكما ذكروا أنفسهم، فقد وعدوا أيضا بأن يرسلوهم الى الخارج، ولكن بواسطة تهريبهم سرا، خوفا من المغاربة الذين قد شرعوا فعلا ينتقدونهم، ويحملون لهم أعظم حقد من أجل ذلك، قائلين انهم في داخليتهم مسيحيون، هم وجميع الاندلسيين، وليسوا مسلمين حقا، الا يكون هؤلاء بناء على مثل هذه الاعتبارات جديرين بالتعامل كذلك جيدا كما يعامل الجزائريون؟ وانهم مع هذا، ما سمعت قط عنهم، ولا عن أى بلد تحت الحكم التركي، أنهم سيذعنون لتلك الشروط آنفا، فيعتقوا المسيحيين الذين صاروا مسلمين (26) بل انهم يحرقونهم (هذه هي شريعتهم) اذا هم ارتدوا

ولقد انتحى بي بعض رؤسائهم ناحية، وأسروا الي بأنهم لا يجرؤون على أن يظهروا بما يريدون فعله ولكنهم مصممون على أن يؤدوا ما عليهم من أعمال بالتدريج poco a poco وكذلك الذين كانوا على سفنهم في عرض البحر، خارج بلدهم قبل اتياني اليه، قد وعدوا بالمثل، أن يعتقوا أولئك عند عودتهم بل حتى أولئك الذين قد حملوا الى الاقطار (كما حصل لكثير منهم) سيبحثون عنهم ويرسلون في طلبهم . وفعلا قاموا بذلك، على مداولتي معهم لاول مرة، وفي هذه المرة ايضا، قد أعتقوا مائتين، وان كان كثيرون

قد ماتوا بالطاعون، الذى لم ينقذوا منه لما كنت بانجلترا قد عوقت في مهمتي وقتا طويلا

ان هؤلاء قد أتوا ليتفاوضوا مع جلالتك، كحكومة حرة free State ولهم الحجة التي ذكرت من قبل، وقد تخلصوا من ربقة الحكم الطاغي لمولاى زيدان، كما فعل حكومات الاراضي الواطئة بالنير الاسباني، مصرحين بنفس الاسباب، ومعلنين عن الرغائب الشبيهة، في وضع أنفسهم تحت حماية التاج الانجليزى، كما فعل أولئك، وكتبوا في ذلك الصدد، رسائل وبعثوا رسلا الى غيرهم من مواطنيهم في جميع جهات المغرب، بل حتى لمن كان منهم بالجزائر وتونس، يعلنونهم بكونهم في حماية جلالتك ورعايتك الرحيمة المفضلة لديهم ليتواطأوا جميعا معهم وليكونوا قلبا واحدا، الشيء التي يخشاه مولاى زيدان، ويحاول بجميع الوسائل أن يمنعه، ولكن ذلك عبثا كان، فان سلطانه أصبح لا يمتد بعيدا، وزيادة على ذلك، فان الاندلسيين يتسللون يوميا الى سلا من جميع الجهات، حسب ما وعدوا به، وكانوا في هذا يصغون الي كثيرا، ويودون أن أجعل جلالتك تتكفل باحتلال المعمورة، اذ أن أخذها سهل، كما قالوا واعدين بكل معونة منهم، في احتلال هذا المكان الذي هو أحسن مرفأ للسفن في جميع ذلك الساحل القريب من سلا بخمسة فراسخ فقط، حيث يمكن جلالتك ان تجلب اليهم العون بالسفن، ولجلالتك في ذلك فرصة اخرى يمكن انتهازها للتضييق على العدو في اقرب واجهة، سواء ذلك في البر والبحر، ان كان هناك اسطول ماكثا بالساحل، فيكون وسيلة لصرف الحرب من هذه الجهات، كما فعل سيبيو (الافريقي الصغير 85 ــ 129 ق م) مع هنبال، فوجه ذلك من ايطاليا بواسطة الخطة الحربية التى تشابهها هذه، وبذلك هاجم قرطجنة، وداهم عدوه في عقر داره، كما يكون لجلالتك هذه السواحل جمعاء ملائمة، وبها يكون العمل في سهولة، لتحقيق هذا الغرض

وقد مكنوني في هذا من توكيلات وتوصيات، سيعملون على مقتضاها في التقرب الى جلالتك، وبعث همتها الى هذه الجهة وعلى كل حال فانه سيكون ملائما لشرف جلالتك كثيرا، ان تعاملهم معاملة حسنة في اقتبالك لهم، كما قد فعلوا هم معي، وانهم ليعرضون خدماتهم على جلالتك، في هذا الامر، وعلى شروط شريفة، قدموها في اول فرصة لسفارتي السالفة (كما هو مذكور آنفا) وقد حققوا ذلك الان هادفين بذلك الى تقديم انفسهم جميعا لمشيئة جلالتك، في كل امر، كما هو موضح في فصول معاهدتهم اولا، وقد وعدت بأن جلالتك ستعاملهم بالنبل والرغبة الصادقة .

اما رسائل جلالتكم الى مقدمي تطوان فلا يمكنني الان ان اسلمها لانني لا املك سفينة تحملني الى هناك غير سفينة التجار التى أتيت عليها، وقد كنت أثيرت حولي ضوضاء : كيف أني سأتمكن من الذهاب تجاه سلا ؟ وذلك خوفا من الاسبان ولو ان جلالتكم قد ألقيتم فيهم كثيرا من الفزع الملكي في تلك المجهودات، وان 280 ليرة قد سمح بأربعين منها فقط لرفقاء السفينة، جعلهم أكثر انسياقا الى ابداء التذمر، ولهذا بادرت بأن أعطتهم سفنتجي بـ 60 ليرة، زيادة عليها، لجعلهم اكثر رغبة .

وللذهاب برا من سلا الى تطوان فان ذلك سيكون مرهقا جدا ويتطلب حراسة فوق العادة لما استهدف اليه من خطر عظيم كما لقيت في المرة الاخيرة والى جانب ذلك فان حالة تطوان وحكومتها قد تغيرت كثيرا عما كانت عليه يوم ان كنت هناك وهي على ان تزداد خطورة من حين لاخر فقد ذبح الاندلسيون في مرة واحدة ثلاثة من المقدمين ثم ان احد الاندلسيين القدامي يدعى ابو علي (27) انحاز اليه الباقون قائلين ان اسلافهم كانوا حكام المدينة فيما سبق وظلوا كذلك الى ان كان والد هؤلاء المتقدمين وهو النقسيس البربري او الجبلي الذى جمع حوله الناس بالقوة وبالخداع، فاغتصب السلطة منهم، ثم خلفه اولاده الستة واعتصبوا كاخوة جد أقوياء، وبالتدبير من ناحية والقساوة من ناحية اخرى نجحوا (شان الطغاة الاتراك الماكرين فيما سبق) فانهم قد بحثوا عن وسائل تمكنهم من الامر، وقبضوا على زمام الحكم بالمدينة، منذ وفاة أبيهم (الشهير في الدهاء والمقدرة معا) فنالوا اعظم هيبة في النفوس خصوصا واحدا منهم فانه كان اكثر هيبة من جميع الباقي وهو سيدى عيسى الذى كان ابوه وهو على سرير الموت قد عهد اليه خصوصا بشئون العدالة، مستعملا قليلا من العدل ولكنه بسيفه . أما الباقون فانهم غير أحرار عند مشيئتهم وقد سقط عدد من هؤلاء الاندلسيين بين الباقين تحت حد السيف بدون حق، كما قالوا .

والى جانب ذلك فهناك المطالبة بالثار منه ومنهم لعدة انتهاكات اخرى للحرم ارتكبت كثيرا من الباقين وسيدى عيسى، فقد ارتكبت في عرض نسائهم وأخواتهم (حالة فظيعة في تلك النواحي) وكانت آخر الحوادث كما سمعت ان احدى بناتهم تزوجت حديثا ولما كانت عروسا ارسل في طلبها في نفس اليوم، مما جعل المحتفلين يستاءون وهب معهم الاصدقاء والاتباع (الذين كان في مقدمتهم ابو على هذا) فقد اتوا على غرة ان كان هو واخواه الاخران على مجلس الشراب (كما هي حالتهم كل

ليل ونهار) وذلك في بيت احد اليهود فذبحوهم ثلاثهم جميعا في ذلك اليوم ـ وكان ذلك البيت اول بيت اقمت فيه ـ فلم يكن من الاخوة الاخرين (واحد رؤسائهم سيدى عبد الله الذى كان قد ابحر في ذلك الحين) الا ان اتوا جميعا واجمعوا امرهم وشركاءهم ووجهوا قواتهم لاجل القبض على الرئيس أبو على الذى كان قد هرب فقتلوا بعض الاخرين وعاهدوا بقية الاندلسيين معاهدات تمكنهم من المكوث والبقاء في بيوتهم والاحتفاظ بما لهم كما كانوا عليه من ذى قبل في حالة السلام .

فرجع الجميع الى بيوتهم ثم تمكن حتى الان هؤلاء الاخوة ـ وهم ثلاثة ـ من حكم المدينة، ولكن ذلك على خوف عظيم وحراسة متوالية قوية حول اشخاصهم، وقد ارسل سيدى عبد الله من قبل كل متاعه الى سبتة محتميا بالاسبان، ومتوقعا ان المدينة ستكون حامية جدا عليه، اذا ماطل طويلا بين الاندلسيين، لانهم ليسوا مطمئنين لغيرهم في القيام بالمحافظة عليهم ويتوقعون كل يوم ان يرجع اليهم ابو على فيدخل المدينة مرة اخرى وله اقوى طائفة من الانصار في المدينة تتمثل في كل الاندلسيين وغيرهم كما ان له اصدقاء خطيرين في السبيل الموصلة الى تطوان وقد استطاع بمشيئته القوية أن يعقد محالفة بواسطة المصاهرة مع مقدم أنجرة المتاخة لتطوان وطنجة، والذى فيه اعظم وفاء لجلالتكم وقد كنتم كتبتم اليه . ولكن للاسباب السابقة المذكورة، وايضا بسبب أنه من المظنون ان هذه المدينة تطوان ستسقط بيد الاندلسيين قريبا، فمن ثم مع الايام المقبلة تكون كل البلاد بين تطوان وسلا متساقة مرة واحدة الى تلك الرياسة (مثل ما يحصل الان) فانه قد ابتدأ ذلك العمل من كل النواحي وقد طالبوا بحق ان يضعوا الاساس لذلك كما هو في سلا حيث ان بناة تطوان الاول ـ كما صرحوا ـ كانواهم الاندلسيين في الازمان الماضية، كما أن المعيدين للتشييد والترميم Reedifiers repayrers هناك، هم الاندلسيون الذين اتوا اخيرا من اسبانيا والذين جعلوا من مزبلة جنة مثمرة فيحاء خصوصا جنان الكرم التى غرسوها في كل النواحى وزودوا المدينة بالذخائر التى هى في ازدياد مطرد وقد فكرت جيدا في هذه الوسائل التى عساها تسمح بتقديم رسائل جلالتكم فاني منتظر اشارة مشيئة جلالتكم العالية فيما بعد ولكن على ان ابقى على ما وعدت به الولى الاعظم (سيدى العياشي) والاندلسيين كذلك الذين توسلوا الى جلالتكم ان تحتلوا المعمورة .

وللاثر الذى يكون من هذه العروض، والاخرى التي علمت لجلالتك، فانه الان قد وضع تحت نظر التحكيم، كل من شرف جلالتك، والتفويض

الذى جعل لي، وان كان هذا تافها بالنسبة الى ذلك الشرف، مع كونه عزيزا على نفسي (وجلالتك أعز بكثير) تلك الاعمال التي عهدت الى للقيام بها بين المغاربة، الذى رأوا بعد اختبار وتجربة عظيمة، أن لا شيء قد فعل من جهة اخرى، ولا شك انهم سيقولون (كما قال بعضهم بالفعل) اني ما أتيت الا لاسخر منهم burlar فان طاب لجلالتك (ان لم يكن ملائما المخاطرة بأحد أساطيلك على ذلك الساحل) أن تاذن بحملة تطوعية، من انجلترا وأسكتلندا، تضم ألفي جندى برى، وترسل الى الخارج، وتنضم الى رجال الحكومات العامة *للاراضي الواطئة، في هذه العهدة، لحفظ الملاحة والتصدير*، فان هذا سيكون في رغبة المغاربة انفسهم (والولي الاعظم، سيدى محمد العياشي، الذى قد أرسل أحدهم ليتداول في هذا الغرض، مع الاميرال بسلا، كما كتب ايضا بواسطتي الى السفير الجرماني هنا لاعلام الحكومات العامة) .

واني لا أشك ان الله قد قيض بالفعل، وعلى ذلك عدة شواهد، لهذه الاعمال التي أقوم بها لجلالتك، وأنه سينجز ايضا ذلك العمل الصالح، الذى بدأ بضعفي، كما وعد بقوله «لما أبتدىء فاني سأنهيء»، وساكون مستعدا للمخاطرة بنفسي كما كان ذلك قبل

وبعد فقد فعلت كل ما في طاقتي، وبذلت أقصى مسعاى هناك، في القيام بخدمات الله وجلالتك، كما عملت على عتق كثيرين من المساكين المسيحيين، رعايا جلالتك، وتخليصهم من الاسر (وجمعهم واقع في عهدتي، وعددهم نحو 200 شخص أعتقوا دفعة واحدة، واطلق سراحهم، وكنت قبل ان استطيع حملهم في السفن، قد خاطرت بنفسي أيضا في التصدير)

واني اتوسل بخضوع، لارفع لجلالتك، كامل التبجيل، الذى يحفظه الله، ويرعى مجلس مستشاريك المحترم وجميع الحكومة

خادم جلالتك

وعلى هذا التقرير الذى رفع الى الملك شرل، فقد حصلت مقابلة السفراء السلاويين من قبله، لكن النتائج لم تزد على رسالة سنراها، كما أن نتائج مقابلة العياشي لهرسون، لم تكن نتائج ايجابية كما تشهد بذلك الرسالتان اللتان تبودلتا بين العياشي المذكور والملك شرل، اذ كانت رسالته مفعمة بالشكر أكثر من غيره، وهذه رسالة شرل الى اهل سلا :

الى الحكام والقواد العظام

تلقينا رسائلكم وأذنا لسفرائكم بالمقابلة الرسمية، وقد سرنا كثيرا ما علمناه منهم، ومن خادمنا جون هرسون على السواء، مما صدر عن تبجيلكم لنا، فسرحتم عدة أسرى من رعايانا، الشيء الذى نشكركم عليه، وان الاسر والنهب مما وقع اخيرا على شعبنا في تلك الجهات، كان مخالفا للسلام المعقود بيننا قديما، وللصلات التى كانت بين ملوكنا وملوك افريقيا، ولهذا فقد كان سرورنا عظيما، عندما سمعنا ان اولئك القواد، او الحكام الذين كانوا مسئولين عن تلك الفوضى، قد عزلوا عن مناصبهم، وان الحكم الان قد استتب على أحسن ما يكون من الامان، وكذ لكم ما نامله منكم وننتظره من حصافتكم ونخوة شعبكم، فتكونون قد اصلحتم المختل من شئونكم

أما فيما يخص سلعنا وما يهم البلاد منها، فانه في اقصر وقت، ستستعاد تلك الثمرات القديمة، وتستغل الثروات الهامة، التي كانت الحروب وجور الحكام قد أفسدتها، ولهذا فاننا نامل لتجارتنا أن تسترد مكانتها القديمة تماما، فتتمتعون بثمراتها مرة أخرى، على أهدا حال وأزهره، فالتقدم والنجاح في ذلك هو مرغوبنا

وفيما يخص وعدكم لنا، فقد تلقينا ذلكم بترحاب، حيث ان رعايانا على مقتضاه، سواء كانوا هناك للاتجار ولغيره مما يتعلق بخدمتنا، سينالون التسهيلات ويتمتعون بالمعاملة الشريفة، ويضمنون الامان على اشخاصهم وسفنهم وسلعهم، في جميع الموانى والاقاليم، كما كان لهم ذلك في الايام الخالية، حيث كانوا يتمتعون في هناء، بما هو المعتاد بين الاصدقاء، فتوقعوا منا المثل من التواصل الحسن، والصداقة التي كانت معهودة بين أسلافنا في القديم، بين ملوك وملكات هذه المملكة وشعوب هذه البلاد، مما تودون أن يجدد عهده، وهو لم يزل مؤكدا من جانبنا

والذى استقر عليه عزمنا القوى، هو ما سيعبر عنه ممثلوكم، الذين قاموا بتمثيلهم خير قيام، وأدوا الامانة التي وضعتوها فيهم، فسيفضون اليكم بذلك في تفصيل وصدق وايمان، ونحن من وراء ذلك، سنمضي في الاعتناء بما يعنيكم، بواسطة خدامنا الذين يرسلون اليكم، من قبلنا، كلما اقتضى الحال ذلك

وأخيرا نامل أن تكونوا بخير وهناء

صدر من قصرنا الملكي، بوست منستر في 12 أكتوبر 1627

وبعد هـذه السفارة التي قـام بها ممثلان عـن حكومة سلا، كـانت سفارة اخـرى تتجـه الى انجلترا، وهرسون ما زال بها يمارس مهمة السفارة السالفة، وكـان موضوع هـذه الاخيرة شكوى تعرض على البلاط الانجليزى، بما نالهم مـن قـراصنة الانجليز في عـرض البحـر، وقد أشار الى ذلك هرسون فـي تقريره السالف، فكانت نتيجة هـذه الشكوى، بلاغـا اصدره شرل في السنـة التاليـة، اى سنة 1628 كمـا سنـرى

وقبل الاتيـان بذلك البلاغ، نعود الى سنة 1627، فنجـد هرسون فـي نهايـة هـذه السنة، يقـدم لملكـه تقـريرا آخـر في غايـة الاهميـة، وهـذه تـرجمـة ذلك التقـريـر :

لعلـه مما يطيب لجلالتك الشريفة، ان ينهى الى علمك النبيل، أنه بعـد وفـاة الملك الشيخ للمغرب، مولاى أحمد، الذى كان تحت سلطانه كل الممالك الثلاثـة، مراكش وفـاس وسوس، خلفه على مـراكش ولده مولاى زيـدان، الذى كنت قـد استخدمت لصاحب الجلالة المتوفي سفيرا اليه، حـول مصالـح التجار، ولتجـديد الصداقة القديمـة، ولتثبيت العلاقات التجاريـة، كما كنت موفـدا اليه لتقـديـم بعض المظـالم، التي وقعت بالحكومة التي حدثت آنذاك، خصوصا منها ما يتصل بمبلغ عظيم من المـال، كان قـد أخـذ من التجـار في الطريق الـواقـع بـين مراكش وآسفي، المدينة الساحليـة المـرفـاة، وذلك بواسطـة اليهودى الشنيع، بنواش Benwash (28) فحجـز ذلك المـال لصالـح الملك ومنفعتـه، مـدعيا أنهم حاولوا أن يخرجوا ذلك المـال عن مملكته، مخالفين أوامره الصادرة بمنعـه . وقـد قمت بالمهمة التي اسندت الى في هـذا الصـدد فـوعد الملك بـأنه سيعيـده، وأمضى تحت خط يـده جميـع العـدول (كمـا يسمونهم) بـأنه سيمنح الامتيازات التي كـان يتمتع بها التجار أيـام والـده، الـذى كانت لـه صلات مـع الملكة اليزابيث، كما كانت هذه الصلات عمومـا، بـين الشعبـين اللـذيـن ربطت بينهمـا صلـة عظيمـة وتجـارة كـذلك .

ولاجـل اقـرار هـذا الى اقصى حـد فانـه أرسل سفـيرا معي، برسائل الى صاحب الجلالة (29) ليؤكـد لجلالته ذلك القـرار، ولكنه لـم يمر وقت طويل حتى دوهمت مملكته، فطرد عـن عاصمته، بواسطة مغتصب للسلطـان، ظهـر فجأة، وهو مرابط أو قـديس كمـا يسمون هؤلاء، ويـدعي أبـو محلى كـان قـد جعل المغـاربة البسطـاء الايمـان (لانهـم مغفـولـون ويعتقـدون الخـرافات ويصدقونها، ومعظـم هـؤلاء الاولياء سحـرة فكـان هذا الـولي

يمنيهم بـأنـه يقوم باعظم الاعمال، ومن تلك الاعمال قنطرة ستقام له وللمغاربة على فم الضيق فيجتازون عليها لفتح اسبانيا مرة أخرى، وعكذا فـانه كان يحمل حملاته، وكـان هـؤلاء المغاربة على ذلك الاعتقاد، الى جانب ضلالات أخـرى كثيرة، بحيث انهم ـ قضاء وقـدرا ـ وفقوا في عـدة معارك، أمـا هو نفسه، فكـان رجـلا ذا عـزم خـارق للعادة، لـدرجـة أنـه على سبيل المثال، استطاع بجيشه الذي كان عـدده المـائات، أن يقهـر قوات الملك عـدة مرات، وكانت هـذه تعـد بالالاف، لمـا أرسلت الى قتاله، وأخيرا فـانه تمكـن مـن قهر الملك نفسه، في عـدة معارك جـرت بينهما امـام مـدينة مـراكش (30) . وبـذلك نال كثيرا مـن اعجاب الناس، ووجـه نحوه كثيرا من ذوي الافكـار المعتقدة فيه، بحيث ان الملك سرعـان ماكـان يلجـأ الى الفرار، فيركب البحـر من آسفي في سفينة الى سنتاكروز، ميناء في مملكـة سـوس، صوب الجنوب، وهناك احتمى بالحرمـة، كما يسمونها، أو ملجـأ ولي عظيـم آخـر، وهـو سيدي يحيى، فمكث في حمايتـه مطرودا خـارج مملكتـه زمنـا طويلا وبعـد سنـة أو سنتـين، كـان سيدي يحيى، مدفوعـا بأحقية الملك من ناحيـة، وبمباراة عظمة اولياء آخـرين مـن ناحيـة أخرى، ينهض فـي جيش قـوامه 60.000 ويزحف الى أبي محلى صوب مراكش، فسار أبو محلى هـذا بجيشه مسافة يوم للقائـه . وفي اتجاهه اليه انتهى الى نهر تنسفت، قريبا من مـراكش، ولم يلبث بجيشه الذي كان قـد نال منه العياء كثـيرا، بسبب سيره الطويـل، أن هجـم بثلاث مائـة مـن فرسانـه فقط، على جميع قوات عدوه، ثقـة منه بالفرص الحسنة السالفة، وصادرا عـن عزمـه المجـرد، فكـان اول رجـل أصيب في الموقعـة، فلمـا شاهد جيشه ذلك، سقط في ايديهم وانتهى كـل آمالهـم، وتيقنوا أن ماكـانوا ينتظرونه لـم يكن الا وهما وخيالا، فكان عندئـذ كـل رجـل منهـم يبحث عـن نجاته، ويحتال للخلاص بنفسـه(31) .

وبهـذا أعـاد سيدي يحيى للملك ملكه السالف، بيـد أنـه حمله أولا على أن يوقـع باسمه على بعض الشروط يلتزمها، وهي تقضي بأن يصلح حكمـه الجائر السالف، ويقصي عنه ذلك اليهودي السيء السمعة، بن واش، وآخرين من المقربيـن اليه، والذيـن قد ارتكبوا أخطـاء عظيمة وفظائع نالت الجميـع، سواء في ذلك المسلمون واليهود والنصارى، كما أوجبت عليه ان يقصي جميـع ولدانـه الذيـن كان يرتكب بهم جريمـة اللواط، مما يسمونه بينهم الخدمـة اللعينـة (32) الى جانب احتراسات أخـرى، قضت بها تلك الشروط، غير أن الملك وقـد رد اليه ملكـه آنذاك، اعتقـد أنـه قد أصبح الامـير المطلق، وأنـه لـن يكون مكبوتا مـن أحـد ولا محـدود التصرف، فانهمك مـرة أخـرى فـي

انحرافاته، بل أشنع مما كان عليه. بحيث أنه يوميا صارت الشكايات به تصل الى سيدى يحيى، وتشيع في البلاد، وتحمله عهدة اعادته الى ملكه، اذ كان السبب في استرداد مولاى زيدان ملكه مرة أخرى بينما كانت الحكومة الاخرى أكثر عدالة، وعلى حد أقصى من الاعتدال وبذلك جعلوا هذا الولي يغر صدره عليه ويصير عدوا له، فتحول من صديق الى عدو، وسرعان ما حمل السلاح في وجهه لخلعه عن ملكه بعد ما كان قد ساعده في استرداد ملكه، وقد اضطر مولاى زيدان عدة مرات للفرار من مراكش الى آسفي، وهناك حاصره الولي مدة ستة أيام، وقد حصن مولاى زيدان أسوار المدينة بالمدافع واعتدة أخرى، ويظن أنه قد دفن هناك كنوزه، التي كانت غاية في الثمانية، ودوهمت بسهولة. وعلى هذه الوضعية وبشروط توقف هذا الولي العظيم عن محاربة الملك طيلة أيام حياته بعد ذلك، وقد توفي الان (33) ويقال انه مات مسموما، بواسطة بعض رجال مولاى زيدان، الذي يواجه عداوة بقية الاولياء الآخرين بالمغرب، وقد ظل احد هؤلاء يداهمه فاضطر مرة اخرى الى اللجوء الى آسفي (34) وهو الآن بأن يكون مباغتا أشبه من ان يكون محصنا

وبعد ما أعيد مولاى زيدان الى ملكه، كنت قد استخدمت مرة أخرى من لدن صاحب الجلالة، المتوفي أخيرا، فبعثت اليه فيما يخص اعادة المال، ولتقديم شكاوى أخرى ومظالم، وقعت هناك على سفينة، تحطمت بعدة رجال انجليز، فأصبحوا في أسر الاسترقاق، بعد ما سلكوا في السلاسل، وكانوا يعاملون معاملة في منتهى القسوة، على نقيض ما يقضي به ميثاقه السالف ووعده، كما كان هناك فرنسيون تعرضوا لهذا، بسبب كتبه التي كان قد حملها سفينة فرنسية لتنقلها من آسفي الى سنتاكروز، بينما كان هو نفسه قد فر في سفينة أخرى، حينما هزمه أبو محلي، وكانت تلك السفينة قد سارت بكتبه فلما توسطت عرض البحر، أسرت بواسطة قرصان اسباني، وسيقت الى اسبانيا (35) فكتب مولاى زيدان في هذا الى حكام الاراضي الواطئة، ليتوسطوا مع ملك فرنسا في ارجاع كتبه وتخليصها من اسبانيا، وقد رغب مني ان احمل تلك الرسائل، وأن اعالج هذا الموضوع، (كما أنه رغب في أشياء اخرى من صاحب الجلالة، ملكنا، واعدا على ذلك بكل من اعادة المال المذكور، سلفا، وفك رقاب جميع الاسرى) وقد فعلت فذهبت أولا الى بلاد الاراضي الواطئة، ثم اتجهت الى فرنسا، حيث كنت بباريس وعدت منها ومعي رسائل ملك فرنسا، ورسائل الحكام المذكورين، وكذلك رسائل صاحب الجلالة اليه، وكلها تحمل أجوبة ملائمة حول جميع

تلك المهام، فوجدته قريبا من آسفي، متوقعا اتيان سيدي يحيى لمحاربته، فاستقبلت آنذاك باعظم ترحاب، واستغل وجودي استغلالا حسنا بأن أشاع أن ملك انجلترا (وان كان ذلك في الواقع بعض مهماتي من قبله) وملك فرنسا وحكام الاراضي الواطئة، قد قدموا له عونهم وأنالوه أيدهم بحيث انه بناء على هذا وعلى أسباب أخرى، راى الولي الا يتقدم أكثر نحوه في ذلك الحين، فلما رأى الملك نفسه قد استراح مرة أخرى بعث الى رسالة، وأنا بآسفي، ياذن لى فيها بالابحار، ولكن بدون اعادة المال ولا اطلاق سراح أحد من الاسرى، بالرغم من كونه على عودتي هذه، وعد بكل منهما، وانه سيكون مع شعبنا أحسن معاملة مما كان عليه أبوه، غير أنه في الواقع تكشف عن كونه أعظم عدو لنا، وانه قد ارتكب أعظم جرم وطغيان في حق شعبنا، وانه فرعون الثاني الذى لا يعرف يوسف، ومع هذا فما زال يقول، ان رجال الانجليز غير ماسورين، وان كانوا في الواقع مصفدين في السلاسل، التي غلت بها أعناقهم وقيدت بها أرجلهم، مع معاملة أخرى لا تطاق قساوة، والى جانب هؤلاء تجار سمهم ذلك اليهودى بن واش، واطلع الملك على ذلك، فاغتصبت أمتعتهم .

وعلى عودتي الى انجلترا، كما كان واجبي، أخبرت صاحب الجلالة بالجميع، ناصحا لجلالته أن يكتب له رسالة رابعة، يخاطبه فيها بلهجة أقوى، ويلزمه بوعده السالف، ويذكره بالمظالم الاخرى، ويستعلمه عما اذا كان سيلتزم حسن التعامل، ويحافظ على الصداقة السالفة، التي نشأت بين أسلافهما، ويتشبث بها أم لا ؟ .

فلما وصلت الى آسفي، فكنت به لرابع مرة آنذاك، كتبت اليه كما سلف، منتظرا منه الاذن بالنزول الى البر، لانه ليس معتادا ولا مامونا للاجنبي أن ينزل الى البر بدون ذلك ولكنه وقد أدرك أو شك في طبيعة سفارتي الان، لم يرسل الى اذنا ولا جوابا بالمرة، وعلى ذلك بقيت على ظهر السفينة كل أيام الشتاء، أتردد على ذلك الساحل، مرتفعا منحدرا، ومتنقلا من سفينة الى أخرى، وأخيرا كنت قد تجردت من كل أمل، على حين كانت هناك سفينة تركية، من ذلك الاسطول الذى اخذ تلك السنة لنزروط (36) قد أتت الى مرفا آسفي، حينما كنا به راسين، فرست قريبة منا، وكان هدفها أن تضربنا ليلا، في السفينة الريح عادة تهب من الساحل) فرميناهم بالقذائف التي تفجرت احداها بينهم، فأصابتهم اصابة عظيمة، أو أن الله بعنايته وحده رماهم تلك الرمية التي أصابت دقلهم الاعلى . وعلى هذا الحادث الذى

اذهلهم، وقعوا في اضطراب بينهم، واستمررنا نقذفهم من مدافعنا العظيمة، ففروا ناجين بأنفسهم تحت حماية الحصن . وفي تلك الليلة كان الاتراك وجميع من كان في السواحل : بعضهم خائفا وبعضهم لطلب الماء وأزودة أخرى يتزودن بها، ياذن لهم مولاي زيدان فوق ذلك في أخذ كثير من جنوده (مغاربة وغيرهم) الى ظهر السفينة كما يريدون، ليباغتونا، وكنا قد أدركنا من أصدقائنا الذين كانوا على الساحل هذا، كما ان بعضهم قد كتب بهذه الاساءة المرتكبة في حق صاحب الجلالة، تلك التي جعلتني انتظر مدة طويلة، بدون جواب، أو احترام، وعلى ذلك فقد سلحنا سفينتنا وزورقنا بالليل، ووجهنا السفينة من تحت الحصن، فاغتاظ مولاي زيدان عظيم اغتياظ، حيث حبط الاتراك في سعيهم، وبعد هذا سميت السفينة «تشرلس» (بعد لقب الجلالة «الاميره) وأتيت بها الى انجلترا، وقد أذن لتجارتنا باتخاذ القرصنة .

على هذا الوضع، انفصلت عن مولاي زيدان، بعد ما انتظرت أمدا طويلا، على ظهر السفينة، اغلب أيام السنة من قبل أن اعود الى انجلترا . وعلى عودتي تلك، قدمت لصاحب الجلالة، المتوفي تقريرا مفصلا، مما تقبله صاحب الجلالة شاكرا عليه كثيرا، وسلمه الى سيدي الدوق Lord Duke ثم الى مركيز بكنكهام Marquesse of Buckingham لحفظه

وبعد هذا، طاب لشرف صاحب الجلالة، ان يبعثني مرة أخرى الى مولاي زيدان، ليجدد صلحا آخر معه كما كان بعضهم سيفعل هذا لمجرد حسابه الخاص وقد فعل ذلك الصنيع مع صاحب الجلالة ورعاياه، مخلفا فيه كل الوعود، التي كان ينبغي انجازها بين الملوك والامراء، بل انه أسر الى بعضهم، بأنه ان كان قد حافظ على وعده، فانه بذلك سيكون شبيه المسيحيين، الذين يجتهد أن يكون مخالفا لهم في كل الامور، وان اليهودي بن واش كان قد اكد له منذ أمد طويل (فيما يخص الشكاوى بالاخطاء التي قد ارتكبت في حق الانجليز والنصارى الاخرين) أنه وان خنق الأب، فان الابن سياتي ويتعامل معه . أقول هذا فيما اذا كان لشرف صاحب الجلالة ونجاح خدماته ان يسعى مرة اخرى لابرام العلاقات مع مثل هذا الامير، وعلى تلك البنود التي تتنافى مع الشرف، وقد ارتكب كل المخالفات بجبروته وقساوته، ليكون عدوا سافرا له، (كما ان ابنه (37) أسوء منه) ولا جدوى لتثبيت علاقاته مع صاحب الجلالة وهو في الوقت نفسه باقصى الجنوب، ولا سلطان له على المضيق، ولا على هؤلاء الذين يحكمون في جميع هذه الجهات، والذين قد منحوا بدون قيد خدماتهم لصاحب

الجلالـة، كما تشهد بذلك رسائلهم العديدة، وتثبته حججهـم الاخـرى التي يمكـن الاستظهار بها، وقـد اطلقوا سراح جميـع رعايا صاحب الجلالة، راعين وعودهم التي أنجزوها في حينها، (مما تضايق منه كثيرا مولاى زيدان، كما أنهم سرحوا كثيرا من أطفال الانجليز، الذين صيروا بالاضطرار مسلمين، وهذا الذى فعلوه لـم يعهد أبدا من أهل الجزائر، ولا فعل في أى بلد آخـر من بلاد الممالك التركية بـل انهم قالوا انهم أنفسهم نصارى، فهؤلاء الموريسكوس هم الان حكام سلا، وفي النهايـة سيصبح الجميع نصارى) وأنا اشير الى البواعث القصوى في هـذا، ولكـن يبدو أن السير هنرى مرتن (38) سيتغلب ويعترض على هذا، وان كانوا سيتحولون الى مسيحيـين (كما هو أعظم الامـل فيهم) وبذلك فانهم لـن يوذن لهم، كما لا يوذن للقرصان ولا للاعداء، وان كـانوا سيصيرون أولا في صالح قصر أميراليتـه his Court of Admiralty انها عظيمة ديانا الافسيين (39)

وفيمـا يخص التعامـل مـع مولاى زيـدان، فـلا بـد أن يكـون هـؤلاء مختارين لتبجيل اليهودى بن واش ويجعلوه راضيا بنـاء على تاكيداتـه كما سلف، بحيث انـه وان كـان سيخنـق الاب، فـان الابن مـع هـذا سياتـي ليتعامـل معـه .

نعـم وانـه ليس كثيرا على شرف صاحب الجلالة، الذى هو أعظم أمـير، أن يرسل من اسطوله، حينمـا يكون في عـرض البحـر، خمسا أو ستا مـن السفن الجديدة الى ذلك الساحل، والى مرسى آسفي، ليحصل هناك مرة أخرى على التزامات أحسن في المطالبة برعايـاه والانتصاف في المظالم الاخرى، التي ذكـرت مـن قبل، والا فانهـا تنسف الحصن وتهدم أسـوار المدينـة، وهـذا يفعل بسهولة، ولاشك أنه سيحط من قدره، ويهد من كيانـه فيضطره لطلب الصلح، من تلك الايدى الاميريـة، التى غفرت له ولرعايـاه كثـيرا من الاساءات والاخطـاء، فان رغب في الصلح من صاحب الجلالة، فليجعـل يبعث في طلب ذلك، كما يفعل هـؤلاء السلاويون، مقدمين انفسهم الى مشيئة صاحب الجلالة بدون قيد ولا شرط، وأنهم في حالة الاسرى هذه قـد التزموا بـان يقدموا كـل الترضيات بعتق كل أسير استرق ويؤدوا ثمنـه لسيده، مهما بلـغ، كما ورد في بعض رسائلهم مما يمكن ابدؤه كمـا يـؤدوا ما يـربـو على خمسين الف دوكـة اسبـانيـة

وبمقتضى ذلك، ومقابل تلك الخدمات التـي عرضت، فـانهـم يلتمسـون بخضوع من صاحب الجلالة، أن يزودهم بأربعة عشر مدفعا نحـاسيا، وببعض

كميات من البارود والفشك، بل انهم على كل حال، يعرضون أنفسهم على مشيئة صاحب الجلالة .

لهذا فان طلب لصاحب الجلالة، أن يرسل لهم ستة مدافع، تكون أثنان منها حديدين، وثلاثة عشر برميلا من البارود ومقدارا من الفشك يتناسب مع هذا، فانهم سيشكرون جدا هذا الصنيع، ويطلقون سراح الجميع

نعم، انهم قد رجوني، مقابل المال العظيم الذى انفقوه، أن التمس من صاحب الجلالة، اثنين أو ثلاثة، زيادة عليها، مما أظن أنهم قد ذكروه في رسالتهم الى صاحب الجلالة، ولكن بما انه ـ كما يبدو ـ لن يكون ذلك، ولا يرجى حتى استقبال سفرائهم الذين أرسلوهم، وما زالوا في انتظارهم متولهم بين يدى صاحب الجلالة، وقد عرضوا أنفسهم عليه، فان رؤى أنه غير ملائم حصولهم على اكثر من تلك المدافع النحاسية، فان البارود والفشك هم في حاجة ماسة الى اكثر مما عندهم منه، ويرغبون في الحصول على مقدار يكون أعظم .

فعسى أن يكون صاحب الجلالة، ومجلس مستشاريه الموقر، يرون ملائما، وفي نظري وللصالح العام، أن يمنحوهم ما ليست له الاهمية العظمى، لافتداء اولئك الاشخاص العديدين، الى جانب الرجال الذين هم في خدمة الولاية « the State » ومعبئين جميع الشعب لخدمة صاحب الجلالة، فانه يكون من المعقول، أن يسعف هؤلاء المورسكوس، الزعيمون بتلك الوعود التي وعدوا . وفوق اطلاق سراح اولئك، وللمصالح الاخرى التي عالجوها، فان صاحب الجلالة، الذى هو اعظم أمير، لاشك انه سيعامل بالصدق والنبل، هؤلاء الذين بخضوع، أرفعهم الى النظر السامي .

واخيرا كانت قطعة من المدافع قد سرقها رجل انجليزى من حكام تطوان والان قد صدرت الاوامر بان ترد اليهم واذا رؤى انه من المناسب ان تضم الى ما سيرسل اليهم، فمن المستحسن أن تؤمن الطريق ببعض الحامية تفاديا لهذا ولبعض الاخطاء الاخرى التى كانت قد ارتكبت في هذا المكان الذى غالبا ما تضطر سفننا الانجليزية الى الرسو به، فيتخذ هذا الاحتياط جيدا (40) وهناك كان بعض الانجليز فيما مضى قد بيعوا بواسطة الاتراك الذين وقعوا في ايديهم اسرى هناك .

وان حكام تطوان هؤلاء قد عرضوا ايضا خدماتهم على صاحب الجلالة كما يبدو ذلك من رسائلهم وهاتان النقطتان تطوان وسلا (واحداهما داخل

المضيق والاخرى خارجه ونحـن الان نحـارب كـلا مـن الاسبان والفرنسيين) يجب رعايتهما كثيرا حيث ان سفننا يمكـن ان تمون نفسها مـن هناك بالماء والطعام وبعض المـواد الاخرى الضرورية في كل الاحـوال كما قد وعدوا بذلك

نعم : ان سلا ستمون سفن صاحب الجـلالـة في كـل احـوال الضيـق بحريـة وبدون مال نتيجـة لمـا قـد انتهيت اليه من التبصر في اقصى العواقب وليست هناك ايـة غايـة تخص مصلحـة لي ذاتية، لكنه واجبي ـ وقد وظفت مـن قبل صاحب الجلالة ـ يفرض علي ان اقـدم خدماتي الى صاحب الجلالة وأن أدعو الى الديانة المسيحية، قبـل أن أنظر الى مصالحي الشخصية. وأملي عظيم في ان يحقق ذلك . فاذا شفعت هاتان البدايتان الطيبتان ولم يعقهما مثل Sanballat فاني ساقوم بسعي وبتحقيق محاولتي على كل حـال .

والان فـانـي اقـدم الى صاحب الجـلالـة والى مجلس الشورى مجلس اللوردات الشريف تقـريـرا اضافيـا عن اعمالي هنا واكـون راغبا بعد رحلاتي الشاقـة ونفقاتي الباهضة في ان اعتزل بنفسي داعيـا لشؤونهم بالنجاح .

متـم سنـة 1627

لقـد مـات المولى زيدان، وشيعه هرسون في لنـدن بتقريره الـذى صب فيه عليه اللعنات، لانـه لـم يوفـق في مداولته معـه .

كان مولاى زيدان اول ملك سعدى استعمل في جيشه ضباطـا انجليـز، استعمالا اختياريا ومنظما، فلـم يأسر احـدا من هـؤلاء ولـم يقسره كما فعـل أخـوه محمد الشيخ . وكانوا يتقاضون منـه مرتبات عالية، ويتمتع بحبهـم واخلاصهم الى النهاية، وفيما يتصل بعلاقتـه مـع جمس، فقد اجتهد أن تكـون عـلاقـة ودية، ولكـن على أسـاس الاخـذ والعطاء، فكتب اليـه حـول ذلك واستقبل منه سفراءه . ولمـا احتاج الى ايـده وكان يواجه حـروبـا داخليـة وغزوات من الاسبان، كـان جمس يرقص على الحبل، ويميـل الى الاسبـان وخطب ودهم، ولا يميل الى زيدان الاريـاء وبشكل سلبي صرف. ولهـذا رجع مبعوث زيدان من انجلترا، بعـد ما اقـام بها نحو سنتين بخفي حنين كما يقال على أن زميلـه الذى توجـه الى هولندا، رجع منها بأسطول كان رهن الاشارة من زيدان لو أراد وخلال ذلك كتب زيدان الى جمس رسالة بتاريخ 1611/3/17 وفيها كما رأينا علق تلبية طلب جيمس على تلبية طلبه، الذى هو ارسال مـن يحسن قـذف القذائف المدفعية، ولكن جمس لم يفهم هـذا أو لـم يرد فهمـه،

والظاهر أن سفير زيدان أو سفراءه الى جمس لم يحصلوا حتى على مقابلته الرسمية، ولهذا فنحن لا نعثر على اى تقرير أو رسالة حول ذلك او ذكر له، الا فيما كتب بـه هرسون وحـده، وهو ما لم نعهده في السفراء السابقين او اللاحقين، ممن توجهوا الى انكلترا بـل اننا وجدنا هرسون وقد اصطبحهم معـه الى انجلترا، يتوجه الى الامير هنرى بن جيمس، ويتداول معه، تاركا السفراء في انتظار الى ان مات هـذا الامير يـوم سادس عشر نـونبـر من سنـة 1612 .

وكما تقدم فاننا في سنة 1615 وجدنا هرسون يحمل من ملكه رسالة أخرى الى زيدان، في لهجـة قويـة كـان الاحمق كان يكتب الى احد من خـدامه، ولـم يكن زيـدان قد أذن للسفير بالنزول الى البر . وربما كان زيدان قد علم سابقا، بمـا تنطوى عليه هـذه الرسالة، وذلك بواسطة سمويل بلاس، الـذى كان صديقا للسفير، فـأسر اليه هذا ـ ربمـا ـ بما تحتويه الرسالة، وعلى ذلك فقد عاد هرسون الى انجلترا كسير القلب، ونصح جيمس كما قال بتلك اللهجـة الطائشة، فكانت هذه آخـر فرصة في العلاقات بين المكلين والواقـع ان اغـراض الملكين كانت لها اتجاهات مختلفة، فالملك الانجليزى لم يكن يهمه الا تحقيق مطالب تجاره، وانصافهم في شكاويهم المزعومـة في معظمها، بينما الملك زيـدان كـان في حاجة ماسة الى التزويد الحربي بالعتاد، وبعض الرجـال الفنيين، ولم يكن يهمه هـذه العلاقـات التجاريـة بقدر ماكـان يهمه تحقيق أغـراضه الحربية، وهو يحارب أخاه وابن أخيه، كما كـان يحارب خوارج آخـرين خطيريـن .

وكان السفير جـون هرسون له مطامع أخـرى، اسفر عنها مـرارا في تلك التقارير الخيالية، التي كان يحلم بتحقيقها في هؤلاء الموريسكوس، وعلى أيديهم وفعلا خـدع بذلك السراب الذى تراءى له وكاد يخـدع بـه ملكه شرل، فلما جـاءه بعد لـم يجده شيئا ..

وعلى كل حال فانـه من قبل هـذا التاريخ بسنة، كان زيـدان قد بعث برسالة الى جيمس، مؤرخـة ب 24 نونبر سنة 1614 يعلمه فيها بورود جـون هـرسون عليـه، حاملا رسالـة منـه، وانـه حمله رسالة شفـويـة اليـه، راجيـا أن يصغى الى مضمونها (41) ولكن جمس لم يلب طلبا، وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخـرى . وبعـد عشر سنوات، وقد توفي جمس وتولى ابنه شرل، نجد هـرسون يعود الى المغرب، ليلعب دورا آخـر مـع زيدان، ولـما لم يجد منـه استجابـة، توجـه الى آخـرين يدبر معهم المـؤامرات ضد زيدان ـ كما رأينا ـ

بعد ما توجه الى تطوان التي كانت خارجة عن حكم زيدان وتابعه لفاس، وسلم لقدميها رسائل من شرل، ثم كتب الى زيدان بتلك الطريقة الجافة التي لم يجب عنها زيدان الا بالاهمال المطلق .

وفي هذه الاثناء نجد زيدان، يزج بكثير من الانجليز في السجن، لاعلى سبيل القرصنة التي تتبعها العبودية، كما كان متبعا بين الانجليز واهل سلا، وانما نال هؤلاء بما نالهم، فسجنهم، لانهم كانوا يتعاملون مع الثوار الخارجين عليه والمحاربين اياه، فيجلبون اليهم المعدات الحربية، ويتاجرون معهم، ويقطعون السبيل على زيدان، فلا يصل اليه الذهب الذى كان ياتيه من السودان، حاملين ذلك الى الخارج، فكان بذلك يسجنهم .

وعلى كل حال فانه في هذه السنة، وصلت الى حكام سلا، رسالة من شرل، بعد ما أذعن لاستقبال سفرائهم ـ كما سلف ـ ثم تلا ذلك .

بلاغ أصدره شرل، في السنة التالية، فأعلن فيه ارادته نحو مواطني الجزائر وتونس وسلا وتطوان وترجمة نصه كالاتي :

حيث ان الشكاوى العديدة قد وصلت الينا اخيرا من سكان الجزائر وتونس وسلا وتطوان والبلاد التى هى تحت الحكومات السالفة بتلك الاخطاء المتنوعة العظيمة التى وقعت عليهم من جانب رعايانا في البحر والتي لو كانت حصلت فانها تخاف رعايتنا الملكية ـ صادرة بدون اى تفويض من جانبنا ـ ولهذا قد تناولنا ذلك بتبصرنا الأميرى متهمين جيدا بحسن المعاملة لهؤلاء الذين لهم تعامل تجارى مع رعايانا او سيكون لهم تبادل ـ على وجه الاحسان والسلام ـ مع تجارنا الرعايا في تلك النواحي وذلك برغبة من حضرتنا الخاصة .

فليعمل بهذا المنشور الصادر عن مشيئتنا الملكية وبهذا التفويض المطلق نامر كل رعايانا المستجيبين الى ذلك ان يلتزموه على كل حال وبكل صدق وان يسلكوا كل طريق يوصل الى تلك المصلحة بحيث انهم يمتنعون من الان فصاعدا عن كل عمل من اعمال العدوان او ان يبدوا اية قسوة او معاملة سيئة في حق اى شخص من الاشخاص او اية سفينة من السفن او البضاعة التى تتعلق او ستتعلق بالجزائر او تونس او تطوان او سلا او اية ميناء اخرى او ناحية من الاقطار التي هي تحت نفس الحكم وانهم سيجيبون بعكس ما كان عليه الحال عند اخطارهم ومن خالف فانه يستهدف لسخطنا

العالي الشان والعقوبات العظيمة بواسطة قانوننا الذى سيطبق على كل مخالف او متهاون او مهمل في هذا .

صدر بقصرنا في Whithall في الثاني والعشرين من اكتوبر (أو 1 نفنبر 1628)

وهذا البلاغ لم تكن له، ولا لمنشورات اخرى صدرت بعده، نتيجة ايجابية فيما يتصل بسلا، أما ما يتصل بتطوان، التي كانت تواجه نفس المشكل، فان القبطان «جلس بين» Giles Pen استطاع أن يجد حلا له، وأن يضع حدا للاعتداءات التي كان قرصان الانجليز يرتكبونها، وبذلك أصبح شخصية الاتصال، بين عبد الله النقسيس وشرل الاول، وراجت بينهما رسائل ودية ومن تلك هذه الرسالة التي كتبها النقسيس لشرل، وبعثها مع القبطان المذكور يقول فيها : بعد «الحمد لله وحده» (42)

بناء على المعلومات التي تلقيتها من رسالة القبطان جون هرسون، خادم جلالتكم، فقد أصبحت مدينا لكم بالشكر، داعيا لجلالتكم بالصحة، أعواما طويلة

وفيما يخص موضوع الصلات الطيبة لهذا الثغر تجاه رعايا جلالتكم، فاني ليس لي ما أقول، الا ما يشهد به لي القبطان جلس بين، الذى سيدلي به كشاهد عيان

وقد أرسلنا معه هدايا لجلالتكم، وهي عبارة عن صقور أحب أنها ستنال قبولا حسنا في تلك المملكة، وان القبطان المذكور جلس بين سيقدم لجلالتكم الحقيقة لهذا ولاشياء أخرى، باعثين تاكيدنا الى جلالتكم بالصداقة

فامروني بما ترغبونه في كثير من الاشياء، مما يسر جلالتكم، الله يديم عزها

تطوان 30 ينيه 1629

(امضاء) وكتب عبد الله بن أحمد النقسيس لطف الله به

فاجاب شرل عليها، بما يلي :

من شرل الذى هو بفضل الله ملك برطنيا العظمى وفرنسا وايرلندا وحامي الدين المسيحي

الى السيد الرفيع الشان العظيم، سيدي عبد الله النقيس، حاكم تطوان أحييكم

وبعد فقد تلقينا رسالتكم من خادمنا جلس بين، وتسلمنا منه بعض الصقور أرسلتها الينا معه، وقد وجهناه اليكم مرة أخرى مع تشكرنا عليها آملين أن تتفضلوا عليه، بسماحكم له أن يجلب لنا من هناكم صقورا أخرى، وأفراسا من أحسن الاصول وأجود الاجناس عندكم

وانه سيفضي اليكم باسمنا، فيما نرجو أنكم على استعداد لتمكنوه منه تحقيقا لرغباتنا.

وحيث ان خادمنا المذكور، قد أطلعنا على العلاقة الحسنة والمعاملة التجارية المرضية، التي يجدها رعايانا في ثغركم هناك، فنحن لاجل ذلك ولما ابديتموه من تقدير نحونا، نوجه اليكم تشكراتنا الملكية، راغبين في استمرار وتنمية تلك العلاقات الطيبة، التي نشأت معكم قديما، مؤكيدين لكم أن كل ما تامرون به من سلع، مهما كانت في أية ناحية من نواحي مملكتنا، فهي عند أمركم

واخيرا، فاننا قد أصدرنا الاوامر الى تجارنا وأذنا لهم في التردد على مرفاكم المذكور ومدينتكم بسلعهم، وأن يزاولوا هناك تجارتهم، ما داموا يجدون عندكم أسواقا ملائمة لتجارتهم، ومعاملة حسنة لاشخاصهم، مما لا نشك فيه أدنى شك

وعلى كل، فاننا أيضا ندع الكتابة اليكم، فيما بعثنا به خادمنا المذكور، جلس بين، فيعقد معكم باسمنا اتفاقا بيننا . وقد مكناه من تلك السلطة والتفويض في ذلك، فنامل منكم أن تعتمدوا عليه تمام الاعتماد، وأن تضعوا فيه ثقتكم

صدر تحت خاتمنا وبامضاء يدنا في قصرنا الشريف، في اليوم ... من أكتوبر من السنة الخامسة من ملكنا

وهذا التاريخ يوافق سنة 1629، ولا شك أنه كان في أواخرها، وفي السنة التالية، نجد سفارة أخرى يقوم بها جون هرسون، حاملا معه رسالة من شرل الى الملك، مولاى عبد الملك بن زيدان، وأخرى الى حكام سلا، وثالثة الى علي بن موسى، مرابط السوس وعلى قدومه لسلا في الثامن من

ابريل، وجد «الهور تتشيروس» (43) في منتهى الشجار مع اندلسي سلا، فاستطاع أن يعقد صلحا بينهما، بواسطة محمد العياشي، الذى حضر الى سلا للاجتماع به، بعد ماكان قد بعث برسالة اليه يذكره بالمشروع السالف لسنة 1627 ولما كان شرل قد رفضه، فان هرسون اتصل في شانه، بحكام الولايات العامة لهولندا .

ثم توجه هرسون الى آسفي، حيث بعث رسالة شرل الى عبد الملك، واستمر في طريقه الى اكدير، حيث أرسل الرسالة الاخرى الى علي بن موسى، الذى كان يسيطر على جميع جنوب المغرب الى السنكال، معترفا به كمالك وكان مولاى زيدان قد اشترى منه أكدير كما تقدم وبذلك يكون قد اعترف به ضمنيا كملك، وقد اصبح الانجليز، مهتمين به غاية الاهتمام، خصوصا التجار منهم، لانه استولى على كل الذهب الذى كان يجلب الى السعديين فيما قبل، وبذلك كانت النتيجة أن معظم التجارة الانجليزية توجهت أنظارهم الى هذه الجهات التى كان يسيطر عليها .

وليس بيدنا نص الرسالة التي ارسلت الى علي بن أحمد بن موسى، ولكن الجواب عنها كان كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم الله يحق الحق ويبطل الباطل

(العلامة)

من المقام العلي الاسنا ذى المجد الكامل الانمى الهمام المعظم غوث الانام وزين الايام وعلم الاعلام ورافع راية الاسلام المرابط نجل ولي الله تعالى الامام الكامل امام الطريقة الجامع بين الشريعة والحقيقة ابي العباس القطب الحافل السيد احمد بن موسى برد الله ضريحه ووالى عليه جزيل رضوانه ابو الحسن السيد علي بن محمد اعلا الله قدره وأيده وأبقاه دعامة الاسلام وسدده بمنه وكرمه كاتبا به الى التشرلس بن جمس عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد بلغ مكتوبكم لمقامنا العلي مقتضيا شكر صنعنا لاسارى اصحابكم الخارجين بهذه الناحية حيث مننا عليهم بالاطلاق من الاسر فقد وقع منا ذلك رعاية لمصلحة الاسلام ليلا يبقى في جميع عملكم أسير مسلم الا وأخرجتموه لبلاد الاسلام سواء كان من أهل قطرنا او من غيره من أقطار الاسلام وكذا من كان خارجا عن حكمكم

ووجدتم الى استخلاصه سبيلا فان وفيتم بذلك فقد أمناكم في اموالكم ودمائكم على نحو العهد الواقع بين بعض من تقدم من أمراء الاسلام وبينكم فقد جددنا لكم العهد على ذلك فلا يبقى لدينا من قبائل انكليز أسير ما دمتم باقين على الوفاء بالعهد باذلين في ذلك الجهد لثماني ليال خلون من شهر صفر عام أربعين والف من الهجرة النبوية .

وهذا التاريخ يقابل السادس عشر من شتنبر سنة 1630 . وأسلوب الرسالة يذكرنا بتلك اللهجة التي كانت عليها رسائل الاسلام في عزته وبساطة اصحابه . وقد كان أبو الحسن المرابط هذا في تلك العزة والبساطة، فلم يسم نفسه ملكا، بالرغم مما كان يتوفر عليه من أسباب الملك وقوة السلطان، في تلك الاصقاع النائية المنيعة .

وقد لاحظنا ان اطلاق سراح الاسرى لم يكن له مقابل الا اطلاق سراح اخوانهم المسلمين، مغاربة كانوا أم غير مغاربة .

وفيما عدا هذا لم يكن لهذا المرابط من مصالح تملي عليه ربط صلات على هذا النحو من الصلات الخارجية، وهو مخالف لما وجدناه عند المرابط العياشي، ولما سنجده عند الدلائي، من تلك الدواعي العديدة، وان كان الانجليز من ناحيتهم أصبحوا ـ كما قلنا ـ على اهتمام كبير بهذا الصقع الذي كان يحكمه المرابط السوسي .

ومن هذه الرسالة ايضا نفهم انه كان هناك بعض الاتصال، بين هذا المرابط وبين وكيل انجليزي، وكذلك يفهم من هرسون انه لم يستطع الوصول الى ولايته، واكتفى بان أرسل اليه الرسالة

ولما عاد الى الرباط اجتمع بأهاليه واصغى الى شكاويهم ضد القرصان الانجليز، فسلمه حاكمها رسالتين الى شرل، واحدة كانت كجواب لرسالته، والاخرى كانت حول الشكوى المذكورة .

وقد ورد في الرسالة الاولى المؤرخة بعشرين مايه سنة 1630، جوابا عن التي وردت بتاريخ 21 يناير سنة 1628 المتعلقة بالتجارة في المغرب، شكر الملك على ماذكر من اهداف نافعة، في منشوره المذكور. ويظهر من الجواب نفسه أن شرل حاول أن يسترد المدافع بدعوى اصلاحها. فاجابوا بانه لا لزوم لذلك حيث انه يوجد بالبلاد من يقوم باصلاحها : بل ان هناك معلما يصنعها من جديد .

وأما الرسالة الثانية، وهي مؤرخة بـ 8 غشت سنة 1630، فقد أشارت الى ان القرصان الانجليز، صاروا يستولون على ما تحمل سفنهم من بضائع، ويستعبدون رجالها، ولهذا فانهم يطلبون الانصاف منهم .

وهكذا عاد هرسون الى انجلترا، واعدا اياهم بان الملك سينتصف لهم، وأنه سيرجع اليهم بذلك في مدة لا تتجاوز أربعة أشهر، فوصل الى انجلترا يوم 24 من سبتنبر، سنة 1630، وقدم الى شرل تقريرا عن وضع محمد العياشي، وما يتصل باحتلال المعمورة، كما سلم اليه رسالتي سلا، وطبعا ان مسالة احتلال المعمورة لم يكن لها صدى، بينما كانت المفاوضة جارية مع الاسبان في شأن عقد صلح معهم فكان على هرسون أن يفهم جيدا هذا الوضع من ذى قبل، ولكنه تحت تاثير التحمس لهذا المشروع، تجاهل أو نسي هذه القضية، فقدم نفس هذا المشروع الى الولايات العامة بتاريخ 26 مارس سنة 1631

اما ما يتصل بوعده لمورسكوس سلا، فانه لم يستطع انجازه ايضا، وحيل بينه وبين ذلك، بينما كان حاكم قصبة سلا قد بعث اليه برسالة يذكره بوعده السالف .

وفي اقامة جون هرسون بانجلترا كتب ثلاث مذكرات حول المغرب، اثنتان منها مؤرختان بـ 8 اكتوبر سنة 1630، قدمتا الى شرل، واحداهما كانت كتقرير لسبع رحلات له الى المغرب، وفيها وصف المغرب، خصوصا سلا ومراكش منه حيث كان في الاولى هؤلاء المورسكوس يعانون القرصنة مع الانجليز، وحيث كان في الثانية هؤلاء الانجليز الذين زج بهم في السجن والاهم منهما هذه التى تطلعنا على السبب الذى جعل جون هرسون يبعث برسالة سيده الى عبد الملك، بدلا من أن يسلمها اليه شخصيا، ذلك أنه تذكر ماكان عليه زيدان من عداوة نحوه، وقد نصح أن يتحامى كونه «في يدى عبد الملك» لما قيل له انه أسوأ من أبيه، وان المور، يسمونه «الملك الاحمق»

والاخرى كانت حول المعمورة وما لها من اهمية في المغرب، بالنسبة الى الانجليز، سواء منهم التجار والبحارة، ولهذا فان استطاع الانجليز ان يحتلوها فانهم سيحصلون بها على كل ثروات فاس .

وهذه الاخيرة مؤرخة بـ 25 يليه سنة 1631، وكانت قد قدمت الى المجلس الاستشارى، وكانت أيضا كتقرير حول المغرب، عموما منذ وفاة المنصور الى هذه السنة، شارحا لهذا المجلس، الحالة السيئة الذى كانت عليها البلاد، وما كان يقاسيه اسرى الانجليز، من عذاب الاسر وأنواع الشقاء هناك

وهذه ترجمة المذكرة الاولى في نصها :

الى صاحب الجلالة العظمى الملك،

فهذا تقرير حول سفارتي الاخيرة، التي قمت بها لجلالتك في المغرب، وكان سفري يوم 4 مارس سنة 1629 أما سفارتي لاول مرة، وكانت قبل هذه مباشرة، فقد حصلت على توجيه الحملة الكبرى نحو قادس، حول تلك العروض المعلومة لجلالتك، وللمجلس الاستشاري الموقر، ثم كانت هذه الثانية، حول افتداء رعايا جلالتك الذين اسروا بسلا، واقرار السلام وتثبيت العلائق الا تجارية مع أهلها، كما كانت عندي تعليمات، ممهورة بخط يد جلالتك الملكية، في شأن استمرار المفاوضة في تلك العروض، وقد قمت بكلتا الخدمتين وقدمت لجلالتك وللمجلس الموقر تقريرا حول كل منها

الا أنه بالرغم من تلك الاتفاقية المبرمة، فقد ارتكبت عدة أخطاء، في حق أهل سلا، ارتكبها رجال سفننا في عرض البحار، فأسروا رجالهم وألقوا بهم من على السفن، كما انتزعوا منهم أمتعتهم وأموالهم مما جعل أهل سلا يجأرون بشكواهم، فيبعثون بعثتين بها، الاولى بممثلين ثم الثانية بممثلين آخرين، فكانت الواحدة تلو الاخرى، تحمل الشكاوى لتقدمها لجلالتك، وقد وجهوا تينك البعثتين الي، باعتبار أن الصلح كان قد انعقد معهم بواسطتي، فرؤي أن أسعى جيدا في هذا الغرض، وقد وفيت بعهدته أيضا، حسب توجيهات جلالتك، فصدر الامر لدا the Counsell Table بذلك البلاغ الذي نشر، باحسن عناية ورعاية يقتضيها ذلك الصلح المعقود بيننا، فقضى بحظر ارتكاب تلك المظالم فيما بعد، وفي نفس الوقت امرت جلالتكم، بتحرير رسائل التطمين والتصديق، لتسلم بواسطتي اليهم، وهي تتكفل بالترضيات في هذا الصدد، وتعدهم بالانتصاف لهم في ذلك الاعتداء الذي وقع عليهم، كما سلمت الي تلك الرسائل الموجهة الى الملك، مولاي عبد الملك، وذلك في اعتاق رعايا جلالتك الذين بقوا في قيد رقه ..

غير أنه لفقد الوسائل، ولعدم أداء ديني السالف، الذي ماطلت به مدة طويلة، حتى اضطررت أخيرا للحجز على بيتي ومتاعي، وكنت شخصيا قد تعرضت لخطر توقيفي عن الذهاب خارجا، بدون وسيلة لي، الا بما زودني به أصدقائي كذلك، فازاء هذا الاضطرار، لم يكن هناك قانون يحمي من هذه المتاعب، لولا أن تاجرا شجعني (وكان أحد أولئك الاسرى العديدين الذين خلصتهم من سلا واصطحبتهم من هناك معي) اذا كان آنذاك ملتحقا بسفينة من لندن تدعى the Consull فشجعني على القيام بهذه المهمة، واعدا اياى بأني ان سافرت معه، فسأكون مستريحا اليه والى سفينته معا،

فعزمت هــذه المرة على الاتيان الى سواحل المغــرب لاقوم بتلك الخــدمة التي كانت علي نحو جلالتك، وكان القيام بها يفرض على التنقل فيــه مــن جهــة الى أخــرى ..

وهكذا، وأنا مطمئن الى ذلك التشجيــع، شرعت في رحلتي، يــوم الخميس الرابــع مــن مــارس، ففصلت من لنــدن متوجها الى كــرفسند Gravesend «ومن هناك الى» دونس Downes وفجأة غيرنا الاتجــاه، حيث كانت السفينــة قــد جــرت الى موضع واطئ، اتقــاء الرياح (45) ولــما خلصت الى «دونس»، الفيت سفينة مــع اخرين متوجهة الى المضيــق، وكانت تنتظر فقط هبــوب الرياح الملائمــة. وكان هناك مبعوث من ولايات الاراضي الواطئة. وكان هــذا قــد وصل أخــيرا قاصدا الى المغرب، فلمــا سمع بكوني هناك، خف نحــوى راغبا مني في الحاح شديد أن يصحبني، قائلا ان ذلك سيمكنه من القيام بأعظم عمــل، وكان سيعرج في ركوبــه على «بليموث» حيث كان في انتظــاره ثــلاث سفن للولايات العامة، تقل رجالا اخــرين كانوا سيلتحقون بالوفــد الذى كــان في صحبته، وكانت تلك السفن قاصدة أولا الى سلا ثــم الى آسفي، وبعد ذلك الى الجزائر وتونس، فــأرسل في الحال عن طريق البر الى «بليموث» بابحار السفن التى تقل أولئك الرجال الى سلا، حيث يلتقي بهــم هناك ...

فلما كانت الرياح الملائمة تهب ليلا، فوجئت أيضا، بدعوة مبعوث الولايات العامــة للتاهب للذهاب الى السفينة بقصد الابحار، فاستأجرنا قاربين بيننا، وانتهينا الى السفينة التى كانت تستعد للاقلاع، ولكننا امسكناها، غير شاكين في كوني وصديقى سنستقبل على ظهر السفينة بترحاب، بيد ان التاجر المذكور لــم يــرد أن يأذن لــه بالاتيــان الى ظهر السفينة، ولا سمــح لــي الا بخــادم واحــد، فعاد على أعقابه كل مــن المبعوث، مع أعظم خــزى، ورجلين من رفقتي، كانا قــد اتيــا أخيرا في سفينة اخرى، فهرع مبعوث الولايات الى التوجه الى «بليموث» ذلك الرجل الذى كان ينبغي لذلك التاجر الكنود أن يرعى معاملتــه الحسنة جدا فينقله الى سلا . فان لــم يكن ذلك مراعاة لي، كوكيل لجلالتك، فليكن للولايات، متذكــرا أن سفــن الولايــات، لم يكــن قــد مضى عليها وقت طويل، حينما كانت، بناء على طلبى، ومراعــاة لجلالتك، تحمل عليها كــلا منه ومن زملائه الاخرين الاسرى، من سلا الى انجلترا، ولولاهــا لكانــوا سيظلون هنــاك، لعــدم وجــود السفن التى تقلهم آنــذاك ...

وهكــذا كانت أول خدماتي في هذا ، وبعــد انفصالنا عــن «دونس» التي استدبرناها أولا، محاذين الساحل على طوله، فاحتملتنا الرياح وقتا قصيرا، ثــم

كنا مضطرين للرسو عند تربي Tarbaye الى جانب درتموث Dartmouth ليلة واحدة، وفي الصباح التالي، اقلعنا مرة أخرى مع رياح عاصفة خفيفة، لم تتركنا طيلة عشرة أيام، انتهينا بعدها الى الساحل المغربي، انها نفس الهبة (وأنا متأكد أن الله نفسه) فان الرحلة السالفة من نفس المكان «درتموث» لم تستغرق بنفس الهبة الا سبعة نهر وثمان ليال، كما كانت الرحلة الاخرى من قبل، قد استغرقت تسعة أيام، من «دونس» الى مضيق جبل طارق، حيث اتجهنا من هناك الى تطوان، ثم اننا لما انتهينا الى سلا، وكان يوم 29، ألفيت أهل سلا كلهم في هرج ومرج، سواء في ذلك أهل القصبة والرباط، أو المدينة، اذ كانوا في شقاق أهلي، نشب بين المدينة والقصبة، فقد احتفظ بهذه وتمكن منها الهورنتشيروس the Hornacheros الذين كانوا حديثي العهد بطردهم من اسبانيا، على حين كانت المدينة بيد الاندلسيين (الذين يدعون عموما بالموريسكوس) ثم نزح اليها هؤلاء من جميع الجهات، سواء فيها تركيا والمغرب، حيث كانوا قد لجؤا بعد طردهم، فانتشروا في البلاد جماعات كاليهود . وعلى كل حال، فان أندلسيي المدينة كانوا أكثر عددا من أولئك، الذين ناهضوهم بجماعة متكافئة منهم تشاطرهم القصبة، وتشاركهم في الحكم، وفي رسوم الجمرك، وفي مصالح وامتيازات أخرى، بدعوى أنهم أصحاب القصبة، على الحقيقة، وأنهم الذين ارسلوا اليهم ليأتوها فيعمروها منذ ذلك الوقت، وهم يتحملون معهم قسطهم في كل مهام المدينة، مهما كانت تلك المهام، وبذلك فقد طلبوا خمسين من رؤساء قواد القصبة، ليأتوا ويساكنوهم في المدينة، وخمسين من قواد المدينة، ليصعدوا الى القصبة ويساكنوا فيها الباقين، على أن يكون لهم قائد أو حاكم منهم بالمدينة، التي كان أصحاب القصبة، أول المتملكين والمحافظين عليها من ذي قبل، ولم يريدوا أن يستغلوا لهم شيئا، بل ظنوا أنهم قد ساقوا المدينة جميعها الى سلطتهم والى قبضتهم، وكانوا قد حصلوا على جميع المدافع العظيمة، فاستمروا – في هذا النزاع – يقذفون بها المدينة ويصيبونها، ولكن لم يحدثوا بها أضرار عظيمة، لان دور المدينة، كانت جدرانها مبنية بالطين وحده : تراب مخلوط بالجير : فكانت القذائف بذلك تنفذ فيها بدون تهديمها، ولم يكن لاهل المدينة الا مدفع صغير، رموهم به فأحدث أيضا أضرارا ضئيلة، وفي قذفهم للسفن، كانت القذايف تعدوها الى المدينة القديمة، سلا العتيقة، المقامة على الجانب الاخر من النهر، فكان على القصبة آنذاك أن تتحالف معها، فتزودها بالمؤن والسلع، بحيث انهم أرسلوا اليهم كل أفراسهم، والى جانب ذلك، طلبوا منهم عددا من فرسانهم، ليقدموا عليهم، فكانوا غالبا

ما يعدون عند الرقارق فوق النهر، ثم كبسوا المدينة، وأغاروا على مواشيها فاستلبوها، وانتزعوا ذخائر أخرى من أهلها ...

وهكذا، فقد وجدتهم في هيجان، كما سلف، فكانوا في حرب أهلية، على نحو ما كانوا عليه بزمن طويل، فجددوا ذلك العداء مرة أخرى آنذاك

وعند وصولي اليهم، أعلن أني أتيت برسائل جلالتك، فشاع الفرح والسرور في كل من أهل القصبة وأهل المدينة، وقد أعلنوا عن هذا الفرح العظيم بأن أطلقوا نار مدافعهم من القصبة، عند نزولي الى البر، وتوقف تماما قذف المدينة منها، خوفا من اصابتي أو اصابة أحد من رفقائي، على حين انهم توجهوا الى جميع سفنهم، ونزل الحكام ورؤساء القصبة الى شاطىء النهر ليستقبلوني وبعد ذلك تقدموا بي الى الديوان، حيث تلقوا رسائل جلالتك بأعظم تبجيل، ثم أتوا بي الى مثواي، الذى كان قد أثثوه بأحسن الاثاث، كما زودوه وجهزوه، وأعد لي طعامي كذلك، وكل ما يلزمني خلال المدة التي قضيتها هناك

وفي خلال هذه الايام، وصلت ثلاث سفن من الولايات العامة، تحمل أعضاء البعثة التي سبق ذكرها، فتوجهوا في الحال الى الشاطىء، مصطحبين معهم، نائبا كان قد أرسل قبل من سلا الى الولايات (46)، فقضوا هناك بضعة أيام، ثم عادوا الى سفنهم في وجهتهم الى آسفي .

لقد نزلت الى البر بين عدوتين مقاتلين، وفي الوقت نفسه نزلت بين صديقين لي محبين جدا لجلالتك ورعاياك، فحضر في ذهني (وبصفة جزئية فان حضوري كان مرغوبا فيه من بعض الرؤساء، في كل من القصبة والمدينة، الذين يفضلون السلام عموما، وان كانوا كلهم على العموم، أصحاب تلك الحرب الاهلية) أن اكتب رسالة الى الولي الاعظم، سيدي محمد العياشي، لابعثه حيث يزعم جميع هؤلاء الاولياء أنهم رجال السلام) على القدوم لابرام الصلح، ولكن بما أنه كان على مسافة بعيدة مرابطا على طنجة، الواقعة على مضيق جبل طارق، حيث كان في محلته يحارب الاسبان، الذين هم العدو اللدود له، ولا أعظم منه صداقة لسلا . وقبل أن ياتي منه جواب، كان القبطان جون (47) قد وصل من تونس، وهو أميرال سلا، فانتهى الى سلا حديثا، وقد عاد من مكة في حجة لزيارة قبر محمد، وكان في رفقته مغاربة آخرون، فانعقد الصلح بواسطته، على اثر قدومه حديثا، وكان الوقت آنذاك عيدهم بعد رمضان، فحصل الاتفاق على أن يعين قائد المدينة منهم،

بشرط أن يستمر مقيما بالقصبة، كما أنهم يختارون ثمانية اشخاص، زيادة على ثمانية اخر يضاف هؤلاء لمن بالقصبة، فيشكلون هيئة الديوان، أو مجلس الدولة، بستة عشر عضوا، ثمانية عن المدينة وثمانية عن القصبة، ولكن على أن يكونوا جميعا مقيمين بالقصبة مع القائد المذكور، ويشتركون جميعا على السوية، في الحكم، وفي امتيازات أخرى، فتكون سياستهم كأنها صادرة عن شخص واحد، وفي الواقع كان هذا التعديل صادرا عن أمر ذلك الولي، الذى تعهد كلا الطرفين أن يقف عند أمره، من قبل سلفا، وأنه ان خرق هذه الهدنة أحد الطرفين، فانه ينبذ اليه فيصبح عدوا له أيضا، فيسلط عليهم الاعراب، او أهل البادية، فينهبون متاعهم وهذا يمكنه بسهولة فعله، لانه قريب الاتصال بهم، وهم دائما متربصون للفرص ينتهزونها، حينما تسنح لهم في مثل هذه الانشقاقات، ليجددوا فيها ذلك النهب مرة بعد أخرى، خصوصا ان الحكومة الشرعية أصبحت منحلة فاشلة، وربما ستكون هذه، التي قال فيها الحق نفسه (ان المملكة أو المدينة المنشقة على نفسها، لايمكن أن تقوم لها قائمة)، كما قلت لاهل سلا، وآمل أن يراعوا على مقتضاه

وعلى هذا عقد الصلح بين المغاربة، كما عقد الصلح بين بعض تجارنا الانجليز الذين كانوا متشاحنين متنابذين الواحد منهم ضد الاخر، ولولا هذا لكانوا سيرفعون قضيتهم أمام قضاة المغاربة، فقلت لهم انه لمخجل جدا ويكون فضيحة منكرة لعقيدتنا ومخالفا لاوامر الرسول، او بالاحرى للوصايا العشر «أن يتجاسر احدكم، يكون له قضية على الاخر، فيتجه في ذلك الى شريعة مخالفة للعدالة،، الخ الكفار الكفار» .

ولتثبيت هذا واخلاصا لماموريتى التي تلقيتها من لندن جلالتك، فاني أصدرت أمرا، يقضي بان لا تاجر مهما كان له من الجرأة، له أن يرتكب هذ امن الان فصاعدا، فان كان هناك تجار آخرون من الانجليز أو غيرهم من المسيحيين المقيمين هنا لا يستطيعون فض أى خلاف او نزاع يقع بينهم فان عليهم ان يرفعوا قضيتهم ونزاعهم لدى محاكم انجلترا، وبهذا أقنعتهم، سواء في مثل هذه الخصومات وفي أمور أخرى، حتى يراعوا سلوكهم بين الكفار هؤلاء، سواء المغاربة واليهود منهم، وبالخصوص عليهم أن مراعوا حرمة يوم الاحد، فوجدتهم راغبين في العمل بهذا، وصاروا جميعا ياتون الى منزلي كل يوم أحد، للقيام بواجبهم المقدس، الا التاجر المذكور سلفا، والذى جئت على سفينته، فانه كان في يوم الاحد الاول، بينما كنا جميعا نصلي

صبحا، منهمكا في العمل مع المسلمين واليهود لبيع سلعه، كما أنه في الاحد الذى لا يمكنني نسيانه، كان يعاملني تلك المعاملة السالفة، ولما قيل له انه كالاخرين جميعا، عليه أن يتبدى أكثر شكر الله ولجلالتك، وقد خلص حديثا من قيد العبودية، فلا يكون المثل الردىء في ذلك، أجاب باستخفاف ايضا، وفي أسلوب وقح ماكان أبدا جاحدا قيد أنملة فاكثر، غير أن العادة في السواحل المغربية أنهم لا يراعون يوم الاحد، مع تعبيرات أخرى، وبعد الظهر من ذلك اليوم، اتى بيهودى وآخرين الى منزلي، فانتهوا الى حجرة سفلى، لانجاز مهامه وشؤونه بكل عناية، وكنت قد سمحت له بتلك الحجرة ليضع فيها متاعه، كما كان يتناول طعامه على مائدتي، حيث اني أتيت على سفينته، زيادة على كوني قدمته لحكام سلا، موصيا به في تصريف سلعه، والاذن له بذلك قبل أية سفينة اخرى، كانت في المرسى، فصدر عنهم الامر بذلك

نعم، انه بالرغم من هذا كله، كان وراء ظهرى – كما سمعت بذلك – يلمزنى بأنى غير مرحب بى في سلا، نعم، كان ذلك قبل اتياني اليها، قائلا أنه يعتقد أني لن يرحب بي . ولكن الواقع برهن له بالفعل على كذبه، وعلى كل حال، فاني ليس في مكنتي أن أعلل هذا، الا بكوني عاملته بصراحة، حينما كنت أقول له الحق وأهديه للرشاد، على الرغم من معاملته المتمردة لي، كانت من البداية الى النهاية، فقد فعل كثيرا وكذب كذلك في تحطيمه للمهمة التي رحلت من أجلها، وان كان قد مكنني من فرض حقيقة فأعيد الى الذاكرة سببا آخر في هذا وهو «اتق سارقا خلصته من المشنقة، فانه سيحتز حلقومك» ولكن فيما يخصني فقد قرأت « Male audire et bene facere » مراعيا الى اقصى حد قدس الله وشرف جلالتك، ولهذا فلن يمكنني أن اكون جزوعا، بل علي أن احمل ذلك محملا يفرضه علي الواجب فارفع لجلالتك التقرير الحق، والمعلومات الصادقة، ناشدا ما فيه الصلاح لاوجهه الى جلالتك والمجلس الموقر، فهذا هو هدفي الاول وغايتي، كما سلف ذكره،

وفيما يخص مراعاة يوم الاحد، أو سبتنا المسيحي، فانه حتى اليهود صاروا يعيروننا، قائلين : اننا اى المسيحيين لا نراعي الضمير أكثر مما يفعل الاتراك والمغاربة بأيامهم، ولهذا فان ديننا احسن بقليل جدا، أما الان فان سفننا بالسواحل، سترفع الاعلام على دقها الرئيسية، بكرة صباح كل يوم أحد، تقديسا لهذا اليوم، كما يفعل الاتراك والمغاربة على صوامع مساجدهم . نعم، وحتى تحت هذه الاعلام فانه طيلة اليوم تنتهك حرمة هذا اليوم بالاتجار على ظهر السفينة مع كل الواردين من اتراك ومغاربة ويهود كما يكون ذلك في اى يوم اخر اليس هذا سخرية من الله ؟

كان أ.فضل لهم وأدنى الى الخير، ازاء الله وجلالتك (ان كان ذلك مأذونا بـه) أن ينزلوا أعـلامهم على الاطلاق، ان لـم يكن أمر آخـر يتخـذ لاصلاح هـذا وتداركه في هـذه الفضيحة البالغة في الشناعـة، وقـد ذكـرتها لجلالتك (كماسلف) فـي اللائحة، وانـه لا أحـد يجـرؤ بـوقـاحتـه على اقـرار ذلك وتعضيده، والا فـان الذنب سيضاعف

ثانيا ان بعضهم هناك (ومنهم ذلك التاجر الذى ذكر سلفا، وربما له ضريب لا أعرفه) يرتكبون تزييف العملة، بتزويرهم للذهب، كما يفعل اليهود في تلك الجهات، وبذلك فان القطعة (بلنكي) Blankiles (48) كالعمل الاخرى تزور وتباع بـين المغاربة وكانت سلا ستكون أول مكان لذلك، حيث كـان بها هذا التاجر، في آخر رحلة له، عـدا هـذه، فكان سيزاول هـذا، لـولا أن تجارا آخـريـن قالـوا لي ذلك، وكانت لهم بعض الاغـراض منه، وقـد اكتشفت آلات التزييف في مكان تحت حجرتـه، فاعترضوا عليه لهـذا العمل، ان كـان هو صاحبـه فـاستحيى بسبب ذلك ...

نعـم ان السفينـة التي ذكـرت في تلك الـرحلـة، لـم تتجـه الى مرسى سلا، بل اتجهت صوب الجنوب لتتاجـر في سنتاكروز، التي بـاع بهـا بعض القصـديـر المفضض للمغـاربـة، وقـد اكتشف هـؤلاء فيمـا بعد زيف ذلك فـأعادوه اليه مرة أخرى مع أعظم خـزى داعينه (وهو أيضا كذلك في اسمـه) باسم اليهودى الانجليزى، وهكذا اتهـم جنسنا، الذى كان دائما معتبرا جنسا شريفا في هـذه البلاد، بل اعظـم الجميـع اخلاصا لعقيدتنـا المسيحيـة التى هتكت حرمتها بذلك الصنيع، ممـا كنت رفعت أمره الى جلالتك بأقصى اعتبار، فيما قبل، ولـم يكن لتلك البلاغات الصارمـة التي أعلنت، ولا لاى أمر آخـر، صدر عن مجلسك الاستشارى المـوقـر نتيجة في رد هـذه الانتهاكات العظيمة، فظل كـل من جـلال الله وشرف جلالتك، يصاب في الصميـم

وعلى اثـر هذه الخاتمة لابرام الصلح بين أهل سلا، وصل admirantasgo مـن سنت لوكـار باسبانيا، وكان قـد فر من هناك (كما أخبر أصحابه انفسهم) بسبب السخط وعدم الارتياح، ولكون أولئك لم تؤد لهم رواتبهم، وكانت هذه السفينة قد أهـداهـا لملك اسبانيا الامبراطـور، وهي حصينـة جـدا، كـان بهـا 22 مـدفعا، 12 منها نحاسية، وجميعها مـن طراز Culvering وتصفها (49) واثنان صغيران من نحـاس، سلما لحـاكـم سلا مقابـل تـزويدهـم بالمـواد الغـذائية وكانوا عددا عظيما من الرجال المختلفي الجنسيات، قاسوا الغمـوم والكروب، وعلى وصول هـذه السفينة، كانت السفن الاخرى على الشط فـي

خوف، على حين كان تاجرنا المذكور يقوم بأعماله، فتوجه الى السفينة، ولم يكن قد مضى وقت طويل على استيذانه مني مودعا، وفي الصباح التالي أقلع نحو الجنوب، الى آسفي، وبعد ما سحبوا الانجر، أطلقوا قذائف من مدفعين او ثلاثة لهم، كسلام بحرى لباقي السفن الراسية، فأتت احدى تلك القذائف قريبا من رجل قرصاني (كما أخبر بعضهم أنها كانت بين دقلهم) ولكن يبدو ان ذلك كان بسبب كونهم سكارى جميعا، او لكونهم دبروا خوض الفتنة، فاطلق أولئك في الحين نيران مدافعهم العظيمة على سفينتنا، ولكنها كانت قد تمكنت من الفرار والنجو تحت القصبة، التي كلمت فيها الحكام أن يقذفوا قنابل مدافعهم العظيمة، ففعلوا ذلك، وأطلقوا واحدا منها، وفي الوقت نفسه بعثوا القبطان جون الى السفينة، حيث جعل الرجل القرصاني يكف عن القذف.

وفي هذا القتال، كان قبطان السفينة، رفيق رئيسنا، قد قتل، لاصابة رأسه بقذيفة، ولم يحدث ضرر غير هذا . أما تاجرنا المذكور سلفا فقد امسك ومع هذا فانه لما انتهى الى الساحل، اشتد جدا في تعنيفهم، وواجههم بأن دعاهم مكارين، مع عبارات أخرى، أثارت غضبهم، فتعاهدوا أنهم أن التقوا مع السفينة، خارج الشط، فاما أن يغرقوها أو يأسروها

وبعد يوم أو يومين كان رجل القراصنة، قد تزود ببعض المؤن، وأقلع عائدا الى البحر مرة أخرى، وعندئذ، كتب تاجرنا الي، بما اذا كنت أريد الذهاب معهم في السفينة، فانه سيمكث من أجلي يومين، فأجبته ايضا، بأنه يعلم جيدا أني لا يمكنني السفر في هذا الوقت القصير جدا، حيث ان الصلح لما يزل حديث عهد بالانعقاد، والديوان حتى الان لما يعقد اجتماعه فأقلع حينئذ أيضا، ولكنه في اليوم التالي أدرك رجل القراصنة عن بعد، فقال ان هذا قد طارده، فاضطر للعودة الى الشط مرة أخرى، ورجل القرصنة من ورائه للتزود بباقي المؤن ...

وفي اليوم التالي أيضا، أتى القبطان اليس Ellis وهو رجل قرصنة أيضا، ومن برستو وكان في سفينة محصنة جدا، فانتهى بها الى الساحل، في قصده للجنوب، باحثا عن سفينة أخرى تنتمي لبرستو، فتفضل بالبقاء من أجلي، أسبوعا كاملا : لا يومين فقط : نعم حتى كنت قد أنجزت عملي تماما، ثم كان تاجرنا ينتهز فرصة مرافقتنا، خوفا من رجل القراصنة السالف، فبقى volens nolens لا شكر له، الى أن كنت على استعداد وان كنت لا أستطيع تذكر ذلك اليوم بنفسه، حينما كان يخاصمني فيه وينازع، حول

«السبوت» وحتى هذا اليوم نفسه، كان يوم الاحد، لما جاء من قبل رجل القراصنة هذا من سنت لوكار، فجعله يخزيه بشط سلا

توسلت الى الحكام ليستدعوا الجمرك Duana للعمل ففعلوا وقد تظلموا كثيرا من الحيف الذى ارتكب في حقهم من جانب قرصاتنا الانجليز ـ منذ عقد المعاهدة ـ حيث انهم القوا برجالهم على ظهر السفينة وسلبوهم ما كان لديهم من بضائع ومقدرات فقلت لهم ان ذلك كان بدون علم من جلالتكم ومخالفا لارادتكم ومشيئتكم . وعلى ذلك فلاجل منع هذه المخالفات من الآن فصاعدا فان جلالتكم قد اصدرتم منشورا صارما ـ اريتهم اياه ـ كما وعدتهم بغرم ما فقد في ذلك الخصوص وان اولئك سيحملون الى جلالتكم وعكذا قد اخذت على نفسي اعظم قصاص وقد خاطرت بنفسي حينما سافرت أولا بطريق البر من تطوان الى سلا، وها أنذا الآن آتى اليهم للمرة الثانية بطريق البحر وقد كانوا مسرورين جدا حينما كنت انصت الى شكواهم السالفة واستوضحهم فيها ثم وعدتهم بانهم لن يرتكب في حقهم أى خطا مرة اخرى مؤكدا للتجار مختلف الفصول التي عاقدوني عليها ليسيروا على مقتضاها، فيما يستقبل من معاملات تجارية، وكان احداها في صالحي بمناسبة تلك الالام العظيمة التي تحملتها، في سبيل الخدمة التي هي منوطة بي، ماتحين اياى 2 في المائة عن جميع السلع الاتية الى سلا للاتجار فيها، كما هو منصوص في الفصل الذى يمكن الادلاء به، بعد ما صودق عليه من قبل الديوان، ومع هذا فاني لن أقر ذلك الا بعد العلم بما هي مشيئة جلالتك فيه، ويصادق عليه من لدن جلالتك كذلك، فان طاب لجلالتك أن تاذن بهذا في سلا والباقي من المراسي والبلاد الواقعة على الساحل المغربي، مما كنت مبعوثا اليها برسائل جلالتك وأقررت معها السلام والعلائق التجارية، فاني ساضطلع به، كسفير وحدى أو اثنين آخرين معي، فتكون مهمة كليهما التبشير فيهم بواسطة الاتجار وجعلهم يراعون الاوامر احسن مما فعلوا فيما سلف فتكون تلك الوسائل، متمشية مع ما توجبه أوامر الله، فتنجز حسب ذلك الاعمال الصالحة، فتطبق بين أولئك الشعوب البربرية، سواء فيهم المسلمون واليهود، الذين نتوقع هدايتهم في كل يوم، وانه لمخجل أن يكون القسس البابويون و «الاخوان» يرهقون انفسهم بارادة خالصة منهم، في كل الاسفار والمخاطر التي يقتحمونها، لا في المغرب فحسب، حيث قد رأيت ثلاثة منها في هذه الايام، بل حتى في الشرق وغربي الهند، فيقومون فيها بهداية الناس، ويكون رجال كنائسنا في كسل عظيم، أو ربما يكونون منتظرين للتشجيع، فهذا المهم أيضا أرفعه بخضوع الى رعاية جلالتك المسيحية

وفي خلال بضعة ايام تسلمت رسالة من سيدى محمد العياشي بواسطة رسول أرسله خصيصا، وقال لى ان الولى راغب جدا في التحدث معي، وكذلك مقدم تطوان (عبد الله ابن احمد النقسيس) كما تسلمت رسالة اخرى من تاجر انجليزى بتطوان في هذا الغرض شار حالي ان الولي يعتمد على كثيرا في تخليص اصيلا بعد تحطيم اسطوله الذى عمل به وفقا لاقتراحاتي مندفعا بتلك البواعث التي كانت تنبعث من هنا وتسلمت اخرى من احد اندلسي تطوان حيث تركني في غم هناك

أبحر الاسطول من قادس فبعث في كثيرا من السرور، وعند ما كنت على وشك الانتهاء من مهمتي فر رجل انجليزى من سيده الذى كان يعامله بقساوة بعد ما ادى لسيده هذا خمسين دوكة مغربية وكان سيظل معه الى ان يؤدى له ذلك المال الكثير مرة اخرى وبعد انفصالي ذهب في سفينة انجليزية كانت ابحرت من الشاطىء الذى كانت به قطعة صغيرة من المدفعية فسرقت من ذلك الشاطىء الذى ينتمي الى حكم المقدم فشكا الى رؤساء القناصل بواسطة من كنت تركته هناك واتيت في نفس الوقت الذى كان فيه قد امر بارجاع السفينة وبرد المال الذى كان قد حمل الى الاندلس فوضع في الحقائب وكان السير هو الدرمان Sir Hugh Alderman من لندن هو الذى خلص ذلك ـ كما يقول ـ او ارسله من هناك ليسلم الى يد القبطان Leate حالما كانت سفينته قاصدة الى هناك لارجاع السفينة المسروقة بكل ما كان بها من عتاد وغيره بناء على السلام المعقود بيننا ولكنه من المخجل جدا ان يكون ذلك المال لم يسلم من هؤلاء جميعا مع اننا من الرجال الذين قد وضعت فيهم ثقة جلالتكم فهذا العمل يجلب اعظم اهانة وخزى وقد كتب الى جماعة الاندلسيين في عدة فترات يحملون ايضا سادة مجلس الشورى مجلس اللوردات، هذا العار الذى تلقى عهدته على عاتقي بالرغم من كوني لا استطيع ان اعمل شيئا في هذه القضية ولكن القبطان Leate بعث الي من قبل في قضية مال الاخوات الذى كنت قد اودعته بارلندا Irland عند ذهابي الى تطوان وكان قد تسلم هذا المال عند قيامه بهذا العمل واحتفظ به ولكن اختي في غيابي وقد اصبحت ارملة معوزة مفتقرة الى وسائل اخرى اضطرت من اجل ذلك الى البقاء في لندن طيلة المدة التى قاست فيها مرضا عضالا، ولم تستطع في النهاية أن تخلص ذلك المال من يديه بعد ما ألزمته بيمينه . فهذا أيضا مما يجعلني أرفع بخضوع الى مقام جلالتكم هذه القضية تاركا النظر فيها لتبصركم ورعايتكم وهؤلاء جميعا ربما يدعون من هنا لتأدية الحساب لجلالتكم ومجلس «اللوردات» وحينئذ

ربمـا يخلي سبيلي كذلك على حين ان لي كثيرا مـن الاعمال الثقيلة الاخـرى قـد اسندت الى خدمة لجلالتكم وانا راغب في اعفائي منهـا وفي هـذا الوقت ايضا وصل الكابـين Brown مـع آخـرين من رجال الحرب الانجليـز الـذيـن انتهوا الى الشاطىء على سفينة صغيرة لـم يكن بها الاحمولة صغـيرة وكانت تـرشح، وليس لها الا مـؤونة محـدودة جـدا، وكـان عليها أعظـم معـول المستقبل، وقد لوحظ خلال هذه المدة القصيرة من كوني بسلا، منذ نزولي الى البـر حتى ذهابي عائدا على السفينة مـرة أخرى وكانت المدة شهرا وستـة عشر يومـا فقط أنـه أتى فيها 30 نوتيـا الواحد تلو الاخـر، ومعنى هـذا أن المكـان لو شمله الامـن والسلام، فانه يكون أمثل مكان للاتجـار وأعظمه، كما أنـه يكون ذا فائدة عظمى بالنسبة لرجال السفن الحربية الا أن المخاوف تحيق بكون بعضهم قد يسيء في ماموريته فيتحول قرصانا، ويخرج رجال الانجليز الى البحـر، بسفنهم وسفن سلا، وسفن أخـرى في حوزتهم، ويصبحوا مرتديـن وبذلك فان صاحب الجلالة يفقد كثيرا من رعايـاه، والله كثيرا من نفوس خلقه، وقـد رفعت هـذا الى اعتبار جلالتك العليـا، ليحاط ببعض البلاغات الصارمة أو بالاحـرى ليكون في حيـز الادراك (وان كنت باعتبـاري مبعـوثـا في ذلك الخصوص يتحتم على أن أكون صديقا لسلا، ومع هذا فان الوطن أعظم صداقـة وشرف بلادي ورعايـة الصالح العام والحافظ للبلاد المسيحية وهو الادنى الى والاعـز علي) أقول، اني وان كنت الواسطة في ابرام ذلك الصلح، الـذى كان بـه فكاك رعايا جلالتك من ربقة الاسر (كما كنت في نفس الوقت واسطـة في افتكاك الفرنسيين ايضا) واصبح كـل منهمـا الان اعنى كـلا مـن الانجليـز والفرنس الاسرى قـد اطلـق سراحهـم هناك، كما كـان المامـول فاعتقـد وآمـل من جلالتك وأخيك ملك فرنسا أن تضما قواتكما لكبت كـل السفـن التي تقصد الى ذلك المكـان والى الجزائر ايضا، ومنـع كل هـذه الجهـات من تلك الحوادث ومن المتاعب الاخرى والاهانـات بالاحرى، ممـا يبعث على الاسف، حيث ان كثيرا مـن المسيحيـين يوسرون يوميـا بسفنهم ويصـيرون رقيقـا، نعـم ان كثيرا منهم اضطروا لترك دينهم، فصاروا أتراكا (26) وكفارا مرتديـن، وان تدارك هـذا سيكون ميسورا، ان طـاب لجـلالتك أن تـاخـذ بالاعتبار، البواعث الناجمـة عـن هـذا

وفي يوم الخميس 15مايه، كـان قائدان مـع جماعة مـن أهـل الديـوان ينحدرون الى منزلي، فسلموني رسالة الى جلالتك راجـين مني أن أقتبـل عذرهـم، وان احمـل اعتذاراتهم الى جلالتك أيضا، فيما حصل من حرب بينهم، انتهت حديثا بعقد الصلح السالف عاجزين أن يعبروا عن تشكراتهم لجـلالتك،

كما افصحو عنه (وفي هـذا الغرض قـد أرسلوا الى جلالتك هدية من الافراس المغـربية واشياء أخـرى، كانت قد حملت في السفـن) وهكذا صحبني الجماعة مـع القائدين الى شط النهر، حيث كنت سأركب في زورق وبعـد ما انتهيت الى حلق الوادى تمنوا لي سفرا سعيدا وودعـوني باطـلاق قـذائف مدافعهم العظيمة من القصبة، وقد حـدث حـادث تافـه مـرة أخـرى، حيث اني أتيت بعـد لاركب سفينة لبرستو Bristowe تـدعـى «the Elizabeth» فـاستقبلني القبطـان «اليس» Ellis وجميع رفقائه باحترام متناه، لا كما حدث من قبل في «دونس» حيث استقبلني تاجـر لنـدن السالف الذكر، ثـم أقلعنا تجاه آسفي، مـع آخـر كان قد رافق القبطـان «اليس» وكان مسرورا بالبقاء طيلة هذه المدة، خـوفـا مـن رجل السفينة القرصانية، الذى كـان حديثا قـد غادر المرسى، والذى ما رأيناه مرة أخرى فيما بعد، ولكني أعلـم أنـه قـد ذهب الى هـولندا منـذ ذلك الحين

لمـا انتهينا الى مرسى آسفى، الذى لم نصله الا يوم السبت بعـده، وكان الثاني والعشرين، لتعوقنا بسبب الضباب الذى أتى في غير أوانـه، وجدنا هناك سفـن الولايات العـامـة، التي أتت بوفدين مبعوثين منها، وكـان الملك قـد أرسل اليهم ليأتـوا الى مـراكش واعدا اياهم أنهـم لـن ينتظروا أكثر مـن ثلاثة أو أربعـة أيـام، غـير أن القبطان كلوطر Clowter والقبطـان الاميرال، قالا انـه لـم يسمعا شيئا عنهم الا رسالة جاءتهـم، منـذ توجهـوا الى الملك، وكان منزعجـا كثـيرا، حيث انه حـدث قيام أيضا على الملك مـن قبـل ملك جـديـدة أو ثائـر (50) كـان قد حمل السلاح ضده، مما جعلني أيضا في خوف عظيـم، وحـذرت آنـذاك من كل مـن تجـار لندن، الذين كنت قد سافـرت معهـم مـن قبل، وحكـام سلا الذين فصلت عنهم منها، قائلين بأنـه لا فائدة في وضع نفسي بيد الملك، الـذى كان يمتلىء ضغينة (كما كـان أبوه)، سواء ضدي وضدهـم، بسبب اطلاقهم سراح الاسرى الانجليز من سلا، لانـه لم يكن لا أبوه ولا هـو، سيطلق سراحهم عـن طواعية وطيب خاطر منهما، وفي نفس الوقت، كـان ملكـا لا سلطان له، وكـان يقضي أيـامه في معاقـرة الخمـور، والانهماك في رذائل أخـرى، الى جانب ما اتصف بـه من قساوة متناهية وسفك للدمـاء، وقـد ذاع عنه هـذا، ولاجـل ذلك أرسلت رسالة جلالتك مـع رجـل شريف انجليزى الى حاكم المدينة، سيدى الحسين (51) وكتبت الى هذا راجيا منه أن يبعث رسالة جلالتك الى الملك، الذى هنأته جلالتك لاعتلائـه العرش، راغبـا في الحصول على حسن العلاقة معه، كما كـان ذلك مع أسلافـه من قبل وآملا في التدليل عليه بأن يطلق سراح جميع رعاياك ويخلصهم من ربقـة العبوديـة،

كما وعد بذلك أبوه في غير ما مرة، وكنت فيما مضى مواظبا في انتظار اجابته حتى كانت السفينة التي أتيت عليها لم تستطع البقاء طيلة تلك المدة، كما أننا لم نستطع ذلك، ففي اليوم التالي، كان القبطان ألس وهو غير واجد هناك السفينة التي يبحث عنها، يقلع الى سنتاكروز، حيث كان علينا أن نسلك الممر الضجر نفسه، كما كان قبل من سلا، تاركين وراءنا رفيقنا، التاجر المذكور سابقا، ليتابع شئون تجارته بآسفي، وبعد بضعة أيام لحق بنا بسنتاكروز، ولم يكن القبطان قد وجد بها السفينة التي كان يبحث عنها، ولكنه سمع أنهم ذهبوا من هناك الى سلا، عازمين على أن يعودوا منها، ولهذا كان عليه أن ينتظر هناك ليلتقي بتلك السفينة، قائلا لي انه آسف لكونه لم يستطع توفير راحة لي أكثر وحتى النهاية، وكان قصده الى ماسة، على بعد ثمانية فراسخ صوب الجنوب، وكانت معي رسائل جلالتك، وكذلك رسالة من سيدى محمد العياشي، الى الولي الاعظم سيدى على، الذى يحكم جميع تلك الجهات المذكورة في تقاريرى السالفة وكانت في تلك الاغراض، التي منها الحصول على بعض الافراس والشواهين لجلالتك، مما هو الاحسن في بلاد المغرب جميعا، والاستطلاع بقدر المستطاع، على ما يتصل بتلك التجارة الذهبية ببلاد غاغو (52) في جهات وادى السنغال والغمبرا (53) من حيث ان لهذا الولي دخلا من الذهب وسلع أخرى قيمة تؤدى له سنويا، فتحمل الى هذه النواحي، التي يتحكم في جميع طرقها، ولهذا كنت متشوفا الى الذهاب الى تلك البلاد وبالاحرى لاتى من هناك بأولئك الانجليز الذين تحطمت بهم سفينتهم على ذلك الساحل قريبا، فارسلهم الولي، مطلقا سراحهم بكل نبل وآمرا بأن يتمتعوا بنيل حريتهم، وكان التاجر المذكور سلفا، يقصد الذهاب الى هناك، فقلت له اني اريد أن أذهب معه الى تلك الجهات، فأجابني انه قد غير منحاه وأنه لم يذهب الى تلك النواحي مطلقا . فلم الح عليه بالمرة، بالرغم من وعوده السالفة، وعزمت على العودة مع القبطان اليس، الذى كان قد ثبطه في غيبتي عن حملي في سفينته، كما قال لي القبطان اليس فيما بعد، وبناء على ذلك، فقد عدنا من سنتاكروز الى مكان يبعد عنها نحو ثلاثة فراسخ، يدعى تنلوف حيث كانت سفينتنا ستصرف بعض السلع

وفي خلال يومين بعد، أتت سفينة انجليزية، من سنتاكزوز، كان من تجارها مستر ولفرد Wilford ومستردوتون الذى قال لي ان التاجر المذكور سلفا، قد ذهب في اليوم التالي مباشرة بعد انفصالنا من سنتاكروز الى ماسة، بالرغم من أنه قال في اليوم قبله انه لن يفعل، وقائلا لي عن اكتشاف الفضة المزورة، في الرحلة السالفة الى سنتاكروز، ان المغاربة قد

سموه الانجليزى اليهودى وربما كان هـذا داعيا لـه في التخلص مـن ذهابي معه، ليـلا أكتشف عمله الردىء، الذى كان يزاولـه هنـاك في تلك السفـرة الاولى، وأنـا لا أدرى، ما اذا كان يزاول ذلك في جهات اخـرى، حيث انه غـير معلوم حتى الان، وكـم يكون مفيدا لو اكتشف ذلك لانه لا يستطيع أن يحبك هـذا الا ولـه شركاء يساعدونـه على الشر، في ذلك الخصوص، وحتى هنـا في انجلترا، وعلى كل حـال، فان وداعي الاخير لـه، كـان بعد كل ذلك

وهكذا، فقد اقلعنا من تنلوف الى سلا، متجهين نحو الغرب، لنكون في مهب الرياح الغربيـة (حيث انه غير ممكن استعمال الساحل المقابل للرياح التي تهب عادة في جميـع أيام الصيف) الا ماكان مـن سلا في طريقنا، ولـم يكن لنا الا أن نقـابـل الضباب والرياح المعاكسة، كما كـان ذلك من قبل، في غير أو انهـا وفي حالة غير معتادة .

وفي يوم الخميس 24 طرقنا جزر ديزرتس Desertes (54) والجزائر المـدرية Maderars وهناك تقابلنا مع سفينة انجليزية من لندن، كان رئيسها مستر من Man وبها التاجر مستـر جنكس Ginckes وكـانا قاصديـن لـلاتجار فـي فنتشـل (55) Funchall برخصة أو بدون رخصة لا أدرى . ولما كنا قد وصلنـا بخير الى فنتشل المدينة الرئيسية، وعاينا موقعها، قـال لي القبطـان اليس، انه استطاع أن يسلك طريقا على أسهل مـا يمكـن أن يكون هـذا السلوك، فانه يعـرف جميـع الجزيرة التى كان قـد عاش بها طيلة أيام السلم لمسائل تجارية، ويعـرف كل خليـج لتلك الجزيـرة .

ومن هناك واتتنا الرياح، بحيث اننـا وصلنا الى مرسى سلا مـرة أخرى، يـوم السبت الثالث من يليه، نفس يـوم الاسابيـع السبعة، منذ أن فصلنـا مـن هناك الى سنتاكروز، وفي نفس ذلك الوقت القصير جـدا

وفي اليوم التالي، نزلنا الى البر، حيث علـم القبطـان اليس أن صديقـه المستر بنت Bennet والسفينة التي كان ينشدها قد كانا بسلا، ولكنهما عـادا أيضا الى سنتاكـروز للبحث عنه، فعـزم على انـزال بعض السلـع بسـلا، والعودة في عقبه، وهنا ايضا وجدنا القبطان برون Browne قد أتى البـر مـرة أخـرى، مـع بعض الغنائم التي غنمها من الاسبان، بدون مقاومـة، وكان قـد باعهـا فعـلا، وقـد رغبت منـه أن أعلـم السبب في عـدم حمـل ذلك الـى انجلترا، بمقتضى ماموريته، فقـال لي (وكذلك علمت) ان سفينته كـانت قـد أصيبت بعطب شديد، حينئذ رجوته، بصفة كوني مبعوثا من لـدن جلالتك،

لتلمس الانباء عن مثل تلك المجريات أن يسلم باسم جلالتك وسيدى اللورد الاميرال Admiral الى يدى القبطان اليس، احدى السفن لتى كانت محصنة جدا، فرفض ذلك، قائلا انه سيحملها لانجلترا بنفسه، حينئذ سجلت جميع الاشياءالتي باعها وفي أي الحالات، التي كانت سهلة جدا، ولم يكن مسموحا بـه لاى قرصان من رجال السفن الحربية، الا في وقت الضرورة، التردد على ذلك المكان، بمثل ذلك الزعم، وهنا تحدثت أيضا مع رجل يدعى المستر ابتون Upton وهو تاجر انجليزي قد سكن مدة طويلة باسبانيا، وكما اعترف لي فانه كاثولكي رومي المذهب Romish نعم، انه قال لي، انه كان له بعض الاعمال والمهمات التي كان يقوم بها للحكومات العامة، وكان ذلك سيكون ذا فائدة لو هو نال حماية للذهاب الى انجلترا، مما اعتقدت أنه من واجبي أيضا الاعلام بـه .

وفي ثالث عشر من يليه وصلت ثلاث سفن لملك فرنسا، وكان رئيسها المسيورزيلي Razelli وكان مساعدة المسيو شلر Challard مع أعظم تبرعات من فرنسا، جمعها الكردنال the Cardinal لافتداء الاسرى الفرنسيين بسلا وهم مائتان وكان هنا من قبل في السنة الفارطة، ولكنه لم يحصل على شيء، الا ما ناله من مهادنة وترك راهبا رهينة في عودتهم، وقد وقعوا في فورة أو ارتفاع مائي، فكان على السفن أن تتجه داخلا أو خارج الشط الرملي the barr وأخذت ثلاثة من السفن التي غنموها كانت آتية هناك، وأصيب رأس قبطان برمية، لما أثار غضب هؤلاء السلاويين، اذ كانوا لاول يوم غير راغبين في أن يتفاوضوا مع الفرنسيين . فكان الفرنسيون في جانب آخر قد قاموا على حراسة أنفسهم، محجمين أن يرسلوا اى شخص آخر الى الساحل، وان كان عندهم رسالة ملك فرنسا الى الحكام، بحيث ان الراهب والتجار الفرنسيين والاسرى على الساحل أصبحوا جميعا في خطر، محدق بكل من حياتهم وأمتعتهم وحرياتهم، فرغبت من الديوان أن أكون الواسطة كشخص ثالث tercero أو مصلح بينهم، فأسعفت في طلبي، حينئذ عرضت ثقتي على كلا الجانبين لاكون خير مباشر لهذا، فوضع أهل سلا ثقتهم في لاحمل رهينتهم الى سفينة الفرنسيين، وكان أحد الحجاج اى أحد الذين ذهبوا حاجين الى مكة، وقبر محمد ـ والراهب كذلك، وأعاد القواد الفرنسيون من جانبهم معي رجلا نبيلا، ومعه رسائل الملك للتفاوض معهم، فقدمته الى الديوان وأوصيت به خيرا، بقدر ما استطعت، راغبا منهم أن يتعاملوا معهم معاملة شريفة، آتين من ذلك الامير العظيم الذى عقدت جلالتك معه قريبا

معاهدة صداقــة، مما اوجب أن يراعى جدا الى جانب التماس في السر من بعض رؤساء الديوان . وعلى ذلك كلل المسعى بالنجاح، فقدم الفرنسيون عــن كــل مسيحي مــا يساويــه في سوق النخاسة وزيــادة 30 دوكــة على ذلك، وطلب المغاربة 55، فأقنعت هؤلاء المغاربة بالنزول الى 40 والفرنسيين بــزيــادة 10، فارتضى كلا الجانبين هذا الحل، وعليه سرح جميــع الفرنسيــين وأرسلوا الى سفنهم، وكتب الي كل من المسيو رزيلي والمسيو شلر Challard برسائل الشكر، ممضاة بخط أيديهما، على الخدمة التي اديتها للمسيح، في حق جميع المسيحين، مهما كان عليه الحال في اختلاف في الرأي، خصوصا فيما يتصل بتلك العــلاقــة القريبة التي علقتها جلالتك مع فرنسا، كما أعتقت ثــلاثة من الارلنديين، كانوا قــد أسروا بواسطــة سفن سلا، وكانت وجهتهم نحو اسبانيــا، وأخــويــن انجليزيــين كان قد أسرهما هناك أتراك الجزائر، ولكــن في نفس الــوقت جــاء انجليزى مرتد (قد أسلم) بشكوى عظيمة، من سفينتين انجليزيتين التقى معهما في عــرض البحر، فانتزعت منه سفينة فرنسية، كانت محملة بالثياب الكتانية وبضائع اخــرى، الى جانب الاسرى الذين يقومون بمال عظيم جــدا، اذ كــان الاسبان والمغاربــة ياسر بعضهم بعضا، وكان الفداء يــؤدى فيما بينهم، وعلى هــذا الحادث دعي الديوان للاجتماع، وسألوا كلا مني ومن التجــار، الذيــن كانت أمتعتهم معرضة للحجز، ولكنني اقنعتهم بأن هذا كان مخالفا للبلاغ الذى صدر عن جلالتك ولشيئتك، وأني سأطلب اتخاذ العدالة في الحادث، وعلى ذلك اتوني بتقريــر، وكتبوا رسالة اخــرى لجلالتك محدديــن لي أربعــة اشهــر فقط، للعودة بالجواب، واضعين هــذه العهدة والعبء على عاتقــي، حيث اني كنت قــد استخدمت لاقرار السلام الذى كان لي شرف ابرامه ابراما كما ينبغي، وقد أذعنت لــلامر، فتركت عندهــم رهينة نبيــلا وتسببــا لي الى أن أعــود اليهــم بمــا يقتضيه هــذه الحالة، حينئذ ركبت سفينة مــلائمة، لانهم كانــوا ادخروا هديــة من الافراس المغربيــة وأشياء أخــرى عينوها لارسالها الى جلالتك، طالبين مني أن أعود اليهم في سفينة مجهزة ببراميل للماء ولوازم اخرى لهــذه الغايــة، فان طاب لجلالتك ان تمنح الامر بتطبيــق قانون بيتر Peeter العظيــم (56) الذى كان قد أخــذ مني، فاني سأدع ذلك فيما يأخــر من ديني، واقــدم لجلالتك خدمات اخــرى فيما يستقبل، مما لا أستطيعــه هذه الايــام، وأنا خائب الرجاء، بسبب التاجر المذكور آنفا . وبالرغــم من ذلك فان القبطان اليس كان راغبا في ان يقوم بهــذا العمل، ولكن بسبب أنه كان معه أكثر من 60 رجلا على سفينته، فقد طلب برميــلا caske وظل ينتظرني كــل هــذا الوقت، الى أن أنهيت الحقوق التي كانت قبلي، في كل مــن الاعمال التــي بــاشرتهــا

للفرنسيين، وأشياء أخرى، وللقيام بتلك الاعمال، كانت لي مقابلة مع رجال الديوان، وكان ذلك استقبالي الثاني، ثم اتجهت الى السفينة، فاستقبلني القبطان اليس بكل احترام، كما كان ذلك منه أولا، وقد دعيت أنا وهو في نفس اليوم الى الاميرال الفرنسي مسيو رزيلي Razelli حيث أقيمت لنا هناك أعظم مأدبة، كما كنت من قبل قد دعيت لسفينة مساعد الاميرال مسيو شيلر Challard الذى حضر أيضا الى هناك مع رجال آخرين من نبلاء الفرنسيين، وكانت نخب جلالتك تتابع بطلقات من المدافع دفعة واحدة، وعند انفصالي من السفينة كذلك، وعند اقلاعنا أيضا، أرسل الينا كل من الاميرال ومساعد وكيل الاميرال بالتمنيات الطيبة في سفرنا، بعد ما عرضا علي لما كنت على ظهر السفينة، ما أحتاج اليه من مال، وكان ذلك المبلغ 10 آلاف دوكة، كما عرضا علي تقديم كل ما أحتاج اليه على وجه الصداقة، مما هو في مستطاعهم، وهم سيطلعون ملكهم والسيد Master على الخدمات الطيبة التي قدمتها لهم، فشكرت ذلك لهم، ولكني قلت لهم ان هناك تجارا انجليز، ان عنت لي حاجة، فاني آمل أن يكونوا على استعداد ليؤدوا لجلالتك تلك الخدمة، ولو أني ان كان لي ذلك، فربما أكون قد اعتمدت على العصا المكسورة .

وكان اليوم التالي يوم الاحد، فاتح أغسطس، فاقلعنا، وفي يوم الثلاثاء التالي وصلنا الى آسفي، فوجدنا في مرساها بعض السفن التجارية، وبعض المؤن لتشحن في السفن الفرنسية التي أتت من سلا لافتداء الاسرى الذين كانوا في قبضة الملك مولاى عبد الملك، الذى أتوه برسائل وهدايا، وبما أني كنت قد أتيت برسائل صاحب الجلالة فقط، ولم أصحب معها هدايا فان بعض التجار الانجليز قالوا لي انه من العبث أن أنتظر أى جواب، لانه حتى ذلك الوقت لم يكن أحد قد أتى الا وكانت تلك الهدايا الضئيلة ربما تقوم بفداء أولئك الاسرى

وفي تلك الليلة أقلعنا مرة اخرى الى سنتاكروز، فوصلنا يوم الاثنين التاسع الى خليج سنتاكروز، عند تنلوف وهناك مكثنا عدة أيام معا، بعد ما كنا قد اجتزنا الرأس (57) حيث وجدنا السفينة التي كنا نبحث عنها . وكان مستر بنيت (بعد ماكان القبطان اليس قد فشل في عمله) مع من كان في السفينة التي كانت وجهتها الى ماسة، فارسلت فيها رجلا بالرسائل الى سيدى علي، وكانت حول أولئك الانجليز الذين اطلق سراحهم، كما كتبت اليه رسالة مرفقة، أشكره على ذلك الصنيع، بما كان لائقا به، مع بعض المقدمات الاخرى، فيما يخصني نفسي، بسبب الاعمال التي تتعلق بسلا هذه،

ولما كان قد حدد لي وقت قصير جدا، فاني ما استطعت الذهاب الى هناك، وكنت متضايقا قانطا بسبب تاجر لندن المذكور سابقا، وسمعت أنه كان هناك طيلة المدة التي قضيتها هناك

وفي يوم السبت الرابع عشر أقلعنا أيضا من تنلوف، وفي يوم الجمعة بعد الظهر انتهينا الى (جزائر) مديراس، وفي نفس الوقت درس القبطان اليس مع رجاله، كيف تزود سفينته بالمؤن، حيث انه وجد زاده المدخر قليلا جدا، فوق المتوقع، الى جانب أن سفينته كانت مصابة بعطب بليغ، والا فانه كان ينوى البقاء خارجا مدة طويلة، بناء على رسالة له بمارسة غنيمة فعزم على العودة توا الى انجلترا، وفي هذه الحال ركنا جميعا الى التقتير، وليس لنا الا زاد 14 يوما بالسفينة، حيث ان البحارة المساكين أجهدوا، فكانوا يراقبون وغالبا ما كانوا ينزحون المياه من السفينة المخروقة، وكانت الرياح تحملنا، بدون عواصف أو زوابع، وشاء الله في النهاية أن يأتي بنا الى الجنة، حيث نود أن نكون، ففي يوم السبت الحادي عشر من شتنبر، قسنا العمق فكان 50 قامة . وفي يوم الاثنين 13، كنا على بر ساحل كرنول Cornwall بعد لندى Lundie (58) فمكثنا هناك كل تلك الليلة القصيرة، خوفا من الارتطام بالجزر الصغار والصخور . وفي اليوم التالي، اجتزنا كل الاخطار، فوصلنا، لله الحمد، الى كنكرود Kingroad (59) حيث اننا بعد ماكنا سنرسو، اختبر القبطان اليس كم بقى من الزاد في السفينة، فوجد أنه ليس أكثر من 8 قطع من الشرائح البقرية و 4 قطع من لحم الخنزير ومقدار من شراح البستيك، يكفي لاكلة واحدة، فاتجهنا في تلك الليلة بواسطة الزورق الى برستو Bristowe حيث وجدنا أيضا سفينة القبطان برون Browne قد وصلت الى هناك من قبل بليلة واحدة، ثم وصلنا الى لندن في اليوم العشرين، وكان ذلك بعد سفر منهك وغياب طويل، وكنت أجد نفسي في حالة جيدة (بعد ما كنت مريضا) فمكثت بضعة أيام قليلة، ولم أجرؤ على الاتيان الى حضرة جلالتك، حتى الان، وهو هذا اليوم الثامن والعشرون، من شتنبر سنة 1630

خادم جلالتك الخضوع

ـ جون هرسون

أما التقرير الثاني الخاص بالمعمورة، فهو في ترجمة أصله، كما يلي :

الى صاحب الجلالة الملك الامجد

وسائل لاحتلال المعمورة، الواقعة على الساحل المغربي، وتتبع هذه المذكرة الاخرى المعلومة سابقا لجلالتك

1 – أن العمل سائغ، وهو موجه ضد الاعداء الصريحين، لكل من جنسنا وديننا

2 – ان المواطنين، بالنسبة للمغاربة أنفسهم، وحتى القواد الرئيسيين، يرغبون في ذلك بحماس، ويعرضون عونهم، كما في رسائلهم وفي شواهد أخرى يمكن ابداؤها . وجلالتك بواسطة رسائلك السالفة المكتوبة وعدت بارسال الجواب اليهم بتصميمك، كما هم ينتظرون

3 – ان المكان له أهمية عظمى، حيث انه أحسن مرفأ على الساحل، فيمكن سفننا في كل المناسبات من الاستراحة به، وأن يضيقوا به الخناق على العدو لكونه قريب الاتصال بهم، سواء الاسبان والاتراك كذلك، الذين هم في الاعوام الاخيرة صاروا يضايقون المسيحيين جدا، فلن يجرؤا بهذا على اقتحام مضيق جبل طارق، وان تجارنا وغيرهم يمكنهم أيضا أن يرسوا سفنهم هناك فينزلوا بضائعهم في أمان، ويزاولوا أعظم تجارة، نعم انهم يمكنهم أن ياتوا بجميع أنواع التجارة من جميع الجهات اليه، والنهر يمتد الى اقصى فاس، ورسوم الجمرك ستسند الحصن الذى لا يحتاج الى عدد كثير من الجند، كما هو الحال عند الاسبان المضطرين للبقاء على حين أن جميع القطر صديق لنا، والى جانب هذا، فهناك صقع برى من المعمورة الى الشمال، بعيد بنحو 20 ميلا على الاقصى من المعمورة القديمة (مولاى بوسلهام) البحر على جانب النهر والمستنقع على الجانب الآخر، يكونان، كما اذا كان هناك شبه جزيرة يمكن بسهولة أن تفصل، وتحصن، وتجعل مستعمرة، وقد قال لي أحد تجارنا الاسبانيين، ان الاسبانيين كانوا في يوم من الايام سيفعلون هذا، ليستدرجوا المورسكوس مرة أخرى، ان كان ذلك في الامكان، وكان هؤلاء سابقا قد طردوا، هم واليهود وغيرهم فكانوا سيعيشون تحت حمايتهم، تلك الحماية التي كانت مرة في يد جلالتك، كما يرغب جميعهم، وانا لا أشك في أن الجميع كانوا سيفعلون، نعم، حتى المغاربة أنفسهم، (أحسن جند يستغل في هذه الحروب الاهلية وهم عموما يوثرون الانجليز على جميع الشعوب الاخرى) يلجأون الى حماية جلالتك، ولهذا فانهم جميعا قائمون متربصون ،

ولا يصدقون رؤساءهم (كما يقولون) في كونهم تحت سلطان ملك من الملوك، خصوصا هذا الملك، الذى يدعونه الملك الاحمق (يعني مولاى عبد الملك)، ولهذا فان سيدى محمد العياشى أخيرا قد تملك على جميع البلاد، الى أقصى فاس وهو، يبعث السلام في جميع الجهات، التي بايعه أهلها، على أن يكونوا عند أمره ونهيه ولهذا فانهم يؤدون له العشور، أو الضرائب، التي لا يضعها تحت تصرفه هو، ولكنه يكلها الى ثقة من الشيوخ الرؤساء للبلاد، ليكونوا على استعداد في كل مناسبة وهكذا قال لي أحدهم (هو قائد مدينة سلا أيام الحروب) ، قال انه كان متوقعا أن جلالتك ستستولي على المعمورة، وأن كلا من سيدى محمد العياشي، وهم جميعا، سيقدمون معونتهم، مظهرين لي أين يكون أكثر ملاءمة النزول اولا الى البر، مترتبا على جزيرة فضالة وتحصينها، حيث يكون ممكنا في ذلك وسق أعظم ذخيرة من القمح برخص جدا، وبكثرة عظيمة في هذه الجهات، وقد كتب بيده محمد العياشي نفسه الي، وأرسل رسولا خاصا ليعلم ما اذا كنت حملت اليه رسالة أو أى جواب من جلالتك يتصل بهذه الامور .

4 – ومكان المعمورة هذه، ان هو حصل مرة في يدى جلالتك، فانه سيستغل جيدا ويتخذ مكانا آمنا للتجارة، وهو بسهولة يفضي الى سلا (فيكونان معا بجميع المورسكوس أو الاندلسيين القاطنين هناك) تحت حكومة جلالتك، وأنهم بالفعل قد احتموا بحماية جلالتك رأسا، بالرغم من كون أخطاء كثيرة وقعت في حقهم، الواحد بعد الاخر، من قبل سفننا بالبحر، وهم لم يفعلوا من أجل ذلك الا الشكايات يوجهونها، وان القبطان جون John (47) أميرال سلا، الفلمنكي المرتد، ما هو الا أعظم صديق لشعبنا، وقد قال لي انه تمنى في النهاية، ان ينتهي ذلك الى الحدوث، فيكون هو وآخرون كثيرون في حمايتك خصوصا المورسكوس، الذين طالما تاقوا وتحرقوا لان يصبحوا تحت حكومة مسيحية مرة أخرى، كما قد وقع الان، عند كوني الاخير بسلا، وان تنبؤا غريبا قد فسره بعضهم، وهو أن كلبا غريبا أبيض، أبيض جميعه، قد أتى من خارج القطر الى المدينة، وان التجار الانجليز، لم يستطيعوا أن يطردوه خارجا عنهم مرة أخرى، ولكنه استمر يتبع الواحد والاخر، يبصبص عليهم، فان هو اقترب من أى مغربي، فانه يعض أرجلهم، ولكن ذلك لم يقع كثيرا، بقدر ما كان ينبح مرة على مسيحي، لدرجة أن ذلك الكلب المسكين قد ضرب، ثم قتل عدة مرات، نعم ان الكلاب الحقيقين في الشوارع طيلة تلك الحروب كانوا معه، بحيث انه في النهاية، كانت كل المدن والبلاد قد انتبهت اليه، وقالوا ان ذلك الكلب كان حقيقة قد انقلب

مسيحيا، وقال احدهم على مسمعي أن هذا كان تنبؤا بأن المغاربة سينقلبون من شريعتهم الى شريعة أخرى (60) وقد قلت لهم أيضا ان ذلك الكلب يهديهم السبيل، وما ذا ينبغي لهم أن يفعلوا، ولهذا فقد شاء الله عدة مرات أن يجعل خلقه الداخلين، المبشرين به والمرشدين، كما قال لي القبطان جون، انه عند رأس نهر سلا على مسافة فرسخين، قد اكتشف هناك فضة كثيرة، قد احتفظ هؤلاء الاندلسيون بسرها، الى أن يجتمعوا معا من جميع الجهات، كما يسعون في ذلك يوميا، وبذلك يكونون قادرين على حكم البلاد، وجعلها تحت سيادتهم، وقد رغب مني في اعطائه وعدا وميثاقا مقدما، بأنه اذا قصدت جلالتكم أن تفعل شيئا على ذلك الساحل، فانه سيخاطر بنفسه في خدمة جلالتك، والا فانه يريد الحصول على اذن جلالتك بالاتيان الى انجلترا، حيث انه ينتهز أول فرصة، ان هو استطاع الخروج ثانية الى البحر فيحصل على أحسن غنيمة، اسبانيين أو برتغال : لانه يؤمن في قرارته بانه ما زال مسيحي القلب، وعلى كل حال، فانه في أيام شبابه وفي غوايته اضطر الى أن يتحول مسلما بالجزائر، بعد ما أسر بلنسرت Lanserot (36) فاعتقل هو وبعض الاسبان ومن الاعتقال صار رقيقا لبعض الاتراك، حينما احتلوا تلك الجزيرة، وبعد ذلك صار تركيا (26)

5 ـ انها سهل المنال يسهل الاحتفاظ بها، ويكون لنا (كما قلنا قبل) جميع البلاد صديق، فليس هناك أى خوف مطلقا، من استرجاعها بواسطة الاسبان مرة أخرى، أو مداهمة من المغاربة، لانهم لا يرغبون في أن تقع بايديهم، كما قالوا هم انفسهم لي، موضحين ذلك الارتياب جيدا، فيقولون، ان الاتراك سيداهمون بدخولهم هناك بكل سفنهم، ويأخذونها منهم أيضا، وهم قد فضلوا أن تكون باقية بأيدى الاسبان، على أن يضع الاتراك أقدامهم على تلك البلاد، لانهم يسعون في أن يصبحوا سادة يسيطرون عليهم، ويغمرونهم جميعا، كما فعلوا بالجزائر ولكن لزيادة الضمانات ولجعل المغاربة يلحظون العلاقة الصديقة والوطيدة، فانه لن يكون في غير موضعه بالنسبة لسيدى محمد العياشي الذى يذعن لياخذ نصف الرسوم الجمركية، على شرط أن ياتي ببعض القمح مقدما على مؤن أخرى ليزود به الحامية، واني أعلم أنه يفعله عن طيب خاطره وفي البلاد كثرة منه، مما يجعل جميع البلاد تاتي اليه للاتجار . وبذلك يجذب جميع البلاد للاتجار هناك، ويزود الحامية من آن لاخر بالحاجيات الاخرى، ويرقي المستعمرة كثيرا، وأخيرا فانه يرجي أن المسيحية ستستقر باستعمارها في تلك الجهات من العالم، بحول الله العظيم المجيد وفضل جلالتك الخالدة، التي ستصبح فوق جميع الملوك الآخرين، وهي حامية

الايمان، لتبحث بكل وسيلة عن توسيع وتقدم المثل، ولها حسن فرصة قد اتيحت لها، دون ملك آخر، كما قد عبروا عن ذلك بكلامهم وبالرسائل التي يمكن ابداؤها وحينئذ فعسى أن يحسب كونه ينبثق من الله، الذي يحكم قلوب الناس ان الولي الاعظم سيدى محمد العياشي، قد كتب الى ولى آخر عظيم، وهو سيدى علي بن موسى، الذى يسيطر على جميع الجنوب من جهات المغرب، وراء جبال الاطلس، والمواجه غغو Gago (52) حيث ياتي كل الذهب، وقد أرسل الي بسلا رسالة، لأخلص اليه حينما سمع اني كنت مرتبطا بهذه الجهات، ولكن لسبب آخر، أكثر اتساعا وذكر في تقريرى لجلالتك، قد عاقني ان اكون قادرا على الذهاب هناك بنفسي، بل أرسلت رسولي، ومضمن تلك الرسالة (كما قد افهمني الرسول) أنه كان لحمل سيدى علي على الالتحاق به، والانضمام اليه لاقرار الامن في البلاد، وليجتمعوا معاعلى حرب الاسبان، وان الملك مولاى عبد الملك، رجل لا يصلح ان يكون حاكما صالحا فهو مفرط في معاقرة الخمر، واشياء أخرى رذيلة، ولكن أكثر مما كان عليه من قبله، أنه قاس جدا ودموى سفاك، بحيث أن جميع العناصر الخيرة فرت منه بعد ذلك ولهذا فان له قليلا من السلطان أولا سلطان بالمرة، وعموما يظن أنه لا يستطيع الاستمرار طويلا، بل في النهاية سيصبح سيدى علي ملكا، لان حكمه ظاهر على العكس من حكمه، ومدني جدا ومسالم، ومع هذا فانه عادل وصارم، بحيث ان التجار وغيرهم يسافرون ويتاجرون في حرية وأمان ببلاده، كما يكون هذا في اى جهة من الممالك المسيحية ولا يسترق اى مسيحي، خصوصا الانجليز، بل انه يطلق سراحهم من آن لاخر ومن ذلك ان سفينة انجليزية كانت تتجه الى جزيرة ماى (61) ولسوء حظها انحدرت ليلا الى الساحل في هذه الجهات، بعيدا عن الجنوب، وخارجا عن سلطانه، ففر منها سبعة أو ثمانية وقعوا في أيدى هؤلاء القوم المغاربة، فلما سمع أنهم أرسلوا مبلغا من المال طيبا لتحريرهم، أطلق سراحهم صادرا عن احترامه لجلالتك، كما فعل أيضا أخيرا سيدى محمد العياشي مثل هذا برجل انجليزى، اصيب بتحطيم سفينته باصيلة، وكان متجها الى المضيق، مما يطيب لجلالتك أن تشير اليه في رسالتك التالية، بالشكر لكل منهما، ولجلالتك أكثر من سبب لتحرز به علاقات المواصلة، أكثر مما هو مع الملك، الذى هو على العكس قد أسر رعاياك محتفظا بهم رقيقا، كما فعل أبوه نعم : وبالاحرى فان جلالتك ستحرز أعظم شرف لنفسك ولرعاياك حقا ـ حيث ان هذا الملك قد أرسلت عدة رسائل الى والده كما أرسلت اليه، لتحرير الاسرى، ومع هذا فانه لم يعتقهم ـ ان أخذت جزيرة مجدور منه في ناحية الجنوب

وأخذها بسهولة (كالمعمورة وكل ذلك دفعة واحدة) وهو مرفا أيضا جيد للسفن، وأيضا فان هذا يثبت التجارة ويقيمها، ويجعل الاستعمال بنفس الشروط مع القواد الرؤساء هناك، كما قد ذكر من قبل مع سيدى محمد العياشي، والمكانان المعمورة ومجدور، سيجلبان كل تجارة جميع البلاد اليهما وأحدهما واقع في الشمال والاخر واقع في الجنوب، ومن هنا فان التزويد سيظل في متناول اليد عندما يلزم فيما بعد سواء فيما يستعمل ضد بعض الجزر التي ذكرتها في تقريرى (62) وكثير من بر اسبانيا، التي يجعل منها جزيرة أعنى من ذلك جبل طارق، على فم المضيق حيث يتغلب عليه بسهولة) وكان متوقعا حتى من المغاربة أنفسهم، حينما أتى الاسطول العظيم الى قادس وقد فعلوا، وأيضا أخذ سبتة محلى اليمين المقابل من ساحل المغرب،

كما قد عرض على مقدمو تطوان ـ برضاهم ـ خدماتهم على

وكان حاكم تطوان سيدي عبد الله قد كتب وحده الى جلالتكم مرة اخرى بواسطة الكابتن Pen كما بعث معي رسالة الى سلا وانه لفي عجب شديد حيث لم يسمع بالمرة شيئا منى والحال انى قد وظفت في ذلك الوقت للقيام بتلك المهمات التي اوجبتها جلالتكم. وهاتان النقطتان (تطوان وسلا) يمكن منهما ان تتمكن من «جبل طارق» و سبتة وبذلك نستولي على المضيق كما فعل ملك الدانمرك بمضيق Sound واعتبره خير عمل. وبذلك كما ذكر من قبل تكون كل بلاد البربر صديقة لنا كما صرحوا بذلك انفسهم في رسائلهم وعهودهم الاخرى وحين عودتى كنت قد سلمت لجلالتكم ومجلس الشورى «مجلس اللوردات» الشريف تقريرا ضافيا عن ذلك ومنذ ذلك الوقت وهم من حين لاخر يتوسلون الى في تحقيق هذه الفكرة كما رغب المغاربة انفسهم في ان يساهموا في هذا العمل جاعلين اياى خير وسيط، وقد بقيت في حيرة مترقبا الجواب كذى قبل .

واذا كانت تلك العروض لخصوص المهام الكبرى او لموجب آخر لا تراها جلالتكم لائقة حتى يعمل على مقتضاها فان جلالتكم ان شاءت لها ان تكل امرها الى اسم اميركم Pellatine الذى له اعظم نصيب في ذلك ـ وقد جرد من ميراثه الشرعي بواسطة الاسبان ـ ليعضد كثيرا من الرغبات خارج مملكتكم (63)، كما سيكون موافقا في الرأى رقيبا على الذين يدبرون هذه الشئون لحكومات الاراضي الواطئة وامير Orenge (الذى له من غير شك اهمية في الالتزام الثاني بالمعاهدة) كما ان امراء آخرين سيقدمون مساعداتهم . وسيسرنى جدا ان طاب لجلالتكم أن تاذنوا بتحقيق هذا الطلب

فان المغاربة يرغبون حقيقة في حالة ما اذا كانت جلالتكم لن تتكفل بهذه العروض، أن توصوا بهم ممالك الاراضي الواطئة، خصوصا فيما يتصل بمسالة المعمورة التي كان هؤلاء سيمتلكونها قبل أن يحتلها الاسبان (64) واني بخضوع انظر الى مدى تبصر جلالتكم التي يحفظها الله .

وتاريخ هذا التقرير نفس التاريخ السالف الذكر

وأخيرا ناتي بترجمة المذكرة التي قدمها الى المجلس الاستشاري، كتقرير حول المغرب، عموما منذ وفاة المنصور، الى سنة 1631 شارحا لهذا المجلس الحالة التي كانت عليها البلاد، وما كان يقاسيه أسرى الانجليز بها، وهي كما يلي :

(حكومة المغرب، والاحوال هناك، منذ موت الملك، مولاى أحمد)

توفي مولاى أحمد، الذى خلف أخاه، مولاى عبد الملك (الذى هزم دون سيبستيان، ملك البرتغال، في معركة القصر العظمى، وفي نفس البرهة مات هو نفسه، موتة طبيعية) وكان مولاى أحمد هذا، بسبب حصافته وسياسته التي كانت لحكمه، قد تمكن في وقت قصير، من فرض سلطانه على جميع القطر، وجعله تحت رعايته من مضيق جبل طارق والبحر الابيض المتوسط الى المحيط الاطلسي، ووراء تلال الاطلس، الى أقصى غاغو بغنيا، بحيث ان جميع ذهبهم كان ياتيه، وكان بينه وبين الراحلة اليزابث الشهيرة الذكر آنذاك، أعظم الصلات والمودة، لدرجة أنه لما سمع بموتها جزع، وقال انه لن يعيش بعدها طويلا، فلم يعش أكثر من ربع عام حتى لحق بها ميتا، فترك ممالكه الثلاث، مراكش وفاس وسوس، موزعة مبعثرة بين اولاده، مما نشأ عنه حروب أهلية بينهم، وفي النهاية تملك مولاى زيدان (بعد عدة معارك بينه وبين مولاى عبد الله، ابن مولاى الشيخ، أكبر الاخوة الا أنه كان من محظيه) فاستولى على التاج بصفة قانونية، وذلك بواسطة أخواله . وبذلك خلف أباه مولاى أحمد على كرسي الامبراطورية بمراكش، ولكنه كان قاسيا وطاغيا مستبدا، ليس له مجلس يستشيره بل كان يعتمد على الارادة الخاصة والفكرة المجرد المزهوة، ففقد حب رعاياه وأثار غضبهم عليه، وجعلهم يفرون من الميدان عدة مرات، ولكنه كان يستردهم مرة أخرى، وكان الملك هذا هو الذى بعثت اليه أولا من لدن الملك

جمس، المذكور بالرحمة والغفران، وذلك سنة 1610 لاسترداد الاموال والسلع التي انتزعت بقساوة من تجارنا بواسطة اعوانه . وفي مقابلته الثانية لي، وبين عدة قضايا أخرى، سالتي كيف يحكم الملك سيدي ؟ فأجبته بأنه يحكم، بواسطة مستشارين نبلاء وحصفاء. فأجاب بانه ليس ملكا من لم يستطع أن يحكم بدون مجلس استشاري، ومع هذا فانه عاملني معاملة حسنة، واعدا بانه سيعيد الاشياء لاصحابها، وبانه لتدعيم العلاقة الطيبة مع ملكنا وشعبنا كما كان عليه الحال أيام اسلافه فانه سيصادق على كل الامتيازات السالفة التي منحوها لتجارنا، للاتجار او غيره، وللتاكيد على ذلك، فانه أرسل معي سفيرا الى انجلترا مع فرسين مغربيين هدية، وقد أحسنت ضيافة السفير هنا كذلك، وحصل على اقتبال (ملكي) بنفس الاكرام والتبجيل (65) .

وخلال سنة أو سنتين بعد ذلك، ثار في الصحراء، بجوار غينيا، ثائر، من المرابطين أو الاولياء (كما يسمونهم) وكان أعظم قسم من رجاله هم السود، وقد تظاهر باعظم قدلسية وخشونة في الحياة، اذ كان يصوم هو وبعض اصحابه كل أيام السنة، بل كل ليل، الى أن يستطيعوا رؤية النجم، فلا ياكلون ولا يشربون . وكذلك فان جميع المغاربة (9) متعلقون بشريعتهم وهم مرة كل سنة، عليهم أن يراعوا رمضان، على وتيرة صومنا الكبير «لنت»، فيصوموا كل شهر قمرى تماما، غير أن الصنف الاحق من هؤلاء الاولياء يصومون كل أيام السنة نعم، من سنة الى سنة مدة حياتهم . وهي الوسيلة التي بها كان (جماعة الاكليروس البابوى) يستطيعون أن ينالوا أعظم اعتقاد فيهم، بين بسطاء الناس، ويبجلون كالبابوات الحقراء، أو بالاحرى أنصاف الالهة، معتقدين أنهم يعلمون كل شيء، ويستطيعون عمل كل شيء، كما يحلو لهم، وبتلك الوسيلة فانهم أيضا يقفون بجانبهم في أعظم رهبة وخشية منهم، خصوصا هذا الولي، فانه كان فوق الباقين منهم جميعا (وهو المدعو بلقب بو محلي، واسمه الحقيقي احمد) فقد استغل الاغلبية من ثقة الشعب البسيط مدعيا، وجاعلا اياهم يعتقدون، انه مرسل من الله ليطهر جميع البلاد، المحكومة من مولاى زيدان بالجور والطغيان، وأن يقر السلام العام، وأنه سيطرد الاسبان من مزكان (الجديدة) والمعمورة (المهدية) وباقي حصونهم على تلك السواحل، نعم، بل زيادة على ذلك فانه سيقيم جسرا له على فم المضيق (لجبل طارق) ليعبر عليه هو والمغاربة (9) الى اسبانيا لاسترداد جميع تلك البلاد وجعلها في حكم المغاربة (9) مرة اخرى، وجاعلا اياهم يعتقدون أيضا،

أنه نفسه لا يصيبه ما يرمي به (من قذائف وغيرها) وكذلك جميع جنوده وأتباعه، وهكذا اعتقد فيه، فاجتمع عليه أول الامر حوالي ثلاث مائة رجل، فلما سمع بذلك الملك، بعث (كما يقال) عليه نحو 3.000 رجل، ولكنهم جميعا سحقوا وكذلك حصل في بعض المناوشات الاخرى . وفي النهاية فان الثائر دنا حتى مراكش، حيث ان الملك حشد له كل قواته التي حاربه بها، كما كان معه أعظم حقل من مدافع الميدان، ولكن (بسبب جهل المدفعيين وعدم احسانهم الرمي، أو لاشياء اخرى خفية، مما شاء الله أن يضل به أولئك القوم) لم يلحق بهم ضررا، بل أن الثائر تغلب وانتصر ذلك اليوم . وبمشقة عظيمة استطاع أن يفر الملك الى آسفي، مدينة مرفئية : حيث كان قد أرسل من قبل نساءه وعياله، وأمواله، وأمتعته الاخرى، وهناك كانت سفينتان، احداهما لرجل فرنسي، والاخرى لرجل فلمنكي، فركب هو وأهله سفينة الفلمنكي، الذى وضع فيه أعظم ثقة، ووضع أمتعته في سفينة الفرنسي، وكان فيها كتبه كلها، (مخطوطات باللغة العربية، قديمة جدا، خلصت اليه من اسلافه، مما قدره أكثر من كل أمواله التي كانت معها) وعلى عكس كل الثقة التي وضعها في الرجل الفرنسي، فانه فر بجميع ذلك منطلقا، قاصدا أن يجعله غنيمة له، ولكن قبل أن يستطيع الوصول الى الميناء التي كان يرغبها، أسر بواسطة الاسبان، وحملت سفينته الى اسبانيا . أما الفلمنكي فانه بشرف رسا بسفينته التي كانت تقل الملك عند سنتاكروز، صوب الجنوب، بسوس، حيث طاب للملك أن يحتمي بحرمة horma (كما يسمونها) أو ملجا ولي آخر عظيم، يدعى سيدى يحيى حيث مكث معه بقية السنة، يدبر أمر ملكه، وفي النهاية فان هذا الولي العظيم (مدعيا بحق الملك الذى كان سيعيده الى ملكه، أو ربما كان قد حسد الولي الاخر على عظمته التي نالها (فاصبح بها آنذاك ملكا، تزداد عظمته يوما بعد يوم) حشد جيشا (كما قيل لي) يتكون من ستين الف رجل، وزحف الى صوب مراكش، وكان الملك الجديد، اعتمادا على انتصاره الاول الموفق لم يخش اى مقابلة يستقبلها من عدوه، حالة كونه بين رجاله الذين كانوا جد ثابتين في عزمهم، وفي نظام متين، مستهينين اكثر من اى شيء آخر باقتراب العدو منهم الى أن سمع بانه قد أقام مخيمه فعلا قبالة مراكش، وكان هذا الملك الجديد خلال هذه المدة، يطوف مصوبا ومصعدا في البلاد، بدون مقاومة لجمع الاعشار، أو الغرمت Gramt كما يسمونها ، التي تؤدى للملك، فلما كان هذا قد فعل توجه باسرع توجه نحو العدو الذى كان قد أقام رماتهم وأعظم قواتهم في البساتين

والحدائق، حيث كان سيمر، وكان في اليوم الاخير قد أتى الى نهر تنسفت قريبا من مراكش، فلم يكن له صبر على المكوث بينما كان باقي قواته، في تلك الايام تزحف صاعدة ولكنه نفسه بقنوط ومعه 300 فرسا هجم على جميع قوات عدوه، فكان نفسه أول رجل أصيب فقتل . ومن قبل كان قد جعل المغاربة (9) يعتقدون أنه لن يصاب بطلقة، فخر هناك، قتيلا، وبرهنت جميع آمالهم المخفقة على أنها كانت مجرد أوهام وضلالات

وبهذا فان سيدي يحيى أعاد للملك ملكه، لكنه جعله أولا يعد وعدا صادقا بأن يصلح من حكومته السابقة وأن يصادق على بعض الشروط ليعمل بمقتضاها، ففعل ذلك، ولكنه وقد وضع في يده الملك وتمكن من الحكم مرة أخرى، وأصبح وحيدا فيه كما كان من قبل، وان كان ذلك وكسا لملك أن يكون قد مد له في ملكه بالشروط، أصبح كما يقول المثل المأثور «الخبيث سينمو أقبح فأقبح»، فقد وقع في تلك الانحرافات السابقة، أو أقبح من ذي قبل، بحيث ان ظلامات جديدة صارت يوتى بها وتجلب يوميا أكثر فأكثر من جميع الجهات فتصل الى مسامع الولى سيدي يحيى . ولهذا فانه اضطر أخيرا الى حمل السلاح مرة أخرى، قاصدا بذلك الى خلع من كان قد أعاد اليه ملكه من قبل، فاضطر الملك عن قريب الى التقهقر مرة أخرى الى آسفي، وهناك حوصر ستة أسابيع، ولكن المدينة كانت محكمة الاسوار من بناتها البرتغال، وكان الملك قد حشد جميع مدافعه ومعداته الحربية فأحضرت اليه هناك، مستعدا للاحداث التى سبق مثلها من قبل، فأحكم التضييق على عدوه، بينما كان قد حدث تمرد من رجاله أخيرا، فانسحبوا متقهقرين، حينئذ كان الملك قد انتعش وجدد مرة أخرى، ولكن بعد المعركة التي كانت بينه وبين سيدي يحيى، كان هذا قد سم أخيرا (كما يقولون) بواسطة وسائل من مولاى زيدان، الذى كنت قد سافرت اليه خلال هذه المدة أيضا، وكانت ثالثة المرات التي سافرت فيها اليه، لاسترداد الاموال التي ذكرت من قبل، بناء على وعده وكذلك لاطلاق سراح عدة رجال من الانجليز وبعض الرعايا الاخرين لصاحب الجلالة، كانوا بسبب عطب سفينتهم وبأسباب أخرى وقعوا في يديه، فاتخذهم عبيدا، كما كان قد وعد أيضا، على شرط أن أحمل بعض الرسائل منه الى الولايات العامة للاراضي الواطئة، وكذلك الى فرنسا، راجيا الملك أن يتوسط لدى ملك اسبانيا في اعادة الكتب التى ذكرت من قبل، فقمت بتلك الرحلة، وعدت منها برسائل اليه من كل من ملك فرنسا الذى هو الان ملكها، ومن الولايات العامة للاراضي الواطئة، ومن ملكنا ايضا، المتوفي ذى الذكر

المكرم، حول رعاياه، غير أن مولاى زيدان نسي وعده السالف، حيث ان المغاربة (9) وكثير منهم، لا يستفتون ضمائرهم في تعاملهم مع المسيحين فلا يراعونها البتة، لانهم يقولون (كما سمعت) أنهم في عملهم هكذا، سيصبحون مثل النصارى، الذين هم عموما يحافظون على وعودهم، فهم يريدون في كل شيء لهم ـ سواء كانوا أتراكا أم مغاربة (٥) ـ ويجتهدون أن يكونوا على العكس : وهكذا فان هؤلاء النصارى المساكين، سواء منهم الانجليز والفرنسيون، ما زالوا حتى اليوم في قيد العبودية

وبعد وفاة سيدى يحيى، فان جميع القطر السوسي أصبح منصاعا الى سيدى علي ، أعظم ولي بماسة، المتاخمة لغينيا، والذى أعاد تسليم قصبة حصن سنتاكروز (وكانت سابقا في ملك سيدى يحيى) الى مولاى زيدان الذي تعهد بأن يدفع لسيدى على أموالا طائلة جدا قبلها، فادى قسطا منها عند التسليم، ولكن بعد ما تمكن من تملكها مرة أخرى، لم يؤد أكثر من ذلك، مما حمل سيدى علي أن يصبح عدوا له أيضا، ثم ان هذا أخذ على عاتقه أن يقوم بحكم تلك الجهات، فأعاد الى رعايته أعظم جزء تمتع بالأمن والسلم بواسطة حكمه السديد، آخذا لنفسه كل الاعشار والواجبات التى كانت قبل الملك، ولم تستثن من ذلك الا سنتاكروز، التي ما زال الملك محتفظا بملكها، وهنا توجد كل معامل السكر ingenies (66) (كما يسمونها) وفي الايام الماضية كان يغرس هنا قصب السكر، ولكن بعد موت الملك الشيخ مولاى أحمد، وبعد الحروب الاهلية، التي نشأت هناك، فان القصب قد قطع هناك، وأعدم تماما

وبسبب تلك الخدمات السابقة التي قمت بها في ارض البربر وخلال ايام سكناى هناك في مرات متعددة واماكن مختلفة ملاحظا حالة القطر ومركز الشعب منه، فقد داخلت «الموريسكوش» او الاندلسيين الذين طردوا من اسبانيا، وانتهيت الى ان كثيرا منهم قد اعترفوا بانهم في قرار أنفسهم مسيحيو القلوب، وهم يتظلمون بمرارة من تلك الطردة القاسية، ويعرضون خدماتهم جميعا، اذا ما كانت هناك اية حالة حرب ضد اسبانيا، مشتاقين بحرقة الى أن يصبحوا تحت حكم مسيحي مرة اخرى)، وقبل حملتنا العظيمة الاخيرة الى قادس (كما كان واجبي) فاني أخطرت السير البرتوس مورطن Albertus Morton كاتب الدولة آنذاك، فأعلم صاحب الجلالة، والمرحوم دوق بكنكهام بما نبأت به، مؤكدا لهم، أنه ان كان هناك تصميم وقصد لهذه الجهات، فانه سيكون عملا أحسن لو وجه لذلك القطر وشعبه، حالة

كونه آهلا وخصيبا ووافيا بالحصول على عشرة آلاف من الموريسكوس المستعدين لخدمة صاحب الجلالة في ذلك الغرض المقصود، فكان مفهوما جدا، ومصادقا عليه، أني من هناك كنت قد توجهت الى المغرب قبل ابحار الاسطول، وكان لي عبور سريع جدا، بحيث اني في تسعة أيام، كنت قد أتيت من دونس Downes الى فم مضيق (جبل طارق) حيث وصلت الى تطوان، فلم أجد الموريسكيين فقط (وهم أعظم عدد السكان هناك) بل عموما كل المسلمين (9) مستعدين جدا ومنتظرين، بحيث انه كان في استطاعتي حشد أربعين أو خمسين الفا لو سمحت لي بها تلك الفرصة، خصوصا الموريسكوس الذين كانوا قد سروا بمجيىء معتمدين على نبوءة قديمة حكوها وكان أسلافهم وجدوها مكتوبة على صفائح من الرصاص في «مونت سنتو Monte Santo» قريبا من غرناطة، تفيد أن اجلاءهم سيكون من اسبانيا الى المغرب، ولكنهم سيعودون مرة أخرى في وقت يوتي بهم في سفن مسيحية، فلما كان الوقت الذي سمعوا فيه بالاستعداد العظيم من أسطولنا الانجليزي، ظنوا حقيقة أنه قد اتى الوقت لتحقيق تلك النبوءة تماما، ولهذا، فانهم استعدوا بالبسكت biskett والقطع pieces والبارود وكل الضروريات الاخرى، متحفزين للذهاب ومنتظرين فقط وصول تلك الارمدا Armada العظيمة (كما هو تعبيرهم) لتنقلهم (الى اسبانيا)، ولكن ذلك البرهان العظيم لم يكن له أثر فعال يجيبهم عن ذلك الانتظار العظيم، وبذلك فان تلك الفرصة الحسنة ضاعت فالاسبان الذين كانوا من قبل يرتعدون، هم الان منتصرون، قائلين للمغاربة (9) (كما قصوا علي) انه لا يوجد هناك في انجلترا شخص دريك Drake آخر، فالجميع دجاج، وفي الوقت نفسه توفي السير البرتوس مورتن، وكنت مثله كذلك ميتا ومنسيا، متروكا هناك مخذولا مهملا، مملقا معوزا، سواء من السفن ومن الوسائل الاخرى التي وعدت أن ترسل الى لتنقلني من هناك، لهذا كنت مضطرا أن أقوم برحلة يائسة قانطة، بواسطة البر من تطوان الى سلا، في أعظم خطر محيق بكل من حياتي وحريتي، وكان الاسبان بتلك السواحل قد أخبروا بخدمتي تلك ورحلتي، فارصدوا على العيون بين الشعب المغربي للغدر بي من يبيعون بالمال آباءهم وعيالهم . وهكذا أنهم جعلوا الف دوكة (كما أخبرت) لمن ياتي بي الى العرائش او اى مكان آخر به حاميتهم، ولكن مقدمي أو حكام تطوان، وهم حريصون جدا على سلامتي، أرسلوا رجلا يصاحبني طول رحلتي، وبالرغم من كونهم قد حاق بهم كوارث سالفة فانهم شملوني بالرعاية والضيافة، كاتبين رسالة في منتهى الود أرسلوها معي الى صاحب الجلالة، يعرضون فيها خدماتهم، وجميع البلاد من ورائهم

كونه آهلا وخصيبا ووافيا بالحصول على عشرة آلاف من المورسكوس المستعدين لخدمة صاحب الجلالة في ذلك الغرض المقصود، فكان مفهوما جدا، ومصادقا عليه، أني من هناك كنت قد توجهت الى المغرب قبل ابحار الاسطول، وكان لي عبور سريع جدا، بحيث اني في تسعة أيام، كنت قد أتيت من دونس Downes الى فم مضيق (جبل طارق) حيث وصلت الى تطوان، فلم أجد المورسكيين فقط (وهم أعظم عدد السكان هناك) بل عموما كل المسلمين (9) مستعدين جدا ومنتظرين، بحيث انه كان في استطاعتي حشد أربعين أو خمسين الفا لو سمحت لي بها تلك الفرصة، خصوصا المورسكوس الذين كانوا قد سروا بمجيئي، معتمدين على نبوءة قديمة حكوها وكان أسلافهم وجدوها مكتوبة على صفائح من الرصاص في «مونت سنتو Monte Santo» قريبا من غرناطة، تفيد أن اجلاءهم سيكون من اسبانيا الى المغرب، ولكنهم سيعودون مرة أخرى في وقت يوتي بهم في سفن مسيحية، فلما كان الوقت الذى سمعوا فيه بالاستعداد العظيم من أسطولنا الانجليزى، ظنوا حقيقة أنه قد اتى الوقت لتحقيق تلك النبوءة تماما، ولهذا، فانهم استعدوا بالبسكت biskett والقطع pieces والبارود وكل الضروريات الاخرى، متحفزين للذهاب ومنتظرين فقط وصول تلك الارمدا Armada العظيمة (كما هو تعبيرهم) لتنقلهم (الى اسبانيا)، ولكن ذلك البرهان العظيم لم يكن له أثر فعال يجيبهم عن ذلك الانتظار العظيم، وبذلك فان تلك الفرصة الحسنة ضاعت فالاسبان الذين كانوا من قبل يرتعدون، هم الان منتصرون، قائلين للمغاربة (9) (كما قصوا علي) انه لا يوجد هناك في انجلترا شخص دريك Drake آخر، فالجميع دجاج، وفي الوقت نفسه توفي السير البرتوس مورتن، وكنت مثله كذلك ميتا ومنسيا، متروكا هناك مخذولا مهملا، مملقا معوزا، سواء من السفن ومن الوسائل الاخرى التي وعدت أن ترسل الى لتنقلني من هناك، لهذا كنت مضطرا أن أقوم برحلة يائسة قانطة، بواسطة البر من تطوان الى سلا، في أعظم خطر محيق بكل من حياتي وحريتي، وكان الاسبان بتلك السواحل قد أخبروا بخدمتي تلك ورحلتي، فارصدوا على العيون بين الشعب المغربي للغدر بي من يبيعون بالمال آباءهم وعيالهم . وهكذا أنهم جعلوا الف دوكة (كما أخبرت) لمن ياتي بي الى العرائش أو اى مكان آخر به حاميتهم، ولكن مقدمي أو حكام تطوان، وهم حريصون جدا على سلامتي، ارسلوا رجلا يصاحبني طول رحلتي، وبالرغم من كونهم قد حاق بهم كوارث سالفة) فانهم شملوني بالرعاية والضيافة، كاتبين رسالة في منتهى الود ارسلوها معي الى صاحب الجلالة، يعرضون فيها خدماتهم، وجميع البلاد من ورائهم

حولهم، ليكونوا عند أمره، ان كان صاحب الجلالة سيرسل اسطولا آخر، فيحتل سبتة أو جبل طارق (عند فم المضيق) على الجانب المقابل لها، فانهما يقابل كلاهما من الاخرى، وفي الامكان جعل جبل طارق جزيرة يقطع العنق الارضي الذي يوصلها بالبر، وبسهولة يعمل هذا، ولنا مثل تلك الكثرة من المغاربة (9) ليتقدموا الجيش كما عرضوا ذلك، قائلين ان صاحب الجلالة بذلك العمل سيتحكم في المضيق، كما يفعل ملك دنمرك Denmarke فيكون سيد البحار ويستولي على جبل طارق، ويكون بذلك متوفرا على المؤن والزاد، الذى وعدوا بان يقدموه كذلك من آن لاخر، وكذلك فعل مقدم او حاكم أنجرة المجاورة لطنجة، فعرض كل مساعدته لاحتلال ذلك المكان . وقد ذهبت بعيدا عنهم، فكان الاولياء والشيوخ المجاورون للعرائش يعرضون على المثل لاحتلال ذلك المكان، حيث انهم قالوا لي ان صاحب الجلالة عليه أن يوجه السفن خلال فصل الصيف لازعاج عدوه، ولكن فوق هؤلاء جميعا الولي الاعظم سيدى محمد العياشي، الذى تحت سلطانه جميع الاولياء الاخرين والشيوخ، والحق أن جميع البلاد والمملكة من فاس كان أغلب أهاليها معي وهم بذلك الاهتمام ليبعثوا صاحب الجلالة على احتلال المعمورة، التي هي أحسن مرفأ وأوحده للسفن على ذلك الساحل كله، عارضين على جميع أنواع التعضيد والتزويد، بكل من الرجال والطعام، وهو بوفرة هناك، وأخيرا أتيت الى سلا، فعرض أيضا حكام سلا خدماتهم جميعا على صاحب الجلالة في جميع الحالات، سواء بالبر وبالبحر، ضد الاسبان، كما أبدوا استعدادهم لعتق جميع الانجليز الذين كانوا هناك في الرق وقتئذ، ووضع أنفسهم تحت حماية صاحب الجلالة، حيث ان مكان المورسكوس قد حصن الان، وكان من قبل قد خرب، ولكنه الان آهل جدا، ويزمعون أن يقيموا هناك حكومة حرة، تحكم بواسطة ديوانهم، فاخذت سفينة صغيرة تنتمي للاراضي الواطئة وبعد رحلة شاقة وخطرة، سواء بالبر وبالبحر، وصلت الى انجلترا، فقدمت لصاحب الجلالة وللمجلس الاستشارى الموقر تقريرا لخدماتي تلك، ثم أمرت بالعودة مرة أخرى، فسافرت سفرا سريعا كما كان من قبل : سبعة أيام فقط وثمان ليال، من الساحل الى الساحل . وكان على أن أقوم بالمامورية مزودا برسائل الاعتماد والتقديم من قبل صاحب الجلالة، لاستمرار المعاهدة بهذه العروض، كما كان، أيضا لاطلاق سراح الاسرى الانجليز، الذين يناهزون 260، مما أنجزته، وفي الوقت نفسه كان يصل جنرال ملكي ومعه ثمانية من سفن الولايات العامة، وقد أرسل بعض رؤساء قواده الى الساحل لياتي بالماء من آنفى (الدار البيضاء)

ولكنهم في غفلة كانوا يباغتون من الاعراب، أهل البلاد، وقتلوا بعضهم، وقد عملت جهدي بكل ما استطعت من وسيلة لتخليص بعضهم من الاسر أيضا، لان كثيرا منهم كانوا باقين على قيد الحياة، مع أمين المال وباقي القواد الرؤساء ثم عدت في واحدة من هذه السفن مع ما موريين (67) كانا قد أرسلا معي من هناك ليعقدا معاهدة مع صاحب الجلالة بناء على هذه القضايا، وقد بعث معهما صاحب الجلالة رسائل الى حكام سلا والى سيدى محمد العياشي أيضا، بالمصادقة على المعاهدة السالفة، مع وعد منه بأنه سيرسل جوابا صادرا عن تصميمه، ولم يمض زمن طويل على المامورين، حتى أرسلا أيضا لنفس الغاية، ولتقديم شكاوى متعددة عن بعض الاخطاء التي ارتكبت في حقهم من طرف رجال سفننا الحربية في البحر، طالبين للاجابة وللانتصاف والترضية فيها، فذهبت أيضا هذه المرة الاخيرة (وكانت المرة السابعة) حيث كان لي كالغالب مرور سريع كما كان من قبل، ولكن عشرة أيام من تربای Tarbay قريبا من درتموث Dartmouth الى سلا، حيث وجدت القصبة والمدينة في حروب أهلية الواحدة ضد الاخرى، وبعدما وضعت وساطة ولي كان قد عاد من حجه لمكة، وقبر محمد، وضعت كذلك كل الشكاوى السابقة التى ارتضاها الحاكم والديوان ليعملوا بها، على شرط أن يلتزموا مراعاة العلاقة الجميلة فيما ياتي غير أنه في تلك الخلال، أتي بشكاية جديدة، بحيث ان كل بضائع التجار كانت ستحجز، ولكني أقنعتهم ببعض الاسلوب فارتضوا أن يكتبوا الى صاحب الجلالة محددين لي أربعة أشهر فقط من الوقت لاعود اليهم بالجواب، (وقد تركت هناك سيدا من أصدقائي رهينة عودتي)، وكانت المدة ستكون ثاني غشت التالي وقد مضى 12 شهرا، ولهذا فانهم الان خارجون عن كل أمل (وعموما يكون كذلك جميع المغاربة (9) خصوصا منذ أن عقدنا الصلح مع اسبانيا (68) في أى انجاز، بناء على المعاهدة السالفة، وعند وجودى الاخير هناك، كنت أيضا وسيطا حالة ما كنت كذلك وسيطا بين أهل سلا وبين جنرال ملك فرنسا، وكان قد وصل هناك في نفس الوقت) لفداء 200 أسير فرنسي، كما هو مثبت من رسالة للجنرال مسيو رزيلي Razelly ومسيو شلر Challard وكما يظهر مقرا به تحت خطوط أيديهم، ومن ذكرهم هم.

والان هناك أعظم أمل في أن الباقي من كل من أسرى الفرنس والانجليز الذين هم في رق ملك مراكش يمكن فداؤهم أيضا ويعقد السلام وتبرم معاهدة السلام على جميع تلك السواحل، لان الملكين الطاغيين مولاى زيدان وابنه مولاى عبد الملك، قد ماتا كلاهما، وهذا الملك مولاى الوليد،

الاخ الاصغر لعبد الملك، معتدل جدا وعطوف، وأمه كانت مسيحية، احدى أولئك اللائي أجلين من اسبانيا، فتزوجها مولاى زيدان، ثم استولى على التاج كوارث شرعي، أما مولاى عبد الملك فكان ابنا لحظية سوداء، ومع هذا فانه بعد وفاة أبيه، خلفه على الملك، لانهم لا يجعلون فرقا عظيما في تلك الحال، (69) وتوا بعد موت مولاى زيدان، فان الاخ الاصغر وكان (عالما وخائفا من أخيه الاكبر القاسي الدموى السالف، الذى انهمك في الشراب ورذائل أخرى كريهة) فر بعيدا تجاه فاس الى سيدى محمد العياشي الذى كان هناك قريبا من سلا فأرسل الى أهل سلا بأن يستقبلوه استقبالا حسنا كملك عليهم، حالة كون أمه من بيتهم أو قريبة لهم، كما ذكر من قبل، وقد أجليت من اسبانيا، ولكنهم رفضوا معتذرين بأن الاخ الاكبر كان ملك مراكش، وهم لا يجرؤن، أو بالاحرى تظاهروا بذلك (كما كان من قبل) ليجعلوا لانفسهم حكومة حرة، ولهذا فصل عنهم، ولم يمض زمن طويل حتى كان قد غدر به، وحمل اسيرا فاعيد الى الملك أخيه، الذى كان سيلقي به في الموت، ولكن بعضهم أقنعه بأن الافضل ان يحتفظ به حبيسا، فظل هكذا الى وفاة الملك وكانت (كما حكى لي أحدهم قد أتى من هناك) على هذه الحال، ذلك ان بين الاسرى الفرنسيين، الذين كانوا أخذوا من قبل، كان هناك شابان اختصهما، واضطرا لاعتناق الاسلام، ثم بعد ذلك خصيا ليواظبا على خدمة شخص الملك، حيث انه لا أحد الا من كان مثلهما يسمح له بمخالطة نسائه، ولا بالسكنى في داره، وكان هذان، كما قد سلف، أخوين تحالفا، فقتل الملك لسبب طفيف أحدهما (بتلك الطبيعة التي كان عليها من القساوة وسفك الدماء، فانه كان بنفسه يتولى مهمة الجلاد، فيقطع رؤوس الرجال بيديه، وعلى سبب بسيط وعلى الاخص حينما يكون في حالة سكر، ونادرا ما يكون خارجا عن ذلك) فبقي الشاب الاخر خائفا أن يحل به المثل (لانه لم يكن هناك أحد يقوم على خدمته الا كان يوميا خائفا يترقب ازهاق روحه) وكان أيضا قد توعد لسبب شبيه، وبنوع ما كان مدفوعا للانتقام من موت زميله وكان قد اقترب في جميع الاوقات من مأوى الملك الخاص وخيمته (لانه في تلك الايام كان يمكث في محلته أو معسكره قريبا من مراكش) فترقب الفرصة المواتية (كما يبدو) فكانت حينما نام أوسكر، أو في كليهما معا، فأخذ «كابوس» الملك نفسه ورماه بعياره، وعلى ذلك وجد هناك قتيلا في خيمته، ففر قسم من رجاله الى داخل البلاد، وعلم بهم بعد قليل . وعلى التو من وقوع الحادث، أتى بعضهم يهرع الى المكان الذى كان سجينا به أخوه الاصغر مولاى الوليد، فدعاه أن يتفضل بالخروج، فخاف أن يكون هذا

رسولا بالموت، حيث كان يوميا يقف موقف الخائف، فطلب أن يسمح له بالذهاب الى حجرة أخرى أولا ليودع زوجته، ظانا أنه لن يراها مرة أخرى، وهكذا بقي متبطئا الى أن نادى الخادم مرة أخرى به ليخرج، وعلى الفور كان قد بويع وأعلن ملكا وبذلك كان من السجن يخرج الى الدست فيعلن ملكا، فكان أعم تغيير مؤمل منه أن يقوم بواجبه خير قيام ويبرهن عن كونه أصلح ملك محاولا (كما يقولون) أن يحكم كما كان جده مولاى احمد يفعل، وسيقوم بتخليص البلاد من هذه الحروب الاهلية التي كوبدت زمنا طويلا، وفيه أمل عظيم أن يثبت الامن العام وهو مرجو من كل من التجار ومن غيرهم الاخرين الذين يتعاملون هناك ويرحلون الى تلك البلاد مصوبين فيها ومصعدين فيرتادونها بحرية أكثر، خصوصا أنه سيسرح هؤلاء الاسرى المساكين من شعبنا، فان هذا الملك الجديد قد وعد باطلاق سراحهم بناء على رسائل صاحب الجلالة، كما أن التجار العملاء المقيمين هناك قد كتبوا بهذا الى التجار هنا . فان كان كذلك ستترسل هدية بسيطة، كالعادة فانها تتقبل بقبول حسن، ويكون نفعها عظيما لشرف صاحب الجلالة ولصالح رعاياه، ويكافأ عليه بالضعف بأفراس المغرب، والشواهين وأشياء أخرى، ولكن أساسا اعتاق نفوس عديدة من المسيحيين، الذين يقاسون حتى هذا الوقت أعظم أمر لا يحتمل، مما كانت له الاهمية العظمى في الاعتبار السالف وكان واجبي، لما كنت مستخدما كسفير نائب لصاحب الجلالة الى هذه الاقطار، ومن والده الملكي، مما وصل الان الى سبع مرات بالفعل) فاني بخضوع أنهي الى صاحب الجلالة هذا، والى المجلس الاستشاري الموقر، مبتهلا الى الله أن يحفظه

جون هرسون 15 يلية 1631

يظهر أن هذا التقرير، كان له أثره الفعال، فقد رشح جون هرسون لسفارة أخرى في الثالث من شتنبر سنة 1631، وكانت هذه السفارة ثامنة السفارات التي توجه فيها نحو المغرب، أما موضوع هذه الاخيرة فكان بعض المشاكل البحرية التي تشبت بسلا، وما نجم عن ذلك من الاختلافات، وتخليص بعض الاسرى الانجليز هناك، والتداول مع الملك الجديد مولاى الوليد في بعض المشاكل الاخرى، وقد حمل الى هذا الملك رسالة من شرل، وهذه ترجمتها :

شرل، بفضل الله، ملك بريطنيا العظمى، وفرنسا وايرلندا، حامي الايمان الخ

الى الاسمى الامجد مولاى الوليد، امبراطور مراكش وملك فاس وسوس

ابعث بتحياتي :

وبعد فاننا صادرين عن رغبتنا الملكية، في تجديد وتمتين المودة والصداقة المبرمة بين أسلافنا وبين جميع الملوك الاخرين، كنا قد بعثنا رسائلنا الملكية الى كل من والدكم وأخيكم المتوفين، الشهيرى الذكر، ونكاتبكم كذلك في خصوص تلك التجارة العظيمة التي كانت لتجارنا فيما مضى، وما زالت مع رعاياكم في تلك الجهات، وفقا لمصالحنا المشتركة، وكذلك بخصوص المطلب الصادر، بخضوع عن رعايانا المساكين، الذين يلقون الشدائد، وقد قضوا مدة طويلة جدا مستبعدين في بلادكم، وما زالوا معتقلين بدون أى سبب عادل، ومع هذا فاننا مازلنا متاكيدين، من الحظوة التي لنا، ونأملها لهم ولغيرهم من رعايانا .

ولهذا وقد سمعنا أخيرا ان الله قد رفعك، بكل سعادة، الى دست الحكم وقد ورثت الملك في تلك الممالك الشهيرة بافريقيا، مما سررنا منه جد السرور، واعتقدنا اعتقادا حسنا، في أنكم ستولون هذه القضايا التي سبق ذكرها اهتمامكم، فمع هذه التهنئة ببداية عهدكم السعيد، نبعث اليكم من جديد خادمنا جون هرسون (الذى قد استخدمناه فيما قبل) ليتداول معكم أيضا حول تجديد تلك الصداقة القديمة وتوطيدها نهائيا بالسلام والتجارة التي كانت بين أسلافنا، الشهيرى الذكر، ورعايانا والتي نحن من طرفنا سنكون مستعدين جدا لرعايتها، آملين المثل منكم ومن رعاياكم، وتمكيننا من البرهان على ذلك، ولا شك أنكم بما جبلتم عليه من حرية ونبل، ستطلقون سراح رعايانا المذكورين، كما أننا فاعلون من وقت لاخر في حق رعاياكم الذين يصلون الينا مستغيثين من اسبانيا وجهات اخرى، فنبعث بهم الى ديارهم في سفننا التجارية، مستجيبين في ذلك لرغباتهم أنفسهم

والى جانب ذلك فاننا سوف نستجيب الى ارضائكم في كل تلك المناسبات الشبيهة فيما بعد، وسيوافيكم خادمنا المذكور بمقتضى ذلك الارضاء، الذى نرجوكم أن تتفضلوا بالمصادقة عليه

وعلى هذا نستودعكم الله القدير

صدر بقصرنا بوستمنستر، في التاسع عشر من يليه (29 منه) من سنة سيدنا 1631.

لقد وصل هرسون الى سلا في الخامس والعشرين من شتنبر هذه السنة، وعلى وصوله كان موريسكوس هذه المدينة في منتهى التحرش والاهتياج، وذلك بسبب اعتداء آخر جديد، وقع عليهم من قرصان الانجليز، فلما علم بذلك هرسون توقف عن النزول من السفينة، التي ظلت راسية به الى اليوم الخامس عشر من أكتوبر، ولم يجازف بنفسه، فتحول من هذا الميناء الى آسفي التي لم يصلها الا في اليوم الخامس عشر من نونبر، بسبب الرياح التي كانت تعاكس اتجاه السفينة، وبعد يومين من هذا التاريخ توجه الى مراكش، حيث كانت له مقابلة مع مولاى الوليد، تفاوض فيها معه مفاوضة انتهت بفصل بعض القضايا، والى مشروع عقد اتفاقية وافق عليها الوليد كما ياتي :

1 - اننا نعاهد ونعد ملك بريطنيا العظمى، أن التجار الانجليز ووكلاءهم وعملاءهم أو أى شخص آخر منهم سيكونون أحرارا في تصرفاتهم، ومزاولة طقوس دينهم، في جميع مملكتنا، بدون أن يتعرضوا الى أى نوع من الازعاج، كما كان عليه الحال أيام جدنا، مولاى أحمد الشهير الذكر .

2 - انه انه على الانجليز مهما كانوا، تجارا أو غيرهم، ان يتوجهوا بدعاويهم، والاجابات المتعلقة على الدعاوى المرفوعة عليهم، الى محاكم هذه البلاد، ويعفون أيام سبتهم

3 - ان كل الاختلافات الجنسية أو المضايقات مهما حدثت قبل بين رعايانا وبين رعايا ملك برطنيا العظمى سيصفح عنها وتتناسى .

4 - ان جميع الاسرى الانجليز، سواء منهم من كان بمراكش وآسفي وسلا، ومن كان باى بلد من البلاد التي هي تحت سلطاتنا، سيحررون ويوذن لهم في العودة الى بلادهم، وان أى انجليزى ياتي بعد الى مملكتنا سيعامل معاملة الاصدقاء، ولهؤلاء الانجليز الجنسية أن ياتوا ويذهبوا كما يحلو لهم

5 ـ اذا حدث أن أناسا انجليز أسروا وأخذت بضائعهم بواسطة عدو لهم في البحر وجلبت الى مرسى من مراسينا، أو مرفأ تحت سيادتنا، فان أولئك الانجليز يمكنون من الحرية، وترد عليهم سفنهم وبضائعهم

6 – اذا أية سفينة انجليزية أسرها اعداؤهم، أو أي كان وهي في مراسينا، فان الذين هم من ذلك الجنس المعادي قاطنين عندنا سينصفونهم

7 – اذا أية سفينة انجليزية أو قارب قذف بهما، بحادثة ما، كالرياح الهوج مثلا، أو غيرها على شواطئنا، أينما كانت، فانهما سيقابلان بكل ود ومجاملة، ويكون كل من رجالهما وبضائعهما في سلامة، ويتصرف أصحاب البضائع فيها بكل حرية وارادة منهم .

8 – انه سيسمح لكل سفينة انجليزية أن تتزود في حرية، وتاخذ الحطب والماء، من أي مكان من مملكتنا أينما كان ويؤدي أصحابها ما يطلب منهم من واجبات الجمرك المعتادة ، والواجبات الاخرى، كما كان عليه الحال أيام مولاي احمد

9 – أنه سيكون قانونيا لكل تاجر انجليزي، أن يتاجر داخل مملكتنا، ومراسينا، مثل تطوان وسلا وأزمور وآسفي، ومازغان وموغدور وأغدير، ولا زائد على ذلك، مؤدين في كل مرسى لرجالنا الواجبات والاعشار المعهودة، حسب السلع التي سينزلونها الى البر، في أية ميناء من المواني التي سلف ذكرها، وانه سيكون مسموحا قانونيا للتجار المذكورين أن يصدروا من أي مرسى الذهب التبر والذهب الغير مطبوع، ولكل بضاعة سيحملها التجار المذكورين على سفنهم، مصدرينها من أي مرسى من المراسي المذكورة، واجبات وأعشار عليهم ان يؤدوها وحدها ولا شيء زيادة عليها

10 – انه لا تكتب شهادة لرعايانا بالاجبار أو أي تاثير، فيعمل بها في محاكم العدالة، ضد أي تاجر انجليزي عدا ما يكون موقعا منه على المكتوب المصادق عليه

11 – الحادي عشر، انه سيكون ممنوحا لجميع التجار الانجليز، أن يشتروا ويبيعوا أية سلعة داخل مملكتنا، في حرية وللمغاربة المثل يعملونه في انجلترا

12 – ان الاعلان الذي يعمل في كل مدينة، من مدن مراكش، وباقي المواني الاخرى المذكورة، يقضي بألا تاجر انجليزي ولا غيره من ذلك

5 ـ اذا حدث أن أناسا انجليز أسروا وأخذت بضائعهم بواسطة عدو لهم في البحر وجلبت الى مرسى من مراسينا، أو مرفأ تحت سيادتنا، فان أولئك الانجليز يمكنون من الحرية، وترد عليهم سفنهم وبضائعهم

6 – اذا أية سفينة انجليزية أسرها اعداؤهم، أو اى كان وهي في مراسينا، فان الذين هم من ذلك الجنس المعادي قاطنين عندنا سينصفونهم

7 – اذا أية سفينة انجليزية أو قارب قذف بهما، بحادثة ما، كالرياح الهوج مثلا، أو غيرها على شواطئنا، أينما كانت، فانهما سيقابلان بكل ود ومجاملة، ويكون كل من رجالهما وبضائعهما في سلامة، ويتصرف أصحاب البضائع فيها بكل حرية وارادة منهم .

8 – انه سيسمح لكل سفينة انجليزية أن تتزود في حرية، وتاخذ الحطب والماء، من أى مكان من مملكتنا أينما كان ويؤدى أصحابها ما يطلب منهم من واجبات الجمرك المعتادة ، والواجبات الاخرى، كما كان عليه الحال أيام مولاى احمد

9 – أنه سيكون قانونيا لكل تاجر انجليزى، أن يتاجر داخل مملكتنا، ومراسينا، مثل تطوان وسلا وأزمور وآسفي، ومازغان وموغدور وأغدير، ولا زائد على ذلك، مؤدين في كل مرسى لرجالنا الواجبات والاعشار المعهودة، حسب السلع التي سينزلونها الى البر، في أية ميناء من الموانى التي سلف ذكرها، وانه سيكون مسموحا قانونيا للتجار المذكورين أن يصدروا من أى مرسى الذهب التبر والذهب الغير مطبوع، ولكل بضاعة سيحملها التجار المذكورين على سفنهم، مصدرينها من أى مرسى من المراسي المذكورة، واجبات وأعشار عليهم ان يؤدوها وحدها ولا شيء زيادة عليها

10 – انه لا تكتب شهادة لرعايانا بالاجبار أو اى تاثير، فيعمل بها في محاكم العدالة، ضد أى تاجر انجليزى عدا ما يكون موقعا منه على المكتوب المصادق عليه

11 – الحادى عشر، انه سيكون ممنوحا لجميع التجار الانجليز، أن يشتروا ويبيعوا أية سلعة داخل مملكتنا، في حرية وللمغاربة المثل يعملونه في انجلترا

12 – ان الاعلان الذى يعمل في كل مدينة، من مدن مراكش، وباقي الموانى الاخرى المذكورة، يقضي بألا تاجر انجليزى ولا غيره من ذلك

الجنس سيساء في معاملته، بكلمة سيئة أو غيرها، من المظالم التي يمكن أن تصدر عن أى كان من رعايانا، وعليه فان حصل مثل تلك الاهانة، فان الطرف المسيء أو الحي الذى ارتكبت فيه تلك الاهانة، سيواخذ ويعاقب كما كان الحال أيام مولاى أحمد

13 – اذا أى تاجر من التجار الانجليز أو غيره من ذلك الجنس، كان مسافرا داخل بلادنا، وتعرض لاى جور أو اعتداء أو سرق منه متاعه بواسطة أحد من رعايانا، فاننا نعد بتعويضنا لقيمة ما خسروه أو تضرروا به، كما كان يقع قبل أيام مولاى أحمد

14 – اننا نعد ونوافق على أنه، في حالة ما اذا توفي انجليزى بدون وصية، في أى جهة من ممالكنا، فان ديونه تثبت في لائحة يحافظ عليها، فتسلم البضائع والديون الى اثنين أو ثلاثة من رؤساء التجار الانجليز المقيمين هنا، وهم يمكنوننا من الالتزامات التي تقضي بأنهم يسلمون ذلك الى ورثته الحقيقيين الذين ينوبهم ذلك الارث حقا

15 – أنه كل من اشترى أو باع أو أتى بأية سلعة أجنبية، سواء داخل بلد مدينتنا مراكش، أو أى مرسى من مراسينا المذكورة، فانه سيكون تحت عقوبة المصادرة، ان لم يدل بشهادة رجال الجمرك أو ضباطنا المعينين في المرسى المذكور، بأنه قد أدى واجبات الجمرك، التي تنوبنا في السلع المذكورة، وقد استنفدت منه من ذى قبل

16 – في حالة ما اذا ارتكب حيف في حق التجار الانجليز، أو غيرهم هنا في مراكش، أو في أى مكان آخر من مملكتنا، او تعرض لاى سبب آخر يتعلق بالمعاملة، فان ارادتنا الملكية، تقضى بان التجار المذكورين سيتمكنون من المثول في حضرتنا، مرة في كل أسبوع، أمامنا او أمام بعض القواد (الحكام) الذين سنعينهم لذلك

وأخيرا فاننا نعد ونتعاهد على ما هو أكثر معروفا وامتيازا مما له تعلق قديما بالشعب الانجليزى، وبذلك فلدينا منذ الان اهتمام خاص بهم، فيعرض علينا كل ما له تعلق بملك انجلترا العظمى ورعاياه، وسنكون على استعداد في كل وقت لنصادق عليه ونثبته، كما نتوقع ونامل المثل من ملك انجلترا العظمى، فيما يتعلق بنا وبرعايانا، وذلك كعربون يقدم للابرام النهائي لذلك السلام الذى بيننا قديما، والاتجار الذى يرغب في استمراره، حسب ما في رسالته الموجهة الينا، بواسطة خادمه جون هرسون، الذى

قد استقبلناه بكل ود ومحبة، وبتاييد الله سيلحظ هذا حقيقة ويراعي في وقته المقرر بكل احترام .

وان هذه الفصول لتكون لها فعاليتها، فتقدم الى جميع المراسي العديدة، التي ذكرت أعلاه، فيعمل على مقتضاها هناك، وكذلك في مدينتنا الملكية مراكش، فور ما تقع المصادقة على اتفاقيتنا وأوامرنا التي وجهناها مع جون هرسون المذكور، لتمضى من طرف الملك المذكور هناك، لتكون معمولا بها كذلك في انجلترا، في نفس الوقت الذى ياتي فيه التجار الانجليز ليتاجروا عندنا بكل حرية كما كانوا فيما قبل هنا، بدون أى اجحاف من أى كان، كما هو في هذا الاتفاق .

(التاريخ بين 16 نونبر سنة 1631 وفبراير سنة 1632)

لنقف عند هذا الحد من تاريخ بلادنا السياسي، ونختم وثائقنا بهذه الوثيقة التى تشبه الى حد ما تلك الوثيقة التي ختمنا بها المجموعة السالف نشرها في العدد المتقدم، وهذه الوثيقة كتبت عن مغامر انجليزى، سبق له أن زار المغرب سنة 1604، وقد كتبت هذه الوثيقة بعد سنة 1626، كما يفهم منها نفسها، والى القارىء ترجمة نصها :

الفصل 17

(ملاحظات القبطان سميث ومستر هنرى أرتشر (70) Henry Archer وآخرين في المغرب) وهكذا وقد اكتفينا من أوربا وآسيا، عالمين بالحروب في المغرب، فانه سار من جبل طارق الى سبتة وطنجة، ومن هناك الى آسفي، حيث انجذب الى معرفة رجل فرنسي من رجال القرصنة، فذهب القبطان واثنا عشر رجلا معه الى مراكش، لمشاهدة الاثار القديمة لتلك المدينة الفسيحة الشهيرة الصيت، وكانت احدى المدن الرئيسية بالمغرب، مقامة على سهل في أرض طيبة، بعيدة عن جبل الاطلس الاعظم، وعن المحيط الاطلسي بستين ميلا، ولكن الان ليس هناك من الاثار الباقية الا القليل، والقصر الملكي (71) الذى هو مدينة باستقلاله، والكنيسة المسيحية (72) القائمة في الميدان ومسلتها التي هي عبارة عن مشبك حديدى، حيث ركز ثلاث كور ذهبية افريقية (73) والاولى تقرب من ثلاث أذرع في محيط دائرتها، والثانية

فوقها أقل منها نوعا أما العليا فهي أقل منها، كأنها كانت تصف كرة، وفوق الجميع هرم ظريف مموه بالذهب، ومقابل هذه الكور الذهبية هناك عدة اصابات عيارية كانت قد رمي بها، ويقال ان زنتها تبلغ 700 مثقال من خالص الذهب، مجوف داخلها، ومع هذا فلم تحدث فيها أية طلقة ضررا، ولا استطاع أى متامر أن ينال ذلك الشرف بان يلقيها أرضا، ويقال أن أمير مراكش خطب لنفسه بنت ملك أثيوبيا، فمات قبل الزواج، فأمرت بأن ترسل هذه الكور الذهبية الثلاث لتوضع تذكارا له، ونذرت أن تقضي حياتها عذراء .

والفندق أيضا من الاماكن الشهيرة فهو محاط بأسوار شاهقة، حيث توضع بضائع جميع التجار في أمان الحراسة، وكذلك حارة اليهود، كأنها مدينة قائمة بنفسها، حيث يسكن اليهود، والباقي من القسم الاغلب، قد اندثر، ولكن بواسطة عدة أبراج وحصون على قممها الكور يبدو كثيرا ما كانت عليه من نفاسة ومهارة .

لقد كانت هناك عدة جامعات شهيرة جدا، وليست هي الان الا اسطبلات تاوى اليها البهائم والطيور، وقد سقطت الدور في أعظم قسم رأسا على عقب الواحدة فوق الاخرى، والاسوار الطينية في أعظم مجار للمياه الباردة جرفت أرضا دكا، وليس هناك أية قرية بها، الا الخيام للغربا، والعرب المغاربة (9) .

وانها لقصة عجيبة يقصونها حول الحديقة العظمى، حيث يوجد جميع أنواع الطيور، والحيتان، والحيوانات، والفواكه والعيون، التي هي لجمالها، وفنونها ومباهجها، تنيف على كل مكان مشهور في العالم، وان كان الان لا شىء الا الدمن وأبراج الحمام ونبات النجوم والعليق، ومع هذا فهناك منابع للمياه عظيمة، مزخرفة بالرخام، وكثير من الأقواس، والاسطوانات، والحصون والبوابات والهياكل ولكن اغلبها ليس الا آثارا من الخرائب المفجعة والدمار المحزن .

حينما كان مولاى احمد يحكم المغرب، كان له ثلاثة أولاد، مولاى الشيخ، ومولاى زيدان، ومولاى أبو فارس، وكان أطيب ملك وأنبله حكم حكما صالحا في أمن وسلام ورخاء، الى أن كانت زوجته الاميرة أقسى من أى حيوان بافريقيا قسمته وابنته الوحيدة، أما مولاى الشيخ ابنه الاكبر فقد ولد له من سيدة برتغالية (74) وابنته، وأما مولاى زيدان فتمكن من التاج، وهو الان

متملك، مما كان سببا في جميع هذه المشاغبات والحروب، التى تتابع بين هؤلاء الاخوة، وأولادهم، والولي (75)، الذى نجم ناهضا، ولكنه كان يمثل الشيطان .

لم يكن السلطان مولاى أحمد أسود، كما يظن الكثيرون، ولكنه كان أسمر، أو أصحر، كما هم أغلب رعاياه، وكان شريفا في كل شيء شفوقا ودودا، غنيا جدا وذا أبهة في حكومته وملكه، وان لم يجلس على عرش ولا كرسي المملكة، بل كان يقعد القرفصاء على زربية فاخرة، كما يفعل السلطان التركي، ودينه محمدى، مع فضول بئيس لا يمكن أن يصدق وهم يرعونه، وحرسه المعتاد يتكون على الأقل من 5.000 ولكن الجيش العامل لا يقل عن 20.000 من الفرسان، وهو نفسه متفوق في بطانته، كما يكون أى أمير في الممالك المسيحية . ومع هذا فانه مكاتب للسلطان الترك ومراسل له

وفي جميع مملكته لا يوجد الا قليل من رجال الصناعات، ولهذا فانه يستقبل من انجلترا رجال الصياغة والصناعة في الرصاص والنحاتين والصقالين للصخور والاحجار وصناع الساعات، وهو معجب جدا مهتم بتعليم الصناعات وترقيتها واصلاحها فهو يمنح كل واحد منهم عشرة شلينات يوميا، أجرة ثابتة، والكتان والاصواف، والحراير وما يكون مرادا لهم لطعامهم وكسوتهم، وهم معفون من الرسوم الجمركية، سواء في الاستيراد والتصدير لكل ما يرغبون فيه، لأنهم هناك نادرا ما يضاهيهم أى شخص من مملكته، ولكن هؤلاء الذين كانوا هناك، كثير منهم يعيشون الآن في لندن، وبين الباقي رجل يدعى مستر هنرى أرتشر «الساعاتى» كان يذهب في مراكش من الفندق الى الملاح، وبما أن الطريق رديء جدا ولقي وليا عظيما أو قسيسا (وهم يسمون كذلك جميع الكهان) به فانه أراد دفعه الى الوثب في الطريق، ولكن أرتشر، وهو لا يعلم من هو، لطمه على أذنه بجمع كفه وفي الحين كان قد قبض عليه، وحكم عليه بقطع لسانه، ويديه، ولكن سرعان ما علم ذلك في قصر الملك، فأتى 300 من حرسه، وكسروا مغلاق السجن، وخلصوه وان كانت الحقيقة في المرتبة التالية للغدر .

وفيما يخص أرتشر هذا، فهناك شيء أكثر قيمة ملحوظة، فانه ليس بعيدا عن جبل الاطلس كانت توجد لبوءة عظيمة، اعتادت في رابعة النهار أن تتبرد بالماء وتعلم جراءها الصغار العوم، في نهر تنسفت، في أوسع جزء منه ومع هذا فانها كانت تحملها الواحد بعد الاخر فوق النهر، بحيث ان بعض المغاربة حسبوا ذلك وانتهزوها فرصة، فلما كان النهر بينها وبينهم،

أخذوا أربعة من اشبالها، مما جعلها تعود لما أدركت ذلك، في أعظم سرعة استطاعتها، وعبرت النهر، فأتت قريبا منهم، فتركوا شبلا، وفروا بالباقي، فأخذته بشدقها، ثم عادت للباقي . وقد أعطوا ذكرا وأنثى من هؤلاء للمستر أرتشر، فاحتفظ بهما في حديقة الملك، الى أن قتل الذكر الانثى، حينئذ أتى به وهو كجرو كلب، ووضعه على سريره، الى أن نما كبيرا مثل كلب قوى، ولم يكن هناك كلب أكثر الفة ووداعة اليهم منه، ولكن لما كان عائدا الى انجلترا من آسفي، أعطاه الى تاجر من مرسليا، فأهداه هذا الملك الفرنسي الذى ارسله الى الملك جمس، فاحتفظ به في الحصن Tower سبعة أعوام، وبعد ذلك كان رجل يدعى مستر جون بول John Bull كان هناك خادما للمستر أرتشر، مع عدة من اصدقائه، قد ذهب ليرى الاسود، ولم يكن عالما بشيء حوله تماما، ومع هذا فان هذا الحيوان الوحشي اشتمه قبل أن يراه فعوى وزمجر وتمرغ بذلك التعبير الذى جعله يتنبه لذلك، وقد أعلم من قبل القائم عليه كيف أتي به هنا فاقنع مستبول Bull الحافظ بأن يفتح الشباك الحديدى فدخل بول، فلم يكن كلب قد تملق سيده كما فعل هذا الاسد، لا حسا رجله ويديه، واثبا متمرغا من أمامه وخلفه، مما أعجب اكثر الناظرين فلما اقتنع بمعرفته، جعل يتحايل للخروج من الشباك، ولكن لما رأى الاسد أن صديقه قد ذهب، لم يكن هناك حيوان بجؤاره، وزئيره، ونكثه وعوائه، استطاع ان يعبر أكثر غضبا وحزنا، مثله، فلم يرد أن ياكل أو يشرب طيلة أربعة ايام بعده

وأسود الملك بمراكش مجتمعون في قصر، مكتنفين بأسوار جد عالية، وقد وضع هناك جرو صغير، مع الاسد الاعظم الذى له قرحة في عنقه، فكان هذا الجرو يلحسها، وأخيرا فاته عولج بذلك، فكان الاسد يدفع عنه عاديات باقي الحيوانات، فلا يجرؤون على الاكل حتى ياكل الجرو ويطعم، وقد ترعرع هذا الجرو عظيما، وعاش بينهم عدة سنوات بعد

وفاس أيضا من الأقطار العظيمة الواسعة والبلاد الخصبة ومدينتها الرئيسية تدعى فاس، مقسمة الى قسمين، فاس القديمة التي تحتوى على نحو 80 الف ساكن . أما الآخرون 4.000 الف فيعيشون في هناء حول النهر، الذى يشق المغرب، بعض على الروابي والجبال وبعض في السهول، وهي آهلة بالناس وأنواع التجارة، وأعظم معبد فيها يدعى القرويين، وفي عرضه سبعة عشر قوسا، وفي طوله 120 محمولة بـ 2500 من أعمدة الرخام الابيض، وتحت القوس الرئيسي، حيث تعقد محكمة القضاء، معلق أعظم سراج محاط بـ 1100 أصغر،

وتحت الاخرى علقت سرج عظيمة، وفي بعضها يوقد ثلاث عشرة مائة مصباح، ويقال انها كلها صنعت من النواقيس التي أتى بها العرب من اسبانيا وله ثلاث من الابواب الشاهقة الطول، والكهان والسدنة كثيرون، أما دورة المعبد، والصحن والدور الاخرى، فاقل في الجملة من ميل ونصف في الدائرة .

وفي هذه المدينة 200 مدرسة، و 200 خان، و 400 طاحونة ملينة، و 600 قناة مائية، و 700 معبد ومسجد، ولكن خمسين منها أكثر تأثيثا في فخامة وترف، أما القيسرية أو Burse فانها مسورة بسور يحيط بها، ولها أثنا عشر بابا، وخمسة عشر ممشى مغطاة بالمظلات، لتقي التجار والذين ياتون هناك لفح الشمس، وقصر الملك، جميل وحصين، لدرجة متناهية، والسكان لهم كثير من المزايا العظيمة

وهاتا الناحيتان، فاس ومراكش هما أحسن جهات المغرب، آهلتان بالناس، والماشية وكل الحاجيات الجديدة لاستعمال الناس، أما الباقي مثل العروبية وأهل الجبال، وممالك كوكو Cocow والجزائر وطرابلس وتونس ومصر، فان لها تواريخ عدة في مختلف اللغات، خصوصا ما كتب منها ذلك الكاتب العظيم رجل الدولة، جون دى لو John de Leo الذى أصبح مسيحيا بعد (76) . والبلاد المجهولة من غنيا وبنى Binne (77) كانت هذه الست والعشرين سنة قد اكتشفت ببعض السفن الانجليزية، وكانت لمجرد الاتجار، خصوصا نهر السينيغا، وكان ذلك بواسطة القبطان بريمتد، والقبطان بروك Brockit والمستر كرمب Grump وآخرين مختلفين، وكذلك النهر الاعظم لغمبرا Gambra اكتشف بالقبطان جوبسون Jobson الذى عاد هناك مرة أخرى سنة 1626 مع المستر وليم غرنت Grent وثلاثين أو أربعين آخرين، للمكوث في القطر، واكتشاف بعض الطرق الى هذه المعادن الغنية لغاغو Gago أو طومباطو Tumbatu من حيث يظن أن مسلمي (9) المغرب قد حصلوا هناك على الذهب والحقيقة في هذه الاوصاف المكتشفة والواقع في هذه الجهات الداخلية، تزداد يوميا أكثر، والمساحة الجنوبية للداخل هي أكثر مما قد صححوه، فبالتاكيد أن هذه الجهات الداخلية لافريقيا معروف منها القليل سواء للانجليز والفرنس والالمان، وان كانوا قد استعملوا كثيرا الشواطىء فلهذا نعرف قليلا من الملاحظات الجريئة للبرتغال .

الفصل 28

الحياة السيئة والوضعية للقراصنة، وكيف علموا الاتراك والمغاربة (9) أن يصبحوا رجال قرصنة

والآن بما أن هؤلاء نشأوا مبغضين لجميع الملوك المسيحيين، فانهم لجأوا الى المغرب، حيث انه وان لم يكن هناك كثير من المراقيء الصالحة، الا أن تونس والجزائر وسلا والمعمورة وتطوان، فيها مسالك هامة تفضي الى البحار المفتوحة، التى فيها سيادتهم الرئيسية، وأحسن مرافئهم «ماس الكبير»، ومدن وهران، ومليلية، وطنجة وسبتة، الواقعتين في المضيق (لجبل طارق) والمملوكتين للاسبان، وغير هذه فلهم أيضا أصيلة ومزكان (الجديدة) وكذلك امتلكوا المعمورة منذ قريب ، وحصنوها.

وكان ورد Ward وهو بحار انجليزي فقير، ودنسكر Dansker وهو جرماني، أول من اتخذ هنا سوقا لهم، بينما تعلم المغاربة (9) بالكد كيف يبحرون بسفينة، وكان بيشوب Bishop قديما قد أحدث بعض الضرر، الا أن ايستون Easton كسب كثيرا وأقام نفسه مركيز في سفوى Savoy ، وقد عاش ورد مثل «باشا» في المغرب، فهؤلاء كانوا أول من علم المغاربة (9) أن يكونوا رجال قرصنة، كننغ Gennings وهريس Harris وطومبس Tompson قد توفوا في وبنغ Wapping هوس Hewes وبو Bough وسميث Smith وسنجام Walsingam واليس Ellis وكولنس Collins وسكولل Sawkell وولستون Wollistone وبرو Barrow وولسن Wilson وسيرس Sayres وآخرون عديدون، كانوا جميعا قوادا بين القراصنة، فعفا عنهم الملك جمس برحمة وشفقة، ولم يكن ذلك غريبا، أن من هؤلاء كانوا سيسيطرون على البحار، بالرغم من أن الملطيين، والبابا، الفلورنسيين والجنوبيين والفرنس والجرمان والانجليز، كانت سفنهم وقراصنتهم، تنهب أمام اعينهم، بل حتى في مرافئهم أنفسها، نعم انه كان في النادر أكثر من ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة في الاسطول، وفي كثير من الاحيان كانت لهم سفن جيدة، ومجهزة حسنا، ولكن عموما كانت تحدث الشغب بينهم أنفسهم، ولهذه المشاغبات، والخصومات والمخاترات والمشاحنات والرذائل، كان أكثر من أن يكون عجيبا أنهم أستطاعوا أن يتابعوا عملهم طويلا جدا فيرتكبوا عدة أخطاء كثيرة، وجميعهم قد نالوا، وانهم بخسة أشاعوا ذلك بين اليهود، والاتراك، والمغاربة (9) والزواني .

التعليقات

(1) هو Sir Francis Nethersole (انظره في السلسلة الانجليزية ج 2 رقم 516 تعليق 2).

(2) George Calvert هو لورد بلتمور الأول Lord Baltimore .

(3) يوجد نصها الاسباني في الصفحة 522 — 524 من المصدر السالف الذكر.

(4) هو ربان (قبطان) احدى السفن الانجليزية.

(5) بل هو كذلك قبطان احدى السفن الانجليزية.

(6) كان قنصلا لانجلترا بجبل طارق.

(7) يشير الى حصار عبد الله بن الشيخ السعدى لتطوان، وقد حدث سنة 1618.

(8) تاجر انجليزى كان في تطوان من المتصلين بأحمد النقسيس.

(9) استعمل كلمة Moors يريد بها المغاربة، وفي بعض الاحيان يريد بها المسلمين.

(10) هو مولاى محمد المعروف بزغودة، أخو مولاى عبد الله، الذى ثار عليه واحتل فاسا في شهر شعبان عام 1028 (كما في النزهة والاستقصا).

(11) جزر في الجنوب الغربي لانجلترا.

(12) كان ذلك في عهد فليبي الرابع، يوم 6 نونبر سنة 1625.

(13) كتبت ما بين 13 ينيه و 30 يليه من السنة 1625.

(14) كتبت في نهاية سنة 1625.

(15) علق دوكستر على هذا تعليقا هاما ذكر فيه أن رسالة حررت بـ 20 نونبر 1626 تقضى لهرسون بانابته. وهى في المتحف البريطانى مرقمة بـ 21993.

(16) كان مولاى زيدان قد أقامه قائدا على الرباط هو والزروري، ثم طردهما أهل الرباط.

(17) لعله لورنس ريال أو ملازمه الاول القبطان كود (انظر السلسلة الاولى للاراضي الواطئة، الجزء 4 ص 164 ت 1).

(18) فاتح رمضان من هذا العام 1036، يقابل 16 مايه من سنة 1627 .

(19) هو الصوم الكبير عند المسيحيين .

(20) يشير الى ما ورد في سفر التكوين .

(21) يشير الى رؤيا السبع بقرات سمان ياكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات .

(22) هو تشرلس برط Charls Barett أحد التجار الانجليز .

(23) Vassal كذلك تاجر انجليزي (انظر الجزء الثالث من السلسلة الانجليزية ص 35 ت ـ 4) .

(24) نص تعبيرهم بالاسبانية هكذا por amor de la gente وفسره بالانجليزية هكذا for feare of the people فاعتمدنا الترجمة، وان لم توافق النص .

(25) كان أعضاءها، محمد بن عبد القادر بركنو، وابراهيم بن شعيب بركاش، وعبد الله بن علي القصري، ومحمد بلانكو، وبلقاسم بلانكو، وعبد الله جعفر ؟ ومحمد بيبور ؟، وموسى عطية، ومسعود بن علي، وعلي بن حسين، وابراهيم بلافريج، ومحمد غزمان ومحمد بن عمرو، ومحمد سليطن (انظر في هذا وثيقة اسبانية نشرت في الصفحات 16 ـ 20 من الجزء الثالث للسلسلة الانجليزية) .

(26) في النص «ترك» وقد كانت كلمة الأتراك تعني عموما، على ذلك العصر، المسلمين، لكن فيما يخص وثائقنا، فان المسلمين في الاقاليم المغربية، يعبر عنهم غالبا باسم «المور» Moors وفي الأقاليم التركية باسم «ترك» Turks .

(27) هو أحمد أبو علي الذى سيصبح سنة 1631 مقدم تطوان بتاييد العياشي له، وربما اغتيل سنة 1638، ثم عاد الحكم الى عائلة النقسيس بتولي محمد بن عيسى منهم (انظر الجزء الاول من تاريخ تطوان) .

(28) هو ابراهيم بن واش اليهودى الذى كان في خدمة زيدان .

(29) يشير الى الرسالة التي نشرناها في العدد السالف، وكان تاريخها ثاني محرم عام عشرين والف (17 مارس سنة 1611) .

(30) كان ذلك كما سبق أيضا يوم 20 مايه سنة 1612 .

(31) سبق أن هذه الموقعة كانت يوم 30 نونبر سنة 1613 .

(32) التعبير بالأصل : « nefando officio » وهذه التهمة لم نجد غير هرسون من يلحقها بزيدان، فان ذكر شيء من ذلك كنا نجد اليفرني أول

من يسجله، خصوصا أنه لم يات له بترجمة مشرقة، كما فعل مع عمه عبد الملك ...

(33) يوم 4 مارس من سنة 1626، موافق 6 من جمادى الثانية عام 1035، وكانت وفاته بقصبة تارودنت (انظر نزهة الحادى) .

(34) قد أشار هرسون الى هذا في تقريره السابق في صفحة 46

(35) قد تردد هذا الحادث في عدة رسائل وتقريرات لهرسون، وقد أشرنا الى ذلك في العدد السابق (انظر السلسلة الأولى الفرنسية الجزء الثاني صفحتي 541 ـ 542، والجزء الثالث صفحات 33 ـ 38) .

(36) هي جزيرة Lanzarote من أرخبيل جزائر كنارياس، وقد تردد ذكرها فيما نشرنا من وثائق أولا .

(37) يريد مولاى عبد الملك، الذى بويع بعد وفاة أبيه .

(38) Sir Henry Marten كان قاضيا للأمير الية، وقد وجه رسالة بتاريخ 5 دجنبر سنة 1626، الى السيد نيكولاس، أمين السر بقصر بكنكهام ينبهه فيها الى ما صدر عن مجلس الوزراء بتاريخ 30 نونبر، في وجوب اعتبار أهل سلا الثائرين على السلطان بمثابة القراصنة، ويلح السير هنرى مارتن، على أنه يكفي ـ بدون التخلي عن المتاجرة مع سلا ـ تحرير رسالة اثابة لجون هرسون، يجعل الغرض الرئيسي فيها تحرير الأسرى الانجليز.

(39) ديانا الاهة القنص والصيد، عند الاغريق الأيونيين، أما الافسيون فنسبة الى أفسى، المدينة القديمة في ايونيا بآسيا الصغرى حيث أقيم هيكل ديانا، وكانت المركز الرئيسي للاغريق القدماء . وعبارة هرسون هكذا Great is Diana of the Ephesians! ويبدو أنها مثل مأثور .

(40) كان جلس بين قد قدم باسم شرل الى عبد الله النقسيس بعض المدافع والأعتدة الحربية .

(41) كما نجد ذلك في رسالته المنشورة بصفحة 128 ـ 129 من العدد السابق .

(42) كان نص الرسالة بالاسبانية، ولكنها بدئت «بالحمد لله وحده»، وانتهت بعبارة «وكتب عبد الله بن أحمد النقسيس لطف الله به» .

(43) نسبة الى هورناتشوس Hornachos في اقليم استرمادورا Estremadura والمقصود بسلا رباط الفتح الذى كان قد حل به مهاجرو الاندلس في منتصف القرن السابع الهجرى، ثم توالت عليه هجراتهم، الى أن كانت آخرها هجرة موريسكوس هوناتشوس، فصار الاندلسيون الأول يانفون منهم، ويعدونهم طبقة وضيعة دخيلة عليهم، كما نجد ذلك في بعض الوثائق الانجليزية، أما فيما يتصل باسكان الاندلسيين الاول رباط سلا،

فقد نشر الاستاذ عنان، نص ظهير الخليفة الموحدى الرشيد، نقلا عن كتاب «زواهر الفكر» وهو مخطوط في حفظ الاسكوريال، وكان ذلك الظهير من انشاء أبي المطرف بن عميرة المخزومي، ولاهميته العظمى نسوقه هنا، كما يلي :

هذا ظهير كريم امر به أمير المومنين بن امير المومنين بن امير المومنين ابن امير المومنين بن أمير المومنين، أيدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته ويسره، للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم، وعراه من غير الايام ما عراهم، حين أنهى ذو الوزارتين، الشيخ الاجل الأثير الاكرم، الأغر الافضل، أبو علي بن الشيخ الاجل الاكرم، أبي جعفر بن خلاص أدام الله تعالى أثرته وكرامته، ما أصابهم من الجلاء ودهاهم من امر الاعداء، وسعى لهم سعي من يقضي فيهم بالجوار ويلتمس لهم مكانا للقرار ومنزلا لالقاء عصى التسيار، وعند ذلك أذن لهم أعلا الله تعالى اذنه، وجدد مجده ويمنه، في النقلة الى رباط الفتح عمره الله تعالى، بقضيضهم، وقضهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم، ويعمروا منه بلدا يقبل منهم أولى من قبل، ويحملهم ان شاء الله تعالى، وخير البلاد ما حمل، فانه مناخ التاجر والفلاح، وملتقى الحادي والملاح، والمرافق من بره وبحره موجودة في فصول السنة، موذنة لقاطنه بالعيشة الهنية، والحال الحسنة، ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز، ادامه الله تعالى، من التوسعة على قويهم، كي يزداد قوة، والرفق بضعيفهم، حتى ينال يسارا وثروة، وأن يتوسعوا في الحرث، ففي أرضه هنالك متسع، ويتبسطوا في كل مالهم منه معاش وبه منتفع، ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عادتهم ببلادهم، ويتأثلوا الاملاك لانفسهم وأولادهم، واولاد أولادهم، وكل ما يعمرون من الضياع، ويقتنون من الاصول والرباع، فله حكم التسويغ على الاطلاق والدوام، لا يلزمون فيه شيئا من وجوه الالزام ولا يطلبون بغير حقوق الشرع، التي جعلها الله تعلى في أموال أهل الاسلام، وأقوالهم في مقاديرها مصدقة، وأمانيهم كلها لهم وللاحقين بهم محققة، والولاة والعمال حفظهم الله تعالى، مامرون بأن يحفظوهم من كل اذى يلم بجانب من جوانبهم، أو يعوق عن مارب صغير أو كبير من ماربهم، وان يكرموا غاية الاكرام، نبهاءهم واعيانهم، ويولوهم من حسن الجوار، ما ينسيهم اوطانهم، حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف، ويجمع لهم بين الرعاية لحرمة البلدى والعناية بحق الضيف، احسانا منه، اعلى الله تعالى امره، واوزع شكره، ينسحب على جماعتهم وأفذاذهم، ويحملهم على موجب اعتلاقهم بهذا الامر العلي، أدامه الله تعالى وملاذهم، فمن وقف عليه من الطلبة والعمال، اكرمهم الله تعالى، فليعمل بحسبه، ولا يعدل عن كريم مذهبه ان شاء الله تعالى وهو تعالى المستعان، لا رب سواه، كتب في الحادى والعشرين لشعبان المكرم، من سنة سبع وثلاثين وستمائة.

نشرت هذه الوثيقة بصفحة 737 وما بعدها من كتاب عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس (القسم الثاني) وقد وقع في بعض كلماتها تصحيف أصلحه الزميل محمد بن شريفة .

(44) هما محمد بن سعيد وأحمد بن حسين النرويز Narvaez وربما الآخران Braham Muckadem و Hamed Clavecho كما وردا في وثيقة أشار اليها دوكستر في الصفحة 73 من الجزء الثالث، للسلسلة السالفة الذكر.

(45) نص العبارة هكذا :

. called awaye on the sodaine, whither the shippe was alreddie fallen down

(46) هو محمد فنيغاس Venegas الذى سافر الى الأراضي الواطئة سنة 1629 .

(47) تقدم ذكره في تقرير هرسون، المؤرخ بـ 11 شتنبر سنة 1627 صفحة 43 و 44 .

(48) يريد بها Blanquilla وهي عملة اسبانية فضية من الفئة الصغيرة .

(49) هكذا whole culvering and demy-culvering وهي مدافع قديمة تعرف اليوم باسم culverin .

(50) لعله يريد به الوليد الذى ثار هو وأخوه محمد الشيخ على عبد الملك بعد ما تمت له البيعة، كما ذكر صاحب النزهة .

(51) انظر حول القائد سيدى الحسين السلسلة الأولى للأراضي الواطئة، الجزء الرابع، الصفحة 322، والتعليق 1 .

(52) Gago المراد بها Gao وتقع في السودان الغربي بعيدة شرقا في شرق عن مدينة تنبوكتو بـ 320 كيلو مترا .

(53) Gambra المراد بها Gambia الواقعة في جبال كيدوغو في الجنوب الشرقي للسنغال .

(54) جزائر ديزرتا تقع في الجنوب الشرقي من جزر مادرة عن بعد 30 كيلو مترا . وجزر مادرة، تضم «بوتو سنتو» وديزرتا غرندى «و» بوجيو «و» بيكسو وجزرا اخرى صغيرة .

(55) هي حاضرة جزر مادرة .

(56) «بيتر» اسم لسفينة فرنسية، كان ملك انجلترا سنة 1628، قد جعلها لهرسون مقابل بعض أداءاته، ولكنه غير أمره بأن جعل السفينة لنافس آخر، وعوض هرسون بسفينة تدعى الحظ .

(57) يريد رأس غير أو رأس رير، شمال غرب أغدير .

(58) هي جزيرة صغيرة بالساحل الغربي لانجلترا قريبة من المدخل الجنوبي لقنال برستول .

(59) هو مرسى مصب سرفرن Servern .

(60) عبارتهم : turnor de su ley .

(61) هي احدى جزر الرأس الأخضر.

(62) يعني جزر مديرا السالفة الذكر .

(63) كان هذا الأمير، هو فريد يريك الخامس، البوهيمي، أخا زوج الملك شرل، وقد عزل عن امارته بواسطة الاسبان سنة 1620، وبعد انهزام هذا الأمير في براغ، توجه الى أميركا، توفي 1632 .

(64) يشير الى أن الولايات العامة كانت ستحتلها، باذن مولاى زيدان كما تقدم .

محمد المنوني

الطباعة الحجرية الفاسية

في العدد السادس من مجلة «تطوان» (1) كنت قد أرجأت بحث هذه الطباعة حتى ينشر في موضوع على حدة .

ونحمد الله ـ سبحانه ـ الذى أعان على الوفاء بهذا التعهد ، ويسر اخراج هذه الرسالة في مناسبة طيبة، حيث انه في يوم 29 يونيه سنة 1965 م . تمر مائة سنة ميلادية على نشر أول كتاب بالمطبعة الفاسية (2)، وتحل الذكرى المئوية لانشاء اول مطبعة عربية بالمغرب المستقل .

وقد جاء تصنيف هذا الموضوع حسب الابواب الرئيسية التالية :

نشاة الطباعة وشيوعها ـ الطباعة الحجرية ـ تطلع مغربي للطباعة ـ وصول المطبعة الحجرية للمغرب ـ المطبعة الحجرية الاولى مؤسسة حكومية ـ المطبعة الحجرية الاولى مؤسسة فردية ـ مطابع حجرية جديدة :

مطبعة الحاج الطيب الازرق ـ مطبعة العربي الازرق ـ المطبعة الجديدة لابن عبد المولى ـ المطبعة الجديدة للذويب ـ المطبعة الحفيظية ـ مطبعة احمد ابن عبد الكريم القادرى ـ مطبعة الشركة المحدثة لطبع الكتب بفاس ـ ملاحق : وعددها عشرة .

نشأة الطباعة وشيوعها

ينسب اختراع المطبعة الى يوحناغو تنبرج الالماني، وقد وضعت محاولاته الاولى موضع التنفيذ منذ سنة 1450 م/«854 هـ» حيث قام بطبع أول كتاب وهو التوراة، ثم شاع اختراعه في اروبا، واخذ في التحسن حتى بلغ ماهو عليه الان .

امـا الطباعة العربيـة بالحروف . فقد ظهرت في اوائل القرن السادس عشر للميلاد بايطالية، واول مطبعة عربية وأحرفها عـربيـة . ظهـرت في فـانـو بايطالية، وهي التي دشنها البابا «ليون العاشر» سنة 1514 م/«920 هـ»، وقـد طبع فيها خلال القرن السادس عشر م عدد من الكتب الدينية المسيحية والعلمية باللغة العربية، وفي رومـة طبـع سنة 1593م/«1002هـ.» القانون و «النجـاة» لابـن سينـا في مجلـد ضخـم .

ولم تصل الطباعة بالاحـرف العربية الى الاستانة الا في الثلث الاول مـن القرن الثامن عشر م. وفي سنة 1129 هـ/1716 م أفتى شيخ الاسلام بتـركيـة : عبد الله أفندى بجواز استخـدام الطباعة في حـدود خـاصة ثـم رخص بعـد بطبـع جميـع انـواع الكتب (3) .

وكانت الطباعة العربية قد ظهرت في لبنان منذ سنة 1583 م/ 991 ــ 992 هـ، ثـم ظهرت في حلب من سورية سنة 1706م/1118 هـ، وفي سنة 1798م/1213 هـ دخلت لمصر مطابـع الحملة الفرنسية . ولمـا استقـر الامـر لمحمـد علي بـاشـا في مصر أنشا مطبعة بولاق على انقاض مطبعة بونابرت في 8 صفـر 1237 هـ/4 نوفمبر 1821م (4). ويظهر ان اول ما طبع بالعربية في شمال افـريقية . هـو صحيفة «المبشر» التـي صـدرت في الجـزاير سنـة 1847م/1264 هـ وكـانـت اللسان العربي للسلطات الفرنسية (5)، وفي تونس تأسست اول مطبعة عربية في غـرة المحـرم سنة 1277 هـ/1860م (6) واول ما طبـع بها هو «المـوطـا» للامام مـالك بـن انس الاصبحي المـدني (7) .

وفي نفس هـذه السنة الاخـيرة ــ 1860 م/1277 هـ ــ انشئت أول مطبعـة افـرنجية بتطـوان على يد الاسبانين (8). اما اول مطبعة عـربيـة استخدمها المغـاربة فكـانت هـي : المطبعة الحجـريـة العربيـة التـي سيذكـر انهـا دخلت للمغرب سنة 1281 هـ/1864 م . ثـم ظهرت بعدها بالمغـرب «المطبعـة السلكية العربيـة» . وهـذه الاخـيرة ليست من موضوع هذه الرسالـة التـي تهتـم بـ «تاريخ المطبعة الحجرية المغربيـة» بالخصوص .

الطبـاعـة الحجـريـة

وقع اختراع «المطبعـة الحجـريـة» على يد الـويـز سنيفلدر في مـدينـة مـونيـخ بـالمـانيـة . وكـان ذلك في الاربـع السنـين الاخـيرة مـن القرن الثامـن عشر للميـلاد .

أما الطبع عليها فهو يتطلب لوحات حجرية خاصة للكتابة عليها . كما يتطلب جهازا للطبع هو «المطبعة الحجرية» . وتبتدئ العملية من الناسخ الذي يكتب ما يراد طبعه بحبر خاص، وعلى ورق خاص يضغط عليه ـ بعد كتابته ـ بين ورقتين نشاشتين مبتلتين .

وحسب الطريقة التي كانت متبعة في «المطبعة المغربية» . فان الناسخ كان يكتب على الورقة كتابة مستقيمة غير مقلوبة . وبعد هذا توضع اللوحة التي يراد نقل الكتابة اليها في مكبس بعد ان يحمى . ثم تبسط الورقة عليها بطريقة عكسية . بحيث يقع وجهها المكتوب على وجه اللوحة الحجرية، ويضغطان مرارا كثيرة، فتلصق الورقة باللوحة، ثم يرطب ظهر الورقة، وتدار اللوحة وتضغط مرار كثيرة ايضا، وترطب مرة اخرى وتفرك بالانامل لكي يسهل نزعها عن اللوحة . فتنزع عنها تاركة الكتابة عليها . ثم يصب على اللوحة قليل من الصمغ . وتبل خرقة بقليل من حبر الطباعة . ويمسح بها . فيلصق الحبر حيث كانت الكتابة . وحينما تبرد جيدا يصب عليها مزيج يسير من الحامض ومدوب الصمغ مرة او اكثر، حتى اذا تنشفت توضع في المطبعة . وتبلل بالماء ثم الحبر . ثم يطبع الورق عليها حسب العدد المطلوب . ويعاد تبليلها بالماء وتحبيرها قبل طبع كل ورقة (9) .

هكذا كانت طريقة الطبع على هذه الالة الحجرية، ويوجد باللايحتين رقم 4 ـ 9 المرفقتين بهذه الرسالة . عدد من لوازم المطبعة الحجرية . وهي تدل على ان المطبعة الحجرية المغربية كانت يدوية بسيطة . ولم تكن من نوع المطبعة الحجرية التي تدور بالبخار، كما تدل اللائحة رقم 4 على ان بعض هذه اللوازم كانت تستورد من مصر .

تطلع مغربي للطباعة

لقد بات من المحقق انه قبل دخول الطباعة للمغرب . وجدت رغبة من بعض المفكرين المغاربة في تزويد المغرب بمطبعة عربية . وقد ظهرت هذه الرغبة على لسان سفير مغربي غب عودته من سفارة قام بها الى فرنسا اواخر سنة 1276 هـ/1860 م. ثم دون عنها رحلة عنونها بـ «تحفة الملك العزيز بمملكة باريز»، ويعني بهذا السفير : الحاج ادريس بن الوزير محمد

ابن ادريس العمرى الفاسي . الذى اعلن في رحلتـه (10) عـن هـذه الامنيـة العزيـزة بعـدما مهـد بتعـداد مزايـا المطبعة . في فقرات مسجوعة جاءت هكذا .

«وهـذه الالـة التي اتخذوها للطبع» هي في كل الامـور عامة النفع . معينة على تكثير الكتب والعلوم، وأثرها في ذلك ظاهر معلوم، وقد اتخـذوها في جميع بـلاد الاسلام . واغتبط بها مشاهـير العلماء الاعلام . ويكفيك من شرفها وحسن مـوقعهـا . رخص الكتب التي تطبع بها . وقد اعتنوا بتصحيحها، وبالغـوا في تهذيبها وتنقيحها . مع جـودة الخط، وايضاح الضبط، وهذه نسخة القـاموس المطبوعة عام أثنين وسبعـين بمصر. يباهي بوجودهـا هذا العصر، لاتجد فـي النسخ القديمة مثلها ولاما يقـرب منها . فقد كـانت عدت عليها ايدى الناسخين، حتى عجزت عـن تداركها عقـول الراسخـين . وكادت تنبذ لاجـل التحريف، وتطرح لاجل التصحيف، مع شرف موقعه مـن الـديـن، واعتناء المتأخريـن بـه والمتقدمين . حتى قيض الله لـه بعض علمـاء مصر فصرفـوا اليـه وجـه اعتنائهم . بهمة دولتهم ورؤسائهم . فجاءت هـذه النسخة في غايـة الاتقـان . وبرزت في ميدان الجودة والاحسان، واتسمت حسنتها في غـرة الدهر . وفـاز الساعون فيها بعظيـم الاجـر وجميل الذكـر. ومن عجيب سعدها انهـا تباع بنصف ثمـن النسـخ المحـرفـة (11) .

ونطلب الله بوجود مولانا أمير المومنين ان يكمل محاسن مغربنـا بمثـل هـذه المطبعـة . ويجعـل في ميـزان حسنـاتـه هـذه المنفعـة ....»

هكـذا يلـح هـذا المفكر المغـربي على تزويد المغـرب بمطبعـة عـربيـة سنـة 1860 م. ويبدو ان المغـرب كـان يتطلع لهذا الاختراع العملي قبل هـذا التاريخ بكثير. فهناك رحالـة مغـربي يحمـل اسم «الشيخ محمـد الفاسي» :

وقف سنة 1801م/1216 هـ ـ على مطبعـة الحملة الفرنسيـة بالقاهـرة. وابدى اعجابا شديـدا بها . وكـان هـذا الشيخ قـد شاهـد ـ مـن قبـل ـ مطبعـة الاستـانـة (12) .

وصـول المطبعـة الحجـريـة للمغـرب

وصلت المطبعة الحجرية للمغرب في شعبان سنة 1281 هـ/1864 م . 1865 «13» وكان دخولها يتسم بشكل فردى . حيث جاء على يـد قاضي تارودانت محمـد الطيب بن محمد السوسي التملي الروداني (14) . الذى اشتراهـا مـن الشرق لـا حـج . ثـم أتى بها للمغـرب . ومعـه طبيع مصرى ليشتغل بها .

ويحتوي الملحق رقم 3 لهذه الرسالة على نص الاتفاق الواقع - في هذا الصدد - بين القاضي الروداني والطبيع المصرى محمد القياني بن ابراهيم المصرى الذي حرر الاتفاق بخطه . وفيه يلتزم بان ياتي برفقة السيد الروداني الى مدينة «رودانة» بارض المغرب . ويشتغل عنده في هذه المطبعة الحجرية مدة من سنة كاملة . تبتدى من ربيع الاول سنة 1281 هـ . وتنتهي في صفر الخير سنة 1282 هـ. وفي مقابل ذلك يتحمل السيد الروداني للطبيع المصري بأن يقوم بلوازمه في ماكله ومشربه وملبسه على طبق مراد هذا الاخير . وفي كل شهر ينقده مائتي قرش مصري خالصة لجيبه . وفي حالة ما اذا انتهت السنة المذكورة واراد المصري العودة لوطنه . فان السيد الروداني يرحله على نفقته الى حد بلاده .

وقد تم تحرير هذا العقد في يوم الاربعاء 14 ربيع الاول المبارك . سنة 1281 هـ .

هذه خلاصة الاتفاق الذي يستفاد منه ان القاضي الروداني كان - في اول الامر - سيستخدم المطبعة في اسمه . غير أنه لا يلبث أن يقدمها هدية للسلطان «محمد الرابع»، وقد وقع ذلك بمجرد رجوعه الى المغرب . فان نفقات الطبيع المصرى في الميزانية المغربية . تبتدى - حسب الملحق رقم 1 - من شعبان سنة 1281 هـ. اى بعد نحو اربعة اشهر ونصف من تاريخ توقيع العقد الانف الذكر .

وفي المفاخر العلية (15) تحدث عن اهداء هذه المطبعة من طرف القاضي الروداني هكذا :

«وجاء الامير سيدى محمد هذا : «السلطان محمد الرابع» المطبعة التي تطبع فيها الكتب هدية . اهداها له خادمه الفقيه العلامة سيدى الطيب الروداني قاضي ترودانت من سوس لما حج ورجع من الحج . وجاء - أيضا - بشيخ كبير عارف بكيفية الطبع . فقبل سيدنا الامير منه الهدية . واكرم الشيخ المذكور . وأجرى عليه النفقة، واعطاه ما يحتاج اليه ممن يخدمه»

وحسب الملحق رقم 1 فان المدن المغربية التي مر بها الطبيع المصري قبل ان يلتحق بفاس كانت هي : الصويرة ابتداء من 2 شعبان سنة 1281 هـ . حيث يظهر ان المركب الذي اقله من مصر مع رفيقه الروداني . أرسى بميناء هذه المدينة . ثم كان في «مكناس من 28 شعبان سنة 1281 هـ حتى 17 ربيع الاول النبوي سنة 1282 هـ. واثناء هذه الفترة وقع طبع اول كتاب

اخرجته هـذه «المطبعة الحجريـة» . وهو «الشمـائـل التـرمـذيـة» الـذي سنتحـدث عنه بعـد .

ومـن ربيع الثاني 1282 هـ يبتـدي ـ في نفس الملحـق ـ حسـاب المصري والمطبعة بفاس . لمـا استقر هو والمطبعة بهذه المدينة . وهنا يبتـدي ـ بعـد نحو سنة ـ عمل هذه المؤسسة بصفة قـارة . حيث تمر بعدة ادوار . سنتحدث عنهـا بالتتابـع فيمـا يلـي :

المطبعـة الحجـريـة الاولى مـؤسسة حكـوميـة

يبتدي هـذا الدور من ربيـع الثـانـي سنـة 1282 هـ/1865 م، وينتهـي «اخـر سنـة 1287 هـ/1871م. وفي هـذه المرحلـة كانت تحمـل اسم «المطبعة السعيدة» أو «المطبعة المحمدية» نسبة للسلطـان محمد الرابـع، وتتعـاون في نفقاتهـا الخزينة العـامة والاحبـاس . وكـان مقرهـا في دار بالكراء تقـع في زنقـة «جـزاء بـرقـوقـة» (16) مـن فـاس الادريسيـة .

اما جهازها التوظيفي فكان يشتمل ـ بعـد الطبيـع المصري ـ على ناسخ. ومصحـح . ومعـاونـين يبلـغ عـددهم عشريـن (17) .

وكان المصحح هـو ابو حفص عمر (بن عبد القادر) الرندى (الاندلسي) ثم الفاسي . المتـوفي في 27 صفـر سنـة 1290 هـ/1873 «18» م.

واول ناسخ توظف بها هو محمد ابن سليمان (الفاسـي . المتـوفى عـام نيف وعشرة وثلاثمائة والف (19) . ثـم أبو العباس احمد الخضر بن عبد النبي ابن المجدوب الفاسي الفهرى . ولـمـا توفي خلفه اخوه ابو يعقـوب يوسف (20)

ويوجد من بين المعاونين افـراد تـدربوا على استخـدام هـذه المطبعـة . وصاروا بعد طبيعين ممتازين . ومنهم الطيب بن محمد الازرق الفاسي . والمكي ابن الوزير محمد بن ادريس العمرى الفاسي (21) . وقد يكون فيهم ـ أيضا ـ العـربي الازرق اخو الطيب لابيـه .

وقد كانت اجور موظفي هذه المطبعة كالتالي :

الموظف	مياومة	مشاهرة	مصدر النفقة
الطبيع المصرى	31 اوقية	20 مثقالا	الأحباس
المصحح	12 اوقية		الأحباس
الناسخ	12 اوقية		الأحباس
المعاونون «20»	56 اوقية		الخزينة (22)

يضاف لهذه الاجور انعامات . فقد جاء في نفقات الخزينة العامة ـ بتاريخ 27 رمضان سنة 1284 هـ. ـ

صاير 21 كسوة كاملة للطبيع المصرى ومعاونيه العشرين . ومن تفاصيل هذا الصائر يستفاد ان المصرى وأكثر معاونيه كان لباسهم يشابه اللباس التركي القديم . حيث يذكر اسم «جبدور» وبدعية «و» ومنتال (23) ..

*

ولم تكن منشورات المطبعة في هذا الدور كثيرة . حيث كانت لا تزال في البداية . ولقصر مدة هذه المرحلة . ولهذا لم يتجاوز عدد هذه المنشورات ستة :

الاول : «الشمايل المحمدية» ـ لابي عيسى محمد بن عيسى الترمذي . وهي اول ما نشر بهذه المطبعة . وكان طبعها بمكناس في 4 صفر سنة 1282 هـ. أثناء المدة التي كانت فيها المطبعة بمكناس . قبل استقرارها بفاس . وقد جاءت الكلمة الختامية لهذه الطبعة هكذا :

«الحمدلله» كمل كتاب شمايل المصطفى . بحمد الله تعلى وتوفيقه . بالمطبعة السعيدة بالحضرة المولوية العلية . بمدينة مكناسة الزيتون . بأمر من توج برئاسته الاعصار . وتباهت بسياسته النواجي والامصار . مجدد معالم الدين . ومحيي «اثار الايمة المهتدين» مولانا أمير المومنين . المتوكل على رب العالمين . أبقاه الله لحفظ نظام الاسلام . وأيد به شريعة جده عليه افضل الصلاة وأزكى السلام . ونصره نصرا عزيزا مؤبدا والسلام . في رابع صفر الخير سنة أثنين وثمانين ومائتين والف» .

جزء واحد . في 144 ص. مسطرة 13 مقياس 200/165 خال من اسم الناسخ.

ويلاحظ أن تاريخ الفراغ من طبع هذه الشمايل بالهجري، يوافقه من الميلادى 29 يونيه سنة 1865 . وهكذا يحل في 29 يونيه سنة 1965 م. (24) ذكرى مرور مائة سنة على طبع أول كتاب عربي، بمطبعة عربية مغربية، وهي مناسبة طيبة للاحتفال بهذه الذكرى المئوية احتفالا ايجابيا .
الثاني : «شرح المقدمة الاجرومية» لخالد بن عبد الله الازهرى . وهو أول مانشر بهذه المطبعة بفاس، وتم طبعه في 18 جمادى الثانية سنة 1283 هـ.

جزء واحد، في 69 ص. مسطره 19. مقياس 190/140 .

مكتوب بخط محمد ابن سليمان سالف الذكر.

الثالث : مختصر الدر الثمين . والمورد المعين . في شرح المرشد المعين لمحمد بن احمد ميارة الفاسي .

وقع الفراغ من طبعه في 15 شعبان . سنة1283 هـ.

جزء واحد . في 228 ص. مسطرة 19 . مقياس 200/157 مكتوب بخط ابن سليمان سالف الذكر .

الرابع : «حلي المعاصم، لبنت فكر ابن عاصم» تاليف محمد التاودى بن الطالب ابن سودة المرى الفاسي، كمل طبعه في 17 جمادى الاولى سنة 1284 هـ.

جزء واحد، في 555 ص. مسطرة 21 . مقياس 200/160.

يذكر محمد المدرومي في «الدرة السنية» في ذكر الدولة الحسنية» ان محمد ابن سليمان السابق الذكر، رشحه السلطان محمد الرابع لكتابة مطبوعات هذه المطبعة، وعين من منتسخاته «حلي المعاصم» هذا، فأفاد أنه هو كاتب هذه الطبعة بخطه، فاذا قوبل، خط هذه مع الخط المكتوب به كل من شرحي الازهرى على المقدمة الاجرومية وميارة على المرشد المعين، مع الجزء الاول من شرح المختصر الخليلي للخرشي توجد الخطوط متماثلة، فيستفاد ان هذه الثلاثة مكتوبة هي الاخرى بخط ابن سليمان ايضا.

الخامس : «الشرح الصغير على المختصر الخليلي» لمحمد بن عبد الله ابن علي الخرشي المصرى .

في ستة اجزاء : الاول، تم طبعه يوم الاربعاء 24 محرم سنة 1284 هـ. في 305 ص. مقياس 310/215.

الثاني : تم طبعه يوم الخميس 23 ربيع الثاني سنة 1285 هـ. في 350 ص. مقياس 300/210 .

الثالث : يوم الاثنين 6 محرم سنة 1286 هـ. في 342 ص. مقياس 300/210.

الرابع : يوم الاثنين 10 شعبان سنة 1286 هـ. في 339 ص. مقياس 280/205

الخامس : الخميس 23 ربيع النبوى سنة 1287 هـ. في 306 ص. مقياس 300/210.

السادس : 8 حجة سنة 1287 هـ. في 328 ص. مقياس 300/205 . مسطرة جميع الاجزاء 27 .

جاء في «النهضة العلمية» في عهد الدولة العلوية لابن زيدان : أن ابا العباس احمد الخضر الفاسي سابق الذكر. توفي قبل ان يتمم كتابة شرح الخرشي هذا . فاكمله ـ بخطه ـ صنوه يوسف مار الذكر .

السادس : «قصيدة مولدية» نظم ابي عبد الله محمد بن السيد أحمد الرفاعي المدني .

وقع الفراغ من طبعها زوال يوم الخميس 17 حجة سنة 1287 هـ.
جزء صغير . في 14 ص . مسطرة 15 . مقياس 147/110 .
وهذه القصيدة ـ فيما يبدو ـ «اخر ما نشر بالمطبعة الحجرية في هذا الدور الاول .

وتمتاز هذه المطبوعات عما نشر بعدها . بالمبالغة في اتقانها . تصحيحا وطبعا. وورقا. كما أنها مشكولة. واذا استثنينا «القصيدة المولدية» فان باقي المطبوعات الحجرية كانت كتبا دراسية في الدرجة الاولى .

∴

وقد كانت نهاية المطبعة في هذا الدور . انها توقفت عن متابعة العمل . وتفيد الرسالة التي هي الملحق رقم 5 ان سبب هذا راجع لمفارقة الطبيع المصرى للمطبعة وسفره . والظاهر ان هذه الفترة امتدت طوال سنة 1288 هـ.

ثم انتقلت بعدها هذه المطبعة لدورها الثاني . حيث صارت مؤسسة فردية، وهو ما سنتحدث عنه بعد .

ونذكر هنا ان دخول هذا الجهاز المطبعي للمغرب صادف استحسانا، وكان ممن اعلن عنه اللجائي في «المفاخر العلية»، ثم العربي المشرفي في «نزهة الابصار» (25) كما ان بعضهم أنشأ قصيدة ضمنها مدح هذه المطبعة (26)

ويبدو ان السلطان محمد الرابع حاول تطوير الطباعة المغربية، وتاسيس مطبعة بالحروف الى جانب المطبعة الحجرية، فهناك رسالة من اسماعيل باشا خديوى مصر، الى محمد الرابع سلطان المغرب، وهي تحمل تاريخ شوال سنة 1283 هـ/1867 م. وقد جاء فيها :

«هذا : وقد سررت بورود مشرفكم الكريم، المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم . وما يحتاجه المخصوص الوارد بشانها من مزيد التمرين والتفهم ... وقد أرسلنا المومي اليه الى دار الطباعة، واكدنا على مامورها باراءته كل ما يلزم لهذه الصناعة، والاعتناء بتمرينه على استعمال ادواتها : وتوقيفه على كيفية ادارة «الاتها وسائر كيفياتها (27)» .

ومن المؤسف ان لا تتعدى هذه المحاولة تسجيلها في هذا الخطاب، حيث لم يعد يرى لها أثر بعد .

وأخيرا فان بعض العلماء المغاربة عارض في نشر الكتب بواسطة المطبعة، فقد جاء في ترجمة محمد بن ابراهيم السباعي المراكشي أنه الف رسالة في الترغيب في المؤلفات الخطية . والتحذير من الكتب المطبوعة . وبيان أنها سبب في تقليل الهمم، وعدم حفظ العلم ونسيانه (28) . ثم وقفت على قطعة من هذه الرسالة بمكتبة العالم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني، وهي مرتبة على ثلاثة فصول، يقف الموجود منها «اخر الفصل الاول» في 9 ص. حجم متوسط. حسب النسخة التي استخرجتها .

المطبعة الحجرية الاولى مؤسسة فردية

تركنا المطبعة الحجرية توقفت عن العمل طوال سنة 1288 هـ. وحسب الملحق رقم 5 فقد قام بها ـ بعد هذه الفترة استجابة لرغبة طلاب العلم بفاس ـ الحاج الطيب ابن محمد الازرق الفاسي المتخرج في هذه المهنة على يد الطبيع المصري، وبهذا دخلت في دورها الثاني .

ولم تعد المطبعة ــ في هذه الحالة ــ على نفقة الحكومة . وانما صارت مؤسسة فردية ينشر بها هذا الطبيع المغربي، على أساس ان يقدم للحكومة عشرة في المائة من منشوراته، وكان يشارك الازرق في بعض هذه المدة الشريف الحسين بن محمد الدباغ الفاسي فيما يرجع للنفقات المالية، وهذا الاخير ــ فيما يظهر ــ هو الذى وقع التصريح باسمه العائلي ــ الى جانب اسم الازرق «اخر «شرح العمل الفاسي» للسجلماسي، المنشور بهذه المطبعة بتاريخ اواسط رجب سنة 1291 هـ، كما جاء التصريح باسمه ــ كاملا ــ «اخر الجزء الثاني من حاشية محمد الطالب ابن الحاج على شرح المرشد المعين لميارة»، وقد تم طبعه أول محرم عام 1293 هـ .

وفي هذا الدور لم تعد تسمى «المطبعة السعيدة» أو «المطبعة المحمدية» . كما كان الحال من قبل . وانما صارت تحمل ــ في الغالب ــ اسم «المطبعة الفاسية» نسبة لمدينة فاس التي كانت ــ «انذاك ــ تنفرد بهذا الجهاز في المغرب المستقل، وقد تسمى «المطبعة العامرة» . واول ذكر لهذا الاسم الاخير، جاء ختام طبعة «دلايل الخيرات» للامام الجزولي وما معه . وهو منشور بهذه المطبعة بتاريخ الجمعة 10 صفر سنة 1289 هـ. ومن هنا نستفيد ــ ولو على وجه التقريب ــ تاريخ استيناف «المطبعة الحجرية» للعمل في دورها الثاني .

اما اسم «المطبعة الفاسية» فكان هو الغالب في هذه المطبوعات، وحسبما وقفت عليه . فقد كان اول ظهوره في طبعة شرح المرشد المعين لميارة، المنشور في 13 جمادى الثانية، سنة 1289 هـ. وبعد هذا ورد هذا الاسم مقترنا باسم الطيب الازرق، في شرح العاصمية للتسولي، وقد وقع الفراغ من طبع جزئه الاول في 13 قعدة سنة 1289 هـ.

وهكذا تتوضح بداية هذه المطبعة الفردية وشخصيتها، والظاهر أن مركزها استمر في مكانها الاول بزنقة «جزاء برقوقة (29)» . ومن المؤكد أن المطبعة ــ في هذا الدور ــ لم يكن النشر بها مقصورا على الطيب الازرق وحده، وانما كان يستخدمها بعض طبيعين «اخرين .

والمعنى بالامر هنا اثنان : الاول : العربي الازرق اخ الطيب لابيه ، وأول ما وقفت عليه من عمله في هذا الصدد : «كتاب تحرير اصول الهندسة» لاقليدس . تاليف نصير الدين الطوسي . الذى تم نشره في 23 شوال . سنة 1293 هـ. فقد جاء في «اخره» انه تم بـ «المطبعة العامرة» بفاس، خدمة المعلم العربي الازرق، ثم جاء اسمه «اخر نوازل الشريف العلمي، التي نجز طبعها اوايل ربيع الثاني سنة 1294 هـ. وبعد هذا جاء ذكر «مطبعة العربي

الازرق.» «اخر شرح العمل الفاسي للسجلماسي، الذى تم طبعه في 14 ربيع الثاني سنة 1298 ه‍. وهذا اول ذكر لهذه المطبعة .

اما الثاني الذى كان يستعمل هذه المطبعة فهو المكي بن الوزير محمد ابن ادريس العمروى الفاسي، وقد لمع اسمه منذ سنة 1292 ه‍. «اخر شرح المختصر الخليلي للهلالي . الذى كان طبعه بمباشرة المذكور، مع تذييل القصيدة الختامية بطابع نقش بداخله اسم «المكي ابن ادريس» . وفي السنة التالية ظهر اسمه «اخر «بهجة البصر، في شرح فرايض المختصر» لمحمد ابن احمد بنيس الفاسي المهمش بحاشية عليه لمحمد بن المدني كنون الفاسي، وقع الفراغ من طبع ذلك في 14 جمدى الاولى سنة 1293 ه‍. وقد ذيلت كلمته الختامية بطابع نقش بداخله : «المكي ابن ادريس اصلحه الله»، ثم ظهر اسمه للمرة الثالثة مع شرح التحفة للتسولي، الذى تم طبع النصف الاول منه في 15 قعدة عام 1293 ه‍، وللمرة الرابعة جاء ذكره «اخر «الحصن الحصين» لابن الجزرى، وقد تم طبعه اول ربيع الثاني سنة 1294 ه‍. وفي نفس السنة باشر نشر شرح الخلاصة للمكودى، وتم طبعه اوايل ذى الحجة متم سنة 1294 . ومن منشوراته «دلايل الخيرات» للجزولي، وتوابعه، وفي «اخر ذلك ورد اسم «المكي ابن ادريس» بدون ذكر تاريخ الطبع. فهي ست منشورات تحمل اسم المذكور، وبعدها لم يعد يسمع له ذكر، وبهذا لم يستمر لامعا في هذه «المطبعة الفاسية» سوى الاخوين الحاج الطيب والعربي ابني محمد الازرق .

وقد كانت «المطبعة» في هذا الدور الثاني بسيطة في جهازها التوظيفي، ولم يكن قارا بها حسب الملحق رقم 9 سوى الطبيع ومعاونيه والقيم، اما من عداهم من خطاط ومصحح وناشر، فلم تكن تتوفر عليهم بشكل قار، ولهذا تنوعت خطوط المطبوعات، وتعدد المصححون والناشرون، وحسب نفس الملحق فقد كانت تسير في الطبع بمعدل اربع صفحات في اليوم، من حجم شرح مرتضى على الاحياء الذى لم تتعد المطبوعات منه 200 نسخة . كذلك كانت تعطل العمل في يوم الجمعة (30).

مطابع حجرية جديدة

حسبما يتبين من الدور الثاني، فقد كان الطبيعون المغاربة الثلاثة ــ بما فيهم الاخوان ابنا الازرق ــ جميعهم ينشرون في : (1) مطبعة الحكومة الحجرية، ثم دخل للمغرب، ــ بعد هذا ــ مطابع حجرية جديدة، منها مطبعتان

صار يستخدمها الاخوان ابنا الازرق، ومطابع اخرى، وهي التي ندرسها في هذا الدور الثالث وتتناول جميعها فيما يلي :

2 – مطبعة الحاج الطيب الازرق

وكان مركزها يقع في «درب الحمام» قرب الجوطية (31) من فاس القرويين، ولا يعرف تاريخ انشايها بالضبط . ومن بين مطبوعات الحاج الطيب الازرق، توجد «الشمايل الترمدية» سنة 1310 هـ. وتمتاز هذه النشرة بطابع موضوع أسفل ما قبل الصفحة الاخيرة، وفي داخله كتب . بمطبعة الحاج الطيب الازرق، وقد اختفى اسمه من المطبوعات الفاسية أثناء سنة 1313 هـ. حيث باشر في هذا التاريخ طبع «الشمايل الترمذية» و «الشفاء لعياض. في 12 جزءا .

وقبل هذا التاريخ لمع ـ في الطباعة الفاسية ـ ذكر ولده الحاج احمد ابن الحاج الطيب الازرق، وبرز اسمه «اخر «الحصن الحصين» لابن الجزرى. المطبوع سنة 1308 هـ. ثم تتابع ظهور اسمه في المطبوعات الفاسية حتى سنة 1326 هـ. لما نشر مفاكهة ذوى النبل والاجادة ... انظر رقم 14 و 37 من «جملة من منشورات بني الازرق» الاتية .

والغالب أن هذا الاخير لم يشتغل ـ اول الامر ـ بمطبعة على حدة وانما كان يتعاون مع والده، فهناك طبعة لدلايل الخيرات للامام الجزولي، وما معه . وهي تحمل تاريخ 24 رمضان سنة 1310 هـ. وقد جاء في «اخرها وذلك بمطبعة ـ المعلم الانمق، الحاج الطيب الازرق، ونايبه في الطباعة، ولده المعلم الشاب الحاج احمد الازرق».

واخيرا : فان هناك ظهيرا صادرا عن السلطان الحسن الاول . بتاريخ 29 ربيع الثاني سنة 1291 هـ. وفيه يسدل اردية التوقير والاحترام، على ماسكه الطيب الازرق الفاسي، معلممطبعة الكتب العلمية. بفاس الادريسية. ويجدد له في هذا الصدد، على مابيده من ظهير السلطان محمد الرابع . انظر الملحق رقم 10 .

3 – مطبعـة العـربـي الازرق

يقـع مركزهـا في درب حسان من حي البليدة بفاس القرويـين (32) وهي ـ ايضا ـ مجهولة تاريخ التاسيس. ومن بين مطبوعـاتها توجـد رسالة «صلـة المترحم . على صلة الرحـم» للشيـخ للشيخ مـاء العينـين، وهـي منشـورة سنة 1323 هـ، وجـاء في «اخـرهـا : ... على ذمـة معلـم الطباعة ومـديـرها ومنشيها ومزينها ... السيد العربي بن سيدى محمد الازرق . فهـل يدل هذا على ان احـداث هـذه المطبعة الجديدة كـان في سنـة 1323 هـ او قبيلهـا ؟ ، ثـم وقفت على مايـؤكد هذا في ختام طبعة الرسالة التي تحمل اسم «منيـل البشر فيمن يظلهم الله بظل العرش» للشيخ ماء العينين ايضا، فقد جاء في اخرها : «طبـع على ذمـة صاحب المطبعـة ... السيد العـربي الأزرق، وذلك بالمطبعـة **الثانيـة**، وكـان الفراغ من طبعـه عشيـة الاربعاء سادس رمضان عام 1324» ، فهذه المطبعـة الثانية يظهر أنها هى التى أنشاها هذا الطبيع بعد مطبعة الحكومة

وقد استمر اسم «العربي الازرق» يظهر في المطبوعات الفاسية حتى اثنـاء العقـد الـرابـع مـن هـذا القـرن الهجـرى الجـارى (33) .

∴

هـذا ونذكر هنا ان بني الازرق الثلاثـة ـ وفي مقدمتهم العربي الازرق ـ بـرزوا في ميـدان هـذه الطباعـة الحجرية . خلال الدورين الثاني والثالث . فنشر على يدهـم اكثر المطبوعـات الفاسية، وقـد شملت منشوراتهم .

الى جانب الكتب الدراسية ـ مطبوعات عديدة تناولت ـ بصفـة خاصة ـ النوازل الفقهيـة، والتراجـم، والرحلات، مـع بعض مؤلفـات من فنون اخرى.

كما تذكر أن الخطاطين والمصححين والناشرين كانوا غـير قـارين لـدى مطبوعات بني الازرق في هذا الدور الثالث، كما كانوا كذلك ـ أيضا ـ في الدور الثاني، ونستطيع معرفة زمر من هؤلاء ـ بالنسبة للدورين معـا ـ بواسطـة مصدر هام في هذا الموضوع بالخصوص . وهو كلمات المطبوعات الختامية، التى تـذيل بهـا أغلب المنشورات الفاسية، وتـذكر اسم المصحح والناشر، وفـي بعض الحـالات تصرح باسم الخطـاط الـذى كتب المطبـوع، وبمقارنـة خط الطبعة المصرح باسم ناسخها، مـع المنشورات المماثلة لها في الخط، والخاليـة من اسم الناسخ، نستطيع نسبة خطوط كثير مـن المطبوعـات الى اصحابهـا .

ولهذا سنتعرض قريبا ما عثرت عليه من اسماء الخطاطين في الدورين الثاني والثالث مرتبين حسب تاريخ اول مطبوع كتبه الخطاط بيده، مع تذييل ذلك بخطاطين اثنين استفدتهما من بعض المشافهات، ثم نقدم .

ثانيا – لائحة توضيحية ومحدودة ببعض المطبوعات الفاسية التي باشر نشرها بنو الازرق في كلا الدورين، حتى نتعرف بواسطتها على المنشورات التي دبجها اولايك الخطاطون مع اسماء المصححين والناشرين .

الخطاطون بمطبوعات ابناء الازرق

1 – محمد الطالب بن عثمان بن الطالب ابن سودة المرى (34) .
«لائحة منشورات ابناء الازرق» الاتية، رقم 1 و 10

2 – محمد الهادى بن ابراهيم ابن سودة .
نفس اللائحة رقم 6 و 9

3 – محمد بن محمد جنون نفس المصدر رقم 7

4 – الغالي بن الحسن المحمدى (35) المصدر رقم 8

5 – الفاطمي ابن سودة (36) المصدر رقم 12 و 15 و 18

6 – اخوه الوافي بن ابراهيم بن الطالب بن احمد بن محمد التاودى ابن سودة المصدر رقم 14 و 21 و 22 و 30

7 – احمد بن محمد الحضرى الشهير بالخمسي المصدر رقم 25 و 37

8 – احمد بن محمد المهدى بن محمد بن العباس ابن صابر البوعزاوى (37)
المصدر رقم 27

9 – محمد بن الطالب بن عثمان ابن سودة المرى . وهو الوحيد الذى لا يزال على قيد الحياة من خطاطي هذه المطبعة مد الله تعلى في عمره .
المصدر رقم 33

10 – عبد السلام بن عبد النبي الذويب الفاسي، «اتي الذكر.
المصدر رقم 34

11 – محمد بن قاسم بن الحاج عبد السلام البادسي الاندلسي الانصاري السعدي العبادي، صاحب مكتبة بالسبيطريين بفاس
المصدر رقم 35 و 36

12 – عمر بن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن احمد بن محمد التاودي ابن سودة المري، كتب بخطه «الموطا» للامام مالك بن أنس المطبوع بفاس في اربعة اجزاء حسب افادة الفقيه العدل سيدي محمد بن الطالب ابن سودة «انف الذكر»، كما أفاد اخوه الفقيه الخطيب سيدي العربي ابن سودة، ان من منتسخات ابي حفص هذا «المصحف الشريف» المطبوع بفاس، سنة 1313 هـ.

13 – المهدي بن عبد الرحمن ابن سودة، اخ ابي حفص المذكور قبله . من خطاطي هذه المطبعة ايضا حسب ذكر سيدي العربي ابن سودة الذي لم يعين بعض منتسخاته .

14 – أحمد بن محمد الفلالي اصلا، الفاسي دارا ومنشئا . كتب بخطه المختصر الخليلي – حجم صغير – ط. مطبعة الحاج الطيب الازرق – سنة 1297 هـ

15 – محمد بن محمد ابن عبد الله، كتب – بخطه – «ايقاظ المفتون المغرور، مما تذم عواقبه يوم النشور» لابي عبد الله الحاج محمد بن المدني كنون – ط. مطبعة العربي الأزرق، سنة 1323 هـ.

جملة من منشورات ابناء الازرق

1 – الفتح الودودي على المكودي : لاحمد بن محمد بن حمدون السلمي المرداسي المعروف بابن الحاج الفاسي (جزءان) .
ط. مطبعة الطيب الازرق – سنة 1290 هـ.
الكاتب : محمد الطالب بن عثمان بن الطالب ابن سودة المري .
الناشر : بامر السلطان محمد الرابع .

2 – شرح نظم العمل الفاسي لابي زيد الفاسي الفهري تاليف محمد ابن ابي القاسم السجلماسي ثم الرباطي (مجلدان) .
ط. الازرق وشريكه الدباغ – سنة 1291 هـ.
المصحح : محمد بن عبد الواحد ابن سودة .

3 – نـوازل لابي الحسن على بن عيسى العلمي (مجلـدان) .

ط. مطبعة فاس بمباشرة الطيب الازرق ـ سنة 1292 هـ.

المصحـح : ابراهيـم بن محمـد الدبـاغ .

4 – تحـرير اصول الهندسة لاقليدس ـ تاليف نصير الدين محمد بن محمد ابـن الحسن الطـوسي (مجلـدان).

ط. المطبعـة العـامرة بفاس بمباشرة العربي الازرق ـ سنة 1293 هـ.

المصحح : ادريس بـن الطـايـع البلغيثي .

الناشر : باشا فاس، عبد الله بن احمد السوسي .

5 – مصحف شريف

ط. الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1296 ـ وهو اول مصحف طبع بالمغرب .

6 – شرح نظم العمل الفاسي، لابن ابي القاسم السجلماسي المتقدم (مجلدان)

ط. مطبعة العربي الازرق ـ سنة 1298 هـ.

الكاتب : محمد الهادى بن ابراهيم ابن سودة المرى .

المصحـح : محمد بن قاسـم القادرى .

7 – شرح لاميـة الزقـاق لمحمد بن احمد ميارة الفاسي، مع حاشية عليـه لاحمد بن علي بن احمد بن محمد الشدادى الحسني .

ط. مطبعة العربي الازرق ـ سنة 1298 هـ.

الكـاتب : محمـد بن محمد جنون .

النـاشر : العـربي الازرق .

8 – الاتقـان والاحكام في شرح تحفـة الحكـام، لابن عاصم ـ تاليف محمد ميارة المتقدم، مهمش بحاشيـة عليه لابـي علي الحسن ابن رحـال المعدانـي (مجلـدان) .

ط. المطبعة الفاسية بمباشرة العربي الازرق ـ سنة 1299 هـ.

الكـاتب : الغالي بن الحسن المحمدى .

المصحـح : محمد بن التهامي الوزاني .

الناشر : محتسب فاس الحاج محمد بن محتسبها الحاج المهدى البناني .

9 – الفتح الودودي، على المكودي لاحمد ابن الحاج المتقدم (جزءان).

ط. المطبعة الفاسية بمباشرة الحاج الطيب الازرق _ سنة 1299 هـ.

الكاتب : الهادي بن ابراهيم ابن سودة المتقدم .

المصحح : جعفر الكتاني .

الناشر : الحاج الطيب بن ادريس بنونة .

10 – حاشية على شرح بحرق الصغير على لامية الافعال لابن مالك _ تاليف محمد الطالب بن حمدون السلمي المرداسي المعروف بابن الحاج .

ط. الحاج الطيب الازرق _ سنة 1300 هـ.

الكاتب : محمد الطالب بن عثمان ابن سودة المتقدم .

المصحح : محمد التهامي بن المدني جنون

11 – نوازل محمد التاودي ابن سودة _ جمع ولده ابي العباس احمد مهمشة بنوازل ابي محمد عبد القادر الفاسي .

ط. المطبعة الفاسية على يد العربي الازرق _ سنة 1301 هـ.

المصحح : احمد بن الجيلاني الامغاري .

12 – اتحاف المقتنع بالقليل في شرح مختصر خليل لابي العباس احمد ابن عبد العزيز بن الرشد الهلالي السجلماسي .

ط. المطبعة الفاسية بمباشرة الحاج الطيب الازرق _ سنة 1303 هـ.

الكاتب : الفاطمي ابن سودة .

المصحح : محمد بن الطاهر البناني .

13 – اتحاف السادة المتقين . بسرح أسرار احياء علوم الدين للغزالي _ تاليف محمد مرتضى الحسيني الزبيدي _ 13 مجلدا

ط. المطبعة الفاسية . بمباشرة الاخوين الحاج الطيب والعربي ابني محمد الازرق _ سنة 1304 .

المصححون : عبد الله البدراوي _ ابو العباس احمد بن الخياط الزكاري _ عبد الملك العلمي _ التهامي جنون .

كتب افتاحيته مع الكلمة الختامية : محمد الفاطمي بن الحسين الصقلي .

الناشر : بامر السلطان الحسن الاول .

وقد كان نشره موضوع وثائق مهمة تضمنتها الملاحق ذات الارقام 6 ـ 7 ـ 8 ـ 9

14 – الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين . لمحمد بن محمد بن علي المعروف بابن الجزرى .

ط. المطبعة الفاسية بمباشرة الحاج احمد بن الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1308 هـ.

الكاتب : الوافي بن ابراهيم ابن سودة .

15 – مصحف شريف

ط. الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1309 هـ.

الكاتب : الفاطمي بن ابراهيم ابن سودة .

16 – الشروح الاربعة على الاربعين النووية تاليف اربعة من علماء فاس وهم: احمد بن محمد التاودى ابن سودة وعبد القادر بن احمد ابن شقرون . ومحمد بن احمد بنيس . والطيب بن عبد المجيد ابن كيران .

ط. مطبعة حاضرة فاس بتنميق العربي الازرق ـ سنة 1309 هـ.

المصححان : الطيب ابن كيران والمامون العراقي

الناشر : محمد بن القاضي عبد السلام الهوارى .

17 – نشر المثاني لاهل القرن الحادى عشر والثاني، لمحمد ابن الطيب القادرى (جزءان) .

ط. مطبعة فاس بمباشرة العربي الازرق ـ سنة 1310 هـ.

المصحح : محمد الفاطمي الصقلي سابق الذكر .

الناشر : العربي الازرق .

18 – مصحف شريف

ط. الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1311 هـ.

الكاتب : الفاطمي ابن سودة المتقدم .

19 – تعليق على الموطا للامام مالك ـ لابي عبد الله محمد بن المدني كنون «الكبير» (جزءان)

ط. العربي الازرق ـ سنة 1311 هـ.

المصحح : احمد بن المامون البلغيثي .

20 – ختمة المختصر الخليلي . لمحمد بن التهامي الوزاني الفاسي .

ط. الحاج احمد بن الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1313 هـ.

الناشر : محمد بن القاضي ابي العباس احمد بن عبد الرحمن السجلماسي .

21 – الدرر البهية والجواهر النبوية . في الفروع الحسنية والحسينية . لابي العلاء ادريس بن احمد العلوى الفضيلي (مجلدان) .

ط. الحاج احمد بن الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1214 هـ.

الكاتب : الوافى بن ابراهيم ابن سودة المتقدم (38) .

المصحح : المؤلف.

الناشر : عمر بن ابي العباس احمد ابن الخياط.

22 – لؤلؤة الانوار وقلائد الجوهر ورياض الازهار. في الصلاة على النبي المختار لمحمد بن المدني البوعناني الحسني المراكشي .

ط. الحاج احمد بن الحاج الطيب الازرق ـ سنة 1315 هـ.

الكاتب : الوافي ابن سودة المتقدم .

المصحح : محمد الرايس .

الناشران : الحاج الخضر بن الحاج محمد برادة والشريف سيدى علي بن احمد

23 – السير والسلوك الى مالك الملوك، تاليف قاسم بن صلاح الدين الحلبي الخاني.

ط. مطبعة العربي الازرق سنة 1315 هـ.

المصحح : عبد الكريم بن العربي بنيس.

الناشر : عبد الله بن عبد السلام الوزاني .

24 – **سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس . بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس** لمحمد بن جعفر الكتاني (3 مجلدات)

ط. مطبعة الحاج أحمد بن الحاج الطيب الأزرق ـ سنة 1316 هـ .

المصحح : المؤلف .

كاتب الكلمة الختامية : احمد بن عبد المولى بن المامون العلمي .

الناشران : التهامي بن العربي ابن موسى، والعباس بن المختار حفيد الشيخ ابي العباس البدوى زويتن .

25 – **زهرة الافكار في الرد على المخالف بالقبض في هذه الاعصار،** لعبد السلام بن الطيب بن عبد الرحمن الشرفي .

ط. المطبعة الفاسية بمباشرة العربي الازرق – سنة 1316 هـ.

الكاتب : احمد بن محمد الحضرى الشهير بالخمسي .

26 – المحاضرات لابي على الحسن بن مسعود اليوسي .

ط. مطبعة العربي الازرق – سنة 1317 هـ.

المصححان : احمد البوعزاوى ومحمد بن عبد السلام اللجائى .

الناشر : محمد بن قاسم بن الحاج عبد السلام البادسي .

27 – **الازهار الطيبة النشر، فيما يتعلق ببعض العلوم من المبادى العشر** لمحمد الطالب ابن الحاج السابق الذكر – سنة 1317.

المصححان : محمد بن قاسم القادرى بالنسبة للبعض . والباقي على يد كاتبه احمد البوعزاوى .

الناشر : محمد بن قاسم البادسي الآنف الذكر .

28 – الموطا للامام مالك بن أنس الاصبحي المدني (4 اجزاء)

ط. مطبعة فاس – سنة 1318 هـ.

المصحح : محمد التهامي جنون .

الناشر : محمد التهامي بن الفقيه السيد العربي ابن موسى، والعباس ابن العلامة سيدى المختار حفيد الشيخ ابي العباس البدوى زويتن .

29 – نوازل ابن هلال – جمع علي بن احمد الجزولي .

ط. مطبعة العربي الازرق – سنة 1318 هـ.

المصححان : محمد بن محمد ابن عبد الله، ومحمد بن علي الاعزاوى .

الناشر : احمد بن قاسم بن عبد القادر العراقي .

30 – «شرح تائية الشيخ الحراق» – تاليف أبى حامد المكي ابن سودة المرى .

ط. الحاج الطيب الازرق – سنة 1311 هـ.

الكاتب : محمد الوافى ابن سودة المتكرر الذكر.

31 – الرسائل الكبرى لمحمد بن ابراهيم بن عبد الله ابن عباد النفزى الرندى نزيل فاس ودفينها .

ط. مطبعة العربي الازرق – سنة 1320 هـ.

المصحح : احمد البوعزاوى

الناشر : محمد بن عثمان التكناوتي .

32 – الرحلة الناصرية لابى العباس احمد بن الشيخ محمد ابن ناصر.
ط. المطبعة الفاسية – سنة 1320 هـ.

الناشر : الطيب الناصرى .

33 – دليل الرفاق على شمس الاتفاق، تاليف الشيخ مصطفى ابن محمد فاضل بن مامين الملقب بماء العينين (3 مجلدات).

ط. مطبعة فاس بمباشرة العربي الازرق – سنة 1321 هـ.

الكاتب : محمد بن الطالب بن عثمان ابن سودة المرى القايم الحياة .

المصحح : احمد البوعزاوى .

الناشر : قايد المشور السلطاني ادريس يعيش .

34 – **اظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغترر، وبهامشه قرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين** الاثنان للشيخ ماء العينين الانف الذكر.

ط. المطبعة الفاسية – سنة 1321 هـ.

الكاتب : عبد السلام بن عبد النبي الذويب الفاسي .

المصححان : احمد بن الشمس محمد فال، وعبد الرحمن بن جعفر الكتاني .

الناشران : الناسخ والمصحح الاول .

35 – **التحرير بمسائل التصيير** لابي العباس احمد بن محمد البويعقوبي الشهير بالملوى .

ط. مطبعة العربي الازرق – سنة 1323 هـ.

الكاتب والناشر : محمد بن قاسم البادسي سابق الذكر .

36 – **بيان الغلط وطلب التوبة ممن يقول في المقمل الملصق : كان صلى الله عليه وسلم يغلي ثوبه** لابي محمد عبد السلام بن احمد اللجائي الفاسي .

ط. مطبعة العربي الازرق – سنة 1324 هـ.

الكاتب : محمد بن قاسم البادسي المتكرر الذكر .

37 – **مفاكهة ذوي النبل والاجادة حضرة مدير «جريدة السعادة»** لمحمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني .

ط. مطبعة الحاج احمد بن الحاج الطيب الازرق – سنة 1326 هـ.

الكاتب : احمد بن محمد الحضري سابق الذكر .

38 – **نوازل** لابي الحسن علي بن عيسى العلمي السابق الذكر – (جزءان)

ط. بمباشرة العربي الازرق – سنة 1332 هـ.

المصحح : عبد الكريم بن العربي بنيس .

∴

4 – المطبعة الجديدة لابن عبد المولى

وهي مطبعة حجرية رابعة، تسمى في عدد من منشوراتها «**المطبعة الجديدة**»

وفي بعض مطبوعاتها جاء ذكر صاحبها هكذا : منشئها ومديرها وقيمها احمد بن عبد المولى بن المامون العلمي اليملاحي، وقد وصف في بعض المطبوعات الفاسية الاخرى بالفقيه العدل، ولا يزال مركز هذه المطبعة غير معروف بمدينة فاس .

وحسبما عثرت عليه فان منشوراتها تبتدئ في الظهور من سنة 1310 هـ : «مفيد الراوي لماء العينين» ثم تختفي بعد سنة 1318 هـ : «شرح نظم أوضح

المسالك لابن هشام» ــ النظم والشرح لمحمد بن حمدون ابن الحاج، وقد تعددت منشورات هذه المطبعة وتنوعت ولكنها كانت أقل بكثير من مطبوعات ابناء الازرق

وقد خلت منشورات هذه المطبعة الجديدة من اسماء الخطاطين. وانما ورد في عدد منها ذكر المصححين والناشرين الذين سنعرف اسماء بعضهم من خلال استعراض جملة من تلك المنشورات فيما يلي :

1 – «**الزواهر الافقية في شرح الجواهر المنطقية**» للمولى عبد السلام القادرى ــ تاليف ابي العباس احمد بن عبد العزيز الهلالي المتقدم. سنة 1313 هـ.

المصححان : الحاج محمد بن عبد السلام كنون، واحمد بن الجيلاني الامغارى.

2 – «**زهرة الافنان، من حديقة ابن الونان**» ــ شرح القصيدة الشمقمية ــ لابي العباس احمد بن خالد الناصرى السلوى ــ (مجلدان) سنة 1314 هـ.

المصحح : احمد بن المامون البلغيثي.

الناشران : الحاج ادريس ابن جلون مع قيم المطبعة.

3 – **سنن المهندين، في مقامات الدين**، لمحمد بن يوسف العبدرى المعروف بالمواق الغرناطي، سنة 1314 هـ.

المصحح : عبد العزيز بناني.

الناشران : محمد بن ادريس بوطالب وعبيد الله بن المفضل افيلال التطواني.

4 – **الازهار العاطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس**.

لابي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، سنة 1314 هـ.

الناشر : قيم المطبعة

5 – **شرح الفقهيه الفاسية** لمحمد بن قاسم جسوس سنة 1315 هـ.

الناشر : قيم المطبعة

6 – **ديوان** للشيخ ماء العينين المتقدم سنة 1316 .

المصححان : جعفر الكتاني ومحمد بن رشيد العراقي.

الناشر : بامر الوزير احمد بن موسى السوسي

5 – المطبعة الجديدة للذويب

انشأها عبد السلام بن عبد النبي الذويب الفاسي، سابق الذكر بين الخطاطين المطبعيين، وبخطه كان يكتب مطبوعاتها، وكان تاسيسها بتوجيه من الشيخ ابي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، وبها وقع طبع مؤلفاته وأوضاعه الاخرى.

واول ما عثرت عليه من منشوراتها : «الايضاح لبعض الاصطلاح» تاليف الشيخ ماء العينين المتقدم، وقد تم طبعه في 22 جمادى الاولى سنة 1321 ه. الثاني «مجموعة قصايد في المديح النبوي» لثلاثة ادباء، الاولى لابن وهيب . الثانية للحاج مالك ماجور الانمري، الثالثة لمحمد مولود ابن احمد الجواد، وقع الفراغ من طبعها زوال الاربعاء 14 جمادى الثانية سنة 1321 ه بتصحيح عبد الرحمن بن جعفر الكتاني، وهي مكتوبة بخط الذويب صاحب المطبعة .

و«اخر ما وقفت عليه ـ مؤرخا ـ من منشوراتها : «ختم صحيح البخاري» للشيخ ابي الفيض الكتاني الانف الذكر . سنة 1323 ه. وقد كتب على الصفحة الاولى منه : «محل مبيعه المطبعة الجديدة قرب ضريح سيدي احمد الشاوي من فاس على يد كاتبه : عبد السلام الذويب».

وهكذا انستفيد هنا مركز هذه المطبعة التي كانت منشوراتها تقل عن المطابع الحجرية الاخرى، ونذكر ـ اخيرا ـ ان لصاحب هذه المطبعة ترجمة في «الاغتباط بتراجم اعلام الرباط» لمحمد بوجندار ج 2 ص 178 .

6 – المطبعة الحفيظية

اسسها السلطان عبد الحفيظ العلوي، وجعل مركزها في نفس مكان المطبعة الحجرية الاولى، بزنقة جزاء «برقوقة» من فاس الادريسية، والغالب أنه جهزها تجهيزا جديدا، حيث كان قد مضى على انشاء المطبعة الاولى ما يزيد على الأربعين عاما، وكان المشرف عليها هو ابو العباس احمد ابن محمد الشامي المتوفى سنة 1364 ه (39) . وقد استمر نشاطها اعوام 27 ـ 28 ـ 1329 ه نشرت خلالها مؤلفات مهمة وعديدة على نفقة مؤسسها ونذكر من هذه المؤلفات :

1 – «**نشر البنود، على مراقي السعود**» تاليف عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوى الشنجيطي، مهمش بـ «**الضياء اللامع، في شرح جمع الجوامع**» تاليف احمد بن عبد الرحمن القيرواني الشهير بابن حلولو في ثلاثة اجزاء، سنة 1327 هـ.

2 – «**مشرب العام والخاص، من كلمة الاخلاص**» لابي علي الحسن ابن مسعود اليوسي المتقدم 5 حجة سنة 1327 هـ.

3 – **مفتاح الاقفال، ومزيل الاشكال، عما تضمنه مبلغ الامال من تصريف الافعال**، لمحمد بن ابي القاسم السجلماسي المتقدم. 10 ربيع النبوى سنة 1328 هـ.

4 – «**شرح نظم الخريدة**» في المنطق لابي الفيض حمدون ابن الحاج – تاليف الشيخ الطيب بن عبد المجيد ابن كيران، مهمش **بشرح عليها** ايضا – لمحمد بن حمدون ابن الحاج 20 محرم سنة 1329 هـ.

5 – **فيض الفتاح على نور الاقاح** – في علوم البلاغة – المتن والشرح لعبد الله بن الحاج ابراهيم الانف الذكر، جزءان، 25 رمضان سنة 1329 هـ. ولم يذكر اسم كاتب هذه المنشورات الخمسة، اما مصححها – جميعا – فهو ابو زيد عبد الرحمن بن جعفر الكتاني المتوفي سنة 1334 هـ. وهذه الخمسة هي التي ورد فيها اسم المصحح بين منشورات هذه المطبعة التي وقفت عليها.

واخيرا فمن الواضح أن هذه المطبعة الحجرية غير المطبعة السلكية الفاسية التي طبع عليها هذا السلطان مؤلفات كثيرة ومهمة، وسنتحدث عنها – على حدة – باعانة الله تعلى.

7 – مطبعة احمد بن عبد الكريم القادري

الشريف الحسني الشهير الذى لا يزال بقيد الحياة.

8 – مطبعة الشركة المحدثة لطبع الكتب بفاس.

وقد جاء الاعلان عن تاسيس هذه الشركة «اخر رسالة **كمال الاعتراف بالعمل بالتلغراف**» لمحمد بن عبد السلام الطاهرى المكناسي، ويحمل هذا الاعلان تاريخ 2 صفر عام 1335 هـ/28 نونبر سنة 1916 م.

ولا تزال معلوماتي عن هاتين المؤسستين غير مكتمله ولهذا سيكون حديثهما موضوع تكملة مذيلة لهذا البحث الذى نختمه .

أولا ـ ببيان ان «اخر مطبعة حجرية مغربية هي مطبعة القادرى الانف الذكر وقد حطمتها السلطات الفرنسية سنة 1944 م (40) .

ثم نذكر ـ ثانيا ـ ان منشورات المطبعة الحجرية الفاسية قد ورد كثير منها ضمن :

أ - «تقويم المطبوعات الفاسية» الذى اشترك في وضعه ـ بالفرنسية كل من الأستاذين محمد بن شنب الجزايرى، وليفي بروفنسال، ونشر في «المجلة الافريقية» سنة 1922 م.

ب - «معجم المطبوعات المغربية» الذى يشتغل باخراجه الاستاذ بالمدرسة الادريسية الثانوية بفاس : ادريس بن الماحي الادريسي القيطوني .

وقد كانت اللايحتان حافزا لعدم تذييل هذا الموضوع بفهرس للمطبوعات الفاسية، التي اكتفيت منها بنماذج توضيحية تخللت مباحث هذه الرسالة، والله ـ سبحانه ولى التوفيق .

ملاحق حول المطبعة الحجرية

ان الملاحق الاربعة الاولى ماخوذة من سجل كان للسيد الطيب بوعشرين وزير السلطان محمد الرابع، وهو ـ الان ـ في حوزة العالم الاستاذ ادريس بن الماحي الادريسي ـ القيطوني الفاسي .

ملحق رقم 1

نفقات الطبيع المصرى والمطبعة في الاربعة الاعوام الاولى، وهي واردة في السجل هكذا :

الحمد لله، تحصل من زمامات نظار فاس وامنائها : انه صير على المصرى صاحب المطبعة من مستفاد احباس القرويين، في مدة مبدؤها ربيع الثاني عام 1282، و«اخرها متم رجب عام 1285 في :

صاير مطبعة ومئونته اليومية .... 31 «41»

والشهرية 200

وكراء داره للمطبعة 180

واجرة النساخ مياومة ..../ 12

والمصحح مياومة ..../ 12

حسبما هو مفصل في زمامهم ـ الجميع هذا : وهو اثناعشر الف مثقال . ومائة مثقال ، واربعة وستون مثقالا، وثمان اواقي 121648 .

وصير عليه امناء فاس في المدة المذكورة : في كساويه ومئونة اصحابه «20» وكساويهم وكراء دار سكناه وفي تسفير كتب، حسبما هو مفصل في حسابهم الاول والاخير هذا · الجميع عشرون الف مثقال . وستمائة مثقال . وستة وسبعون مثقالا هكذا : 206760

يضاف له ماكان صيره عليه امناء الصويرة في شعبان عام 81 : في :

مئونته 150

وزاده 270

وكراء سفره 1160

وصائر مطبعته 874

الجميع هذا 2454

وما صيره عليه نظار مكناسة، من 28 شعبان عام 81. الى 17 ربيع الاول عام 82. في :

كسوته 836

ومئونته 4000

وصاير مطبعته 1268

الجميع هذا 6104

وما صيره عليه امناء طنجة في مسائل المطبعة على يد الحاج سعيد كسوس (42) الى اوائل ذى الحجة عام 1283 . هذا 32576

يصير الجميع اربعة وعشرين الف مثقال، وسبعمائة. وتسعة وثمانين مثقالا . واربع أواقي هكذا 247894

∴

ملحق رقم 2

مرتبات موظفي المطبعة

الحمد لله . المصرى يقبض في مئونته اليومية من الاحباس ، هذا .. 31

كان يقبض هذا «31» اولا ثم صار يقبض ـ الان ـ كل يوم هذا 26

ويقبض ـ أيضا مشاهرة من الاحباس ـ عشرين مثقالا 200

والنساخ له يقبض من الاحباس كل يوم، هذا ..../ 12

والمصحح يقبض من الاحباس كل يوم هذا ..../ 12

والمتعلمون ـ عددهم «20» ـ يقبضون كل يوم من الامناء 56

كانو يقبضون هذا «56» في اليوم . فصاروا يقبضون الان هذا 67
كل يوم حسبما بزمام أهل فاس .

∴

ملحق رقم 3

العقد الواقع بين القاضى الروداني والطبيع المصرى، في شان عمل الاخير بالمطبعة، وهو محرر بخط المصرى الشرقي على ورقة خاصة كتب باعلاها :

ورقة ضمان وشروط ومقادله «مقاولة» وما اشبه ذلك من السندات الخالية عن وضع مبلغ، ثمنها قروش «6»، واسفل هذا ـ بعد مقدار اربعة أسطر ـ جاء نص العقدة هكذا :

«انه لما كان في يوم الاربعاء المبارك 14 يوم خلت من شهر ربيع الاول سنة 1281 اتفق حضرة العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني. ابن المرحوم السيد محمد الروداني من اهالي مدينة رودان «المغرب»، مع

الفقير الى الله تعالى كاتب الاحرف الفقير محمد القباني المطبعي، بن المرحوم ابراهيم، من أهالي مصر المحروسة، على انه يتوجه برفقته الى مدينة رودان بارض المغرب، ويشتغل عنده على مطبعة حجر لو عدة سنة كاملة، ابتداها «كذا» شهر ربيع الاول سنة 1281 . وانتهاها «كذا» شهر الخير «كذا» سنة 1282 . وله في نظير ذلك راحته مما جميعه «كذا» من اكل وشرب وكسوة على طبق مراده . وفي كل شهر يعطى له مايتان غرش مصروف لجيبه، وقد رضي الفقير محمد القباني بذلك، ومن بعد وفاء السنة المذكورة اذا أراد الفقير محمد القباني بان يرجع الى بلده مصر المحروسة، بان يرحله العمدة السيد الطيب الى حد بلده على طرفه، وقد رضي السيد المذكور بذلك.

وايضا الفقير محمد القباني استلم من حضرته تسعة بينتو سلف الله تعالى لاجل يوفي «كذا» بهم ما عليه من الديون الذى عليه بالمحروسة، وفي محل الاقامة يوفيهم لحضرته، مع التدارك بعد انقضاء السنة المذكورة في دفعة واحدة ان اراد الرجوع الى بلده ما على امر «كذا» ان اراد القيام مع السيد المذكور.

وقد رضي كلاهما بذلك على يد من حضر من المسلمين. والاسما «كذا» والختم في 14 ربيع الاول سنة 1281 . كاتبه الفقير محمد القباني المطبعي . العمدة الفاضل السيد الطيب الروداني .

وأسفل هذا ـ في نفس الورقة ـ بخط القاضي الروداني :

«الحمد «كذا» اخذ الكاتب اعلاه من كاتبه «9» بنتو، ومسمى بنتو بمصر : السخص المسمى بالغرب باللويز، الرائج باربع ريالات من السكة الفرنسيس، وبمائة وخمسة وثلاثين قرشا بالحساب المصرى، قيده ـ بيانا ـ محمد الطيب بن محمد التملي غفر الله له ولطف به» .

***

ملحق رقم 4

حساب لوازم موجهة للمطبعة من جبل طارق

وقد قدرت اثمنتها حسب العملة الانكليزية :

«الحمد لله» حساب لوازم المطبعة للجانب العالي بالله :

وجهنا في الرفقة الاولى ما تخلصنا فيه من الامناء، كما اخبرنا سيدنا بذلك
14 – 2 – 0

ثم في الرفقة الثانية – أيضا – وجب .... 8 – 4 – 4

ثم – ايضا – بعده هذا .... 0 – 3 – 33

الجميع خلصنا فيه الامناء . وقدره هذا .... 8 – 7 – 37

ثم ثمن «150» رزمة كاغيد، ومداد، واحجار الطبع، وكاغيد من غير نشا، وبدر، ومس، ومنضار، وصابون أبيض، وغير «كذا» وجب ... 3 – 2 – 367

ثم صابون مصرى وصاير عليه الى طنجة .... 2 – 1 – 5

الجميع، وجه لنا الامناء ثمنه وقدره هذا .... 5 – 3 – 372

ثم ثمن صابون، وجفافة البحر، وماء قاطع، وماء لغسل الخروق، وجه الامناء ثمنه .... 8 – 7 – 17

جميع ما وجه لنا الامناء ثمنه هذا .... 5 – 9 – 441

ثم – ايضا – ما طلبنا من الامناء ثمنه يوم تاريخه كما هو مبين أسفله : اوله ثمن صندوق الذى قدم من عند السيد الحاج محمد افروخ ثمنه = 20 × . فيه لوازم المطبعة التي امر سيدنا – نصره الله – بجلبها من مصر، صاير عليه هذا .... 0 – 6 – 1

الجميع هذا .... 0 – 6 – 21 ×

ثم اثنان ارطال من غرا السمك بهذا .... 0 – 6 – 11 ×

ثم اثنان ارطال صوفة البحر، يجب .... 0 – 9 – 10

الجميع هذا .... 0 – 3 – 22

ثم ثمن ستة شناديل «كذا» وصاير عليهم يجب هذا ...... 8 – 4 – 21

ثم 10 صناديق كاغيد كتابي، داخلهم مائتين «كذا» وعشر رزمات 0210 سوم الرزمة – 4 = 11 = 1 × . يجب هذا .... 8 – 10 – 406

سايـر «كـذا» عليهـم فـي كـراء البـابـور لطنجـة وكـراء فلـوكـة .... 0 – 6 – 3

جميـع ثمـن الكـاغيـد هـذا .... 8 – 4 – 410 ×

جميـع لـوازم المطبعـة الـذى طلبنـا ثمنه مـن الامنـاء يـوم تاريخـه هـذا .... 0 – 6 – 475 ×

الجميع كما ذكر اعلاه هذا، مفصلا كل رفقة وحدها .. 5 – 3 – 917 ×

قيد في جبل طـارق في 5 من ذى الحجة الحرام، عـام 1283 .
مجمـوع القـائمـة اعـلاه، تسعمائـة ريالا ذهبـا، وسبعـة عشر ريـالا ذهبا وثـلاث بـلاطـات وخمسـة اكـوارط .

∴

ملحـق رقـم 5

رسالة في شان قيـام الطيب الازرق بالمطبعة بعـد سفـر الطبيـع المصرى

«الحمـد الله وحـده» محبنا الفقيـه الاديب، اللبيب، الحاجب، الوزيـر الاعظـم، والمـلاذ الافخـم، سيدى موسى بن احمد، سلام عليك ورحمة الله تعلى وبـركاته عـن خـير مولانا نصره الله .

وبعـد : فبعـد تقديـم الاهـم مـن تجـديد العهـد بكـم، والسؤل عـن احوالكم، واستجلاب صالح الدعاء منكـم ولكـم لاسيمـا في أوقـات الانـابـة، ومظـان الاجـابـة .

فليكن في كريـم علمكم ان المطبعة الشريفة التي كان سيدنـا المقدس بالله احدثها في هـذه البلاد المباركة، جعلها الله في ميزان حسناته ـ لما بقيت مهملة بتوجه المصرى الذى كان قيما عليها لحـال سبيله، ورد طلبة العلم الشريف على حامله المعلـم الطيب الازرق الذى كـان تخرج في معـرفة كيفية الطبع على يـد المصرى، وطلبوا منه القيام فيه مقامـه، فلـم يجـد بدا من مساعدتهم، وأنهى مطلوبهم لمولانا قـدس سره، فاجـاب اليه برد الله ضريحه لما رءا فيـه مـن نشر العلم الشريف، بعـد ان التزم المعلـم المـذكور بدفـع العشر مـن الكتب التي يطبـع فيهـا لجـانب المخـزن .

في مقابلة احجاره ومطبعته التي يقع الطبع فيها .

وحيث مضى العمل على هذا وكانت يده فارغة . طلب مني المعلم الطيب مشاركته في المطبعة المذكورة اعانة له على تحصيله بالصائر، لانه لابد منه، فاجبته اليها باشارة من مولانا الوالد رحمه الله ومتعنا برضاه . لما رايت فيها من النفع والبر الذى امر الله بالمعاونة عليه، ولا زلنا على هذه الحالة الى ان قام السيد الطالب الشامي ناظر مسجد القرويين . يطالبنا باعطاء ثلاثة كتب من كل ما طبعناه، زيادة على العشر المذكور، مع انه لا مدخل (43) لجانب الحبس في هذا العمل، ولا تعلق له به الا ماكان الزمه لنفسه المعلم المذكور، وبسبب ذلك لما ورد الامر المولوى من سيدنا المرحوم باعطابه للمطبعة والاحجار امتنع الناظر من ذلك الا بالتزامه ما ذكر، ولما راءا امتناع الناظر من ذلك، ألزم نفسه ما وصلكم، فدفع الناظر بعض حوائج المطبعة وترك البعض تحت يده، فاستظهر الناظر بالاشهاد المذكور، ورام قبضه مني، مع انه لا مدخل للحبس في ذلك، وانما النظر لمولانا المؤيد المنصور بالله، وقد التزم له بالعشر وصار يدفعه لامنائه، فلم يبق لقائل ما يقول، ولا لمريد الزيادة ما يزيد .

فنحب من الله ثم منك : أن تنهي لسيادته هذه القضية ليامر اعزه الله بكف الناظر عن خطابه ايانا بما زاد على ما يدفعه للجانب العلي بالله . كما نحب ان تخبر جنابه العالي بالله بان الاحجار المشار اليها فسدت . ونظره السديد اوسع في اصدار امره الشريف بامر الناظر بدفع ما بقي تحت يده من الاحجار والمطبعة، لتبقى هذه الحسنة جارية على يده الشريفة .

وسلم منا على محل الاخ نجلك سيدى احمد بارك الله لنا فيكم . والسلام في 21 شوال الابرك عام 1291 . الحسين بن محمد الدباغ كان الله له ولوالديه «امين»، صح من اصله بواسطة المرجع التالي :

النهضة العلمية، في عهد الدولة العلوية للمؤرخ ابن زيدان ـ خ

∴

ملحق رقم 6

وهذا مع ارقام : 7 ـ 8 ـ 9 بعده . يشتمل جميعها على وثائق حول نشر «اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين». للسيد

محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، وهذه الوثائق تتسلسل ابتداء من رسالة رئيس العلماء بمكة المكرمة الشيخ احمد دحلان، للسلطان الحسن الاول، حيث كان هذا الشيخ يحاول طبع شرح الاحياء بالشرق، وكاتب سلطان المغرب، يطلب منه احدى نسختي هذا الشرح المحفوظتين بالمغرب، ليقع الطبع عليها . وهذا نص الرسالة .

اللهم انا نسالك باسمائك الحسنى، ونتوسل اليك بنبيك الاسمى، ان تلحظ بعين رعايتك الربانية . وتحفظ بحفظ وقايتك الصمدانية، من ملكته زمام السلطنة السنية، واقمت بدولته منار الشريعة المحمدية . السلطان ابن السلطان بن السلطان . الملك المظفر المعان، مولانا السيد الشريف في النسب الحسن، مولانا السلطان حسن . أيد الله بدولته الاسلام والمسلمين . وقمع بسيف صولته الكفرة والملحدين، امين .

اما بعد تقبيل الاقدام . والدعاء لدولتكم ببلوغ المرام . فالداعي لتسطيره . والموجب لتحريره . التشرف بالسؤال عن ذاتكم السنية . لا زالت امنة محمية . فان اوصافكم الحميدة اوجبت على محبكم محبتكم الاكيدة، وما زال داعيا لكم تجاه البيت الحرام، والركن والمقام، والمشاعر العظام، بالحفظ والنصر وبلوغ المرام، جعل الله ذلك في حيز القبول، بجاه سيدنا الرسول، صلى الله عليه وسلم وعلى اله واصحابه وانصاره واحزابه .

ثم المعروض على مسامعكم الكريمة . وعواطفكم الرحيمة . أن شرح العلامة السيد مرتضى على احياء علوم الدين من الكتب التي يحصل بها النفع العام، لجميع الاسلام . وهو مفقود من الحرمين الشريفين، مع انه ينبغي وجوده في كل من البلدتين، ومفقود أيضا من اليمن ومصر والشام، مع الاحتياج اليه لاهل الاسلام، وهو موجود في خزانة كتب سلطنتكم السنية، وفي خزانة كتب القروية .

فالمرجو من مراحم دولتكم العلية . ومكارم همتكم المرضية . صدور امركم الكريم . بالتفضل بنسخه من فيض احسانكم العميم . بان يصدر الامر من دولتكم بنسخ نسخة من احدى النسختين، ليحصل النفع بها في الحرمين الشريفين . او تامر بارسال احدى النسختين ليحصل نسخها بالحرمين . ثم تعاد لمقرها المصون . وموطنها المبارك الميمون . واذا حصلت نسخة باحدى الحرمين يحصل ان شاء الله طبعها من غير مين . فينشر بطبعها الوف من الشرح المذكور . ويكتب الله لكم بذلك اوفر الاجور .

والدال على الخير كفاعله . ومن دل على هذا فله مثل اجر من عمل بــه . ومن سن سنة حسنة فله مثل أجر من عمل بها .

لازلتم موفقين للخيرات، فائزين بأعلا الدرجات، واقدامكم الكرام، مقبلة على الدوام، في غرة ربيع الاول سنة 1300 .

الداعي لدولتكم . رئيس العلماء . ومفتي الشافعية . بمكة المحمية احمد بن زيني دحلان ..

«النهضة العلمية . في عهد الدولة العلوية»

.·.

ملحق رقم 7

كتاب السلطان الحسن الاول لقاضيي فاس . في شان ما وجد من شرح الاحياء بخزانة القرويين وهو مؤرخ في 25 ربيع النبوى عام 1301

القاضيين بمحروسة فاس : السيد حميدة بن محمد، والسيد احمد ابن عبد الرحمن، وصل جوابكما عما امرنا كما به من البحث في خزانة القرويين عن شرح الشيخ مرتضى على احياء علوم الدين . ومراجعة كناش كتبها، بانكم الفيتم ثلاثة ارباعه : الثاني والثالث والرابع في احد عشر جزءا، كما الفيتم من الربع الاول سبعة أجزاء، وبينتم ما فيه من البتر من المحال التي سميتم، فكان جميع الاجزاء، الموجودة في الخزانة، المقيدة في الكناش الحادث ثمانية عشر، ذاكرين ان الكناش لم تعثروا عليه، وان نحو النصف من كتب الخزانة متلاش غير ممكن الاصلاح، وفي بقائه بها ضرر على الباقي، طالبين ما يكون عليه العمل فيه وفي المتلاشي الممكن الاصلاح، وصرنا من ذلك على بال .

فاما ما عثر تم عليه من الاجزاء الثمانية عشر بخزانة القرويين فقد عرفناه، وحيث تعين البتر في الربع الاول فليكمل كتابة بالمواجرة عليه من النسخة التي بالخزانة الملوكية، فقد امرنا المكلفين بها بدفع المنتسخ منه لكم من محل البتر الذى عينتم، فلتطلبوه منهم بعد تعيينه لهم، واشرعوا في العمل من الان على بركة الله، وقد امرنا ناظر القرويين بالصاير على ذلك، كما امرنا المكلفين بالخزانة الملوكية بان يكملوا ماخص من النسخة التي بها من

«اخرها على يدكم، والصابر على ذلك امرنا به امناء دار عديل وعليه فلتقوما على ساق في وصل البتر من كلتا النسختين .

واما الكناش القديم فلتبحثوا فيه عند من كان حتى تعثروا عليه، فان في اخفايه دسيسة واضحة، واعلمونا ...»

«سجل مكاتيب حسنية» خ. ع 3063 د ـ ص 271

ملحق رقم 8

جواب السلطان الحسن الاول عن رسالة

الشيخ دحلان، وهو مؤرخ في 25 ربيع النبوى عام 1301

المحب في الله، الخير الاحظى، فقيه الشافعية ومفتيها، العلامة المرتضى السيد احمد دحلان، المكي الشافعي، سددك الله، وكنفتك مرضاته .

اما بعد . فقد وصل كتابك سائلا عن الاحوال، المرجو من الكريم سبحانه دوام اجرايها على اصلح منوال، وداعيا لجانبنا تلقاء البيت الحرام، والركن والمقام، بما يرفع لمواطن القبول، ويتأرج بنفحات اجابته الجنوب والقبول، بجاه مولانا الرسول، عليه وعلى عترته واسرته الصلاة الكاملة والسلام الموصول، وراغبا في توجيه نسخة من الشيخ مرتضى على الاحياء. للتوقف هنالك عليه، لكونه بذلك الاقليم مفقودا، مع احتياج اهل الاسلام اليه، كي يحصل بطبعه المقصود من ايقاظ البواعث الوسنة، فتكون دالا على الخير ويثبت به في صحيفتنا اجر من سن السنة الحسنة، الى «اخر مسطوركم السعيد، المتلقى بالاجلال والترحيب المزيد .

فاما ما اسفر عنه ثغر محبتك، ودل بالمطابقة عن صدق مودتك، من اتسامك بعنوان موضوعها، وروايتك من احاديثها المتصلة غير مقطوعها، فحكم مسلم الثبوت بقوى الاستدلال، وامر بحول الله قاض يوم لاظل بعزية الاستظلال .

واما ادمانك لجانبنا على صوالح الادعية، فمن مزيد التوفيق والتاييد والظفر بقصارى الامنية لا سيما في ذلك المقام الاكبر، الكفيل بسرعة الاجابة ومنال الحظ الاوفر، فهو من شان الهداة المرشدين، ومن اداء النصيحة التي هي معظم اركان الدين، فليجعل المحب ادمانه على ذلك امرا اكيدا، وليستوجب

بمزيده من مذخر المتوبة عند الله مزيدا . جزاك الله عنا خيرا، ورضي سعيك المشكور بفضله العميم ذخرا، امين .

واما شرح الاحياء المذكور، فقد تيسر، وعما قريب يوافيك بحول الله، والسلام .

سجل مكاتيب حسنة خ. ع. 3063 د — ص 270

.:.

ملحق رقم 9

وهو يتضمن العقد النهائي الواقع مع الطبيعين ابن الازرق في شان طبع شرح الاحياء بالمطبعة الحجرية الفاسية

الحمد لله، لما أن صدر امر مولانا المعتز بالله، ادام الله نصره وتاييده وعلاه، على امناء صائره السعيد بدار عديل وفره الله، بان يصيروا مع جانب حبس مسجد القرويين عمره الله بدوام ذكره، على طبع مائتي نسخة من شرح الشيخ مرتضى على احياء علوم الدين، للامام الغزالي نفع الله بهما، بالمطبعة الفاسية، ذات المحاسن الفاشية، التي هي من جملة مفاخر مولانا المنصور بالله القاخرة، وحسنات سلفه الجارية المتواترة، قدس الله ارواحهم في عليين، وأعاد بركتهم على مولانا امير المومنين، واحيا به معالم الدين، امين، وامر اعز الله امره، بان يكون نصف الصائر على جانب الحبس المذكور، والنصف على جانب بيت المال السعيد، وذلك على يد الفقيهين الجليلين النزيهين العالمين المتفننين القاضيين حينه بمحروسة فاس، اعزهما الله وحرس ولا يتهما من كل سوء وباس، فحضر لذلك اولا المعلمان المباشر ان لطبع الكتب بفاس في حينه : وهما الحاج الطيب بن المرحوم سيدى محمد الازرق الفاسي واخوه للاب المعلم العربي، وكان الفصل وقع معهما اولا في ذلك بان يطبعا معا ملزمة واحدة في اليوم، اى مائتي ورقة وعشر ورقات باجرة قدرها لهما معا على الملزمة عشرة مثاقيل، وللمتعلمين معهما خمسون اوقية، وللمصححين اربعون اوقية، ومثلها للكاتبين، وللقيم خمس عشرة اوقية، وكراء المحل ثمان اواقي في اليوم، وذلك دون الاقامة وغيرها من الصائر اللازم للمطبعة، وكان الاشهاد وقع عليهم بذلك .

ولما طولع بها امناء الصائر المذكورين وسئلوا من قبل من يجب سدده الله وارشده هل سلموا ذلك فيقع عليهم الاشهاد بـه، او ظهر لهم خلافه مما فيه مصلحة لجانب المخزن وجانب الحبس، فيبينوه، فجددوا البحث والنظر في عمل المطبعة وقاعدتها ولوازم صنعتها، فاقتضى نظرهم ان لا يقتصرا المعلمان معا على طبع ملزمة واحدة في اليوم لقلة عملها وكثرة الاجرة المقدرة لها، ولما يقتضيه ذلك من طول المدة لكمال الكتاب، بل يطبع كل واحد منهما ملزمة في اليوم، فيكمل الكتاب في نصف المدة المقدرة له اولا، وان تكون اجرة الملزمتين ـ معا خمسة عشر مثقالا : لكل ملزمة خمس وسبعون اوقية، فينقص لكل ملزمة خمس وعشرون اوقية، وان تكون اجرة المتعلمين على ملزمتين ستين اوقية، يجب للزمة واحدة ثلاثون اوقية، فانتقص عما كان اولا عشرون اوقية، وان تكون اجرة المصححين مثقالين لكل ملزمة، ولهما عن ملزمتين اللتين هما خدمة اليوم اربعون اوقية في اليوم، فانتقص من كل ملزمة عما كان اولا مثقالان، وان يكون ثمن القطران الذي يصنع من هبائه مداد الطبع «داخلا في الخمس والسبعين اوقية التي هي اجرة المعلم على الملزمة، وقدر ثمنه مثقال واحد لكل ملزمة، فتوفر منه الف مثقال بالافراد ومائتا مثقال، كما توفر من كراء المحل عن نصف المدة التي انتقصت بسبب طبع ملزمتين في اليوم نحو الستمائة مثقال، فاجتمع فيما انتقص من الاجرة والاقامة وتوفر لجانب الحبس والمخزن بسبب ماذكر عشرة «الاف مثقال وخمس مائة مثقال، واجتمع في اجور المعلمين والمتعلمين والمصححين والكاتبين وكراء المحل على ما وقع به الفصل ثانيا : سبعة عشر مثقالا بموحدة، وسبع اواقي ونصف الاوقية لكل ملزمة تطبع، وهي مائتا ورقة وعشر ورقات، وهي اثنان واربعون كراسا في القالب الكبير، وهي خدمة معلم واحد من المعلمين، فهما معا يطبعان اربعة وثمانين كراسا في اليوم، واجتمع في ثمن الكاغد الواجب لخدمة الملزمة عشرة مثاقيل وثلاث اواقي، وفي الاقامة لكل ملزمة تسع عشرة اوقية وربع الاوقية، كما ذلك مبين ومفصل بالزمام طرته، فاجتمع في صاير كل ملزمة اجرة واقامة وكاغيدا تسعة وعشرون مثقالا وتسع اواقي وثلاثة ارباع الاوقية، فاذا ضرب هذا العدد فيما في الاصل المنتسخ منه من الملازم . واضيف للخارج ما تتوقف عليه الخدمة من الاقامة في بعض الاحيان عن المدة كلها . وقسم المجتمع على عدة الكتب المراد طبعها، يخرج ثمن الكتاب الواحد، وقدره اربعة عشر ريالا، وتسع وعشرون اوقية ونصف الاوقية كما فصل وبين «اخر الزمام يمنته .

وبعد ما استوعب المعلمان المذكوران الصائر المبين بالزمام المذكور من اجرة واقامة وغيرهما اشهدا معا انهما رضياه وقبلاه ووافقا عليه والتزما طبع الكتاب المذكور بالاجرة والاقامة المذكورة، وعلى ان يطبعا ملزمتين اثنتين في اليوم، ملزمة لكل واحد منها طبعا جيدا متقنا لا عيب فيه ولا محو ولا تقطيع في حروفه، غير ناقصة من المداد، مع ما يجب لها من اقامة الطبع، كما التزما ايضا بدرك ما عسى ان يفسد من يد الكاتبين الذين عيناهما لذلك، لكونهما اختبرا خطهما في الطبع فوجداه صالحا لعمل المطبعة، التزاما لازما لهما وذمتهما، واتفقا معا على ان يختص كل واحد منهما بطبع نصف الكتاب المذكور، وان يختص كل واحد منهما بكاتب يكتب له ليكون نصف الكتاب بخط كاتب، والنصف الاخر بخط كاتب «اخر، وليتميز عمل كل منهما من الاخر، حضر امناء الصائر المذكورون، ووافقوا على ما ذكر كله الموافقة التامة، عرفوا قدره، شهد به عليهم باكمله وعرفهم، وفي حادي وعشرى شعبان الابرك عام واحد وثلاثمائة والف، فلان بشكله ودعائه، وفلان بشكله ودعائه، صح من اصله

وبطرة هذا العقد بيان تكاليف طبعه وفيه فوائد منها معرفة ماكان يحتاج اليه يومئذ في الطباعة الحجرية واجرة المواد والعمال :

الحمد لله هذا بيان الصائر على طبع مائتى نسخة من شرح الشيخ مرتضى على احياء علوم الدين للغزالي، نفع الله به، وهي التي صدر الامر الشريف بطبعها، مع زيادة عشر نسخ لجبر ما عسى ان يتمزق حال الطبع، او يخرج غير صالح .

ففي الاصل المنتسخ منه على ماقدره المعلمان المباشران للطبع اثنتي عشرة مائة ملزمة، والملزمة عبارة عن صفحة من الكاغد يكتبها الكاتب وتطبع في الحجر، ثم يطبع منها أوراق بعدة ما يراد من الكتب، ثم يكتب الكاتب التي تليها وتطبع في الحجر كذلك بعد محو الاولى، وهكذا الى انتهاء ما في الاصل من الملازم، ولذلك اذا اريد ثمن الكتاب الواحد قبل الاخذ في طبعه، بحسب صائر ملزمة ويضرب فيما في المنتسخ منه من عدة الملازم يخرج صائر الكتب كلها، فيقسم على عدتها يخرج ثمن كل كتاب منها .

«بيان اجرة ملزمة واحدة اعني مائتين ورقة وعشرة».

فللفقيهان المصححان «كذا» على كل ملزمة 20

وللكاتبين لكل ملزمة 40

وللمعلمين لكل ملـزمـة بادراج القطران كما وقع بـه الفصل 75

وللمتعلمين عدتهم خمسة للملزمتين واجرتهم على واحدة هكذا 30

اجرة القيم حيث تطبع ملزمتين في اليوم هذا : 15 وعلى واحدة هذا 07

كـراء المحل لكـل ملـزمة بحسب 240 في الشهر وزيادة يسـيرة لمقابلة ايام البطـالـة هـذا في اليـوم عـن ملـزمة واحـدة 05

ج/ 177

«مـاقـدر مـن الاقـامـة لكـل ملـزمـة بمـوافقـة المعلمـين»

فمن زيت الكتان 10 وزيت الزيتـون 1 وليم /2 مـع مـاء قاطـع وفحـم 2 ودلاكـة 1 ومـداد الأصـل 3 .... / 19

بيـان الكـاغيـد الـواجب للملـزمـة 210 وميـزانـه وثمنـه

يجب في المـائتين والعشرة المذكورة من الكراريس 42 ويزاد كراسان على كل ملزمـة في مقابلة . الاوراق التي يكتبها الكاتبان وما تغطى بـه الاوراق حال الطبع . مع ما عسى ان يتمزق بذلك : نصف رزمـة غير كـراس . وميـزانهـا من العينة التي اشتراها امنـاء الصائـر الان : ارطـال 7 عـدى ثـلاث اواقي سـوم 15 للـرطـل يجب 103

اجتمـع في صائـر ملزمـة اجرة واقامـة وكـاغيـد .... ٪ 299

وهي بكراريس 42 . وهي خدمـة معلـم واحـد في اليـوم . وضعفهما 84 للمعلمين . فاذا ضرب الصائر «299٪» المذكور في عـدة ما في الاصل المنتسخ منه من المـلازم : وذلك 1200 بتقدير المعلمين يخرج 359700، يضاف لـه ثمن بعض الاقامـة الباقية المحتاج لها في بعض اوقات مدة الخدمـة وذلك ثمن شحمة 1200 لترطيب الجلود التي بالمرمتـين وثمـن صابـون 3000 لغسل الـزيوف وايدى الخـدمـة 1500

وثمـن جفائف البحر 1000 لمباشرة الخدمة عن المدة وثمن 600 رملة مكناسية لحك الحجـر ومحـوه، وثمن فتائل 1800 حياتـي لوقـود القطران واستعمال الهبـاب منه للمداد عن المدة كلها 3400

«اجتمع في الاقامة الثانية هـذا ما رفـع»................. 004900

اجتمع في صائر المـائتين والعشرة كلها هذا .... ٪ 364899

يقسم هذا المـال المجموع على مائتين وعشرة ليتبين صائر كـل كتاب على علـى الانفـراد . يخـرج هـذا 8/ 1737 عـنـه ريـال . بصرف 122 هـذا 14 مـع اواقـي 8٪ 29» .

«النهضة العلمية . في عهد الدولة العلويـة»

***

ملحـق رقـم 10

ظهـير حسنـي بتـوقـير

الطبيع الطيب الازرق

جـددنا ـ بحول الله وقوتـه، وشامل يمنه ومنتـه ـ لمـا سكـه : الطيب الازرق الفاسي معلم مطبعة الكتب العلمية، بفاس الادريسية، صانها الله ـ على ما بيـده مـن كتاب مولانا الوالد قدسه الله، المتضمن سدل اردية التـوقـير والاحتـرام عليه، وحمله على كاهل المبرة والاحترام ... وفي 29 ربيع الثانـي عـام 1291 صـح مـن اصلـه .

التعليقات

(1) ص 49 ــ تعليق رقم 2 .

(2) هو كتاب «الشمائل المحمدية» الذي تم طبعه بمكناس في 4 صفر عام 1282 هـ/29 يونيه سنة 1865 م، انظر ص 6 من هذه الرسالة . ومن الجدير بالذكر أنه حين كتابة هذا الموضوع كان تاريخ 29 يونيه 1965 م لا يزال لم يحل، والان ــ ساعة تصحيح هذه التجارب المطبعية ــ قد مضى على هذا التاريخ ازيد أربعة اشهر، ومع هذا لا ينبغي اهمال هذه الذكرى المئوية لاول مطبعة عربية مغربية، ويمكن أن يحدد لها ــ ايضا ــ تاريخ 28 اكتوبر سنة 1966 م. وهو التاريخ الذي تتم فيه مائة سنة ميلادية على نشر أول كتاب بهذه المطبعة الحجرية بعد استقرارها بفاس، وذلك هو «شرح المقدمة الاجرومية» لخالد الازهري، وقد تم طبعه في 17 جمادى الثانية عام 1283 هـ الذي يوافق 28 اكتوبر سنة 1866 م .

(3) تاريخ «اداب اللغة العربية لجرجي زيدان ط. مطبعة الهلال = 1931 م ج4 ص54 ــ 55 .

(4) تاريخ الطباعة في الشرق العربي، للدكتور خليل صابات. ط. دار المعارف بمصر. ص 33 و 93 و 121 و 136 .

(5) الصحافة العربية، تاليف اديب مروة. ط. مكتبة الحياة ــ ببروت. سنة 1961 م ــ ص 223 .

واستدرك هنا فأذكر أني وقفت ــ بعد هذا ــ على طبعه لـ «كتاب الاخبار المبينة، لاستيلاء الترك على قسنطينة» ــ خ. ع 709 د ــ وهو مكتوب بخط ابن العنترى : محمد الصالح، ومطبوع ــ على الحجر ــ في قسنطينة بدار قائد، قرب دار الامارة، في سنة 1262 هـ/1845 م، وحسب ذكر البعض، فان هذا ثاني مطبوع ــ بالعربية ــ بالجزائر، وعلى هذا لا تكون صحيفة «المبشر» أول ما طبع بالعربية في شمال افريقية .

(6) اتحاف اهل الزمان . باخبار ملوك تونس وعهد الامان . لاحمد ابن ابي الضياف. ط. المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ح 5 ص 31

(7) نزهة الابصار .. للعربى المشرفي، نسخة الخزانة العامة ك 579 .

(8) محمد داود ــ «مختصر تاريخ تطوان» . نشر معهد مولاى الحسن بتطوان ــ ص 194 .

(9) انظر (المقتطف) ــ المجلد السادس، الجزء الرابع ــ ص 193 ــ 194 . مع مجلة «الجنان» ج 1 ــ كانون الثاني سنة 1882 . ص9 ــ 10 .

(10) ط. المطبعة السلكية الاولى بفاس، بدون تاريخ الطبع - ص 54 - 55 . وانظر عن ترجمة صاحب الرحلة «الاتحاف» لابن زيدان ج 2 ص 32 - 41 مع «فواصل الجمان» لغريط، ص 142 - 162 .

(11) لاشك انه يقصد الطبعة الاولى للقاموس سنة 1272 هـ. بمطبعة بولاق. في مجلدين مشكولين. مع مقدمة تصديرية في معرفة اصطلاحات القاموس بقلم الشيخ نصر الهوريني .

(12) تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص 25 .

(13) انظر الملحق رقم 1 .

(14) له ترجمة وجيزة في «خلال جزولة» ج 4 ص 120 - 121، ويوجد بخط القاضي أبي عيسى المهدي ابن سودة مبيضة اجازة كتبها للمذكور بتاريخ ذي القعدة عام 1265 هـ. وفيها يذكر أنه رحل لفاس في طلب العلم ولازم رياضه أزمنة وأعصرا، فجنى جل ماطاب، حتى ملا الوطاب، وقيد مائد وشرد، واستكثر من احكام قضاياه كل ما قصد ... مع تحليته في مقدمة المبيضة بقاضي وجدة كانه كان قاضيا بها قبل أن يتولى قضاء تارودانت، والمبيضة توجد ضمن كناش من محتويات «المكتبة الاحمدية» .

وهناك تاليف صغير يسمى : «بكرة الاقتضاض، في بغية الانقضاض»، وهو شرح على قصيدة وضعهما - معا - البشير بن محمد بوحدو السلاوى اصلا ودارا ومنشئا، وتتناول القصيدة - حسب تعبير الشرح - مدح قاضي قضاة سوس ونواحيه الحاج الطيب بن العلامة محمد يمل، حيث بذل المجهود في حفر عين من الماء العذب، وأجراه بتارودانت، وعم النفع بها في المساجد والحمامات، والمطاهر والسقايات، وقع الفراغ من تاليف الشرح ونسخه صبيحة الخميس 13 رمضان عام 1284 هـ ويوجد ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 97 ج .

(15) اسمها الكامل : «المفاخر العلية . والدرر السنية . في الدولة الحسنية العلوية» تاليف عبد السلام بن احمد اللجاىي الفاسي - سفر واحد. توجد مسودته بالمكتبة الزيدانية بمكناس. ومنه نسخة بالمكتبة الملكية بالرباط تحمل رقم 460 . وتوجد مقتطفات منه بالخزانة العامة بالرباط . ضمن كناش يحمل رقم 351 ك .

(16) جاء تعيين هذا المقر «اخر حاشية احمد بن الحاج على شرح الاجرومية لخالد الازهري، المنشور بالمطبعة الفاسية، اوايل ربيع الثاني عام 1295 هـ. حيث ذيلت الكلمة الختامية لهذه النشرة بطابع نقش داخله : «المطبعة المولوية بجزاء برقوقة، فاس الادريسية»

(17) هذا ماخوذ من الملحق رقم 2 .

(18) المفاخر العلية «لعبد السلام اللجائي . وعن ترجمة الرندي ارجع الى «سلوة الانفاس» ج2 ص. 368 .

(19) الدرة السنية . في ذكر الدولة الحسنية «لمحمد بن احمد بن محمد المدرومي الحسني نزيل مراكش – نسخة المكتبة بالرباط رقم 481 . وعن ترجمة ابن سليمان ارجع الى فواصل الجمان» لمحمد غريط ص 200 – 201 .

(20) النهضة العلمية «في عهد الدولة العلوية» لابن زيدان – مقتبسات من نسخة المؤلف .

(21) انظر ص 8 – 9 من هذه الرسالة .

(22) انظر الملحق رقم 2 .

(23) سجل نفقات مخزنية خ. ع. 12 30 د – ص 32 .

(24) انظر التعليق رقم 2 .

(25) الاسم الكامل هكذا : نزهة الابصار، لذوى المعرفة والاستبصار، تنفى عن المتكاسل الوسن، في مناقب احمد بن محمد وولده الحسن «التمكدشتي» .

(26) توجد ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط يحمل رقم د 1115 .

(27) ورد نص هذه الرسالة في الاثار الفكرية، تاليف فكرى افندى باشا – ط. بولاق 1315 ص 54 .

(28) عبد الحفيظ الفاسي «معجم الشيوخ» ط. المطبعة الوطنية. الرباط سنة 1350 هـ/1931 م ج 1 ص 57 .

(29) انظر ص 4 – تعليق رقم 16 .

(30) تعطيل العمل يوم الجمعة وارد في وثيقة ب (النهضة العلمية. في عهد الدولة العلوية) .

(31) «فاس قبل الحماية» حسب تعريب الاستاذ الكريم الصديق ابن العربي مدير مكتبة ابن يوسف بمراكش .

ومؤلف «فاس قبل الحماية» يسمي صاحب هذه المطبعة : الحاج الطالب، وانما هو الحاج الطيب الازرق، كما يذكر انه استقدم صانعا تركيا، والغالب انه انما التبس عليه الامر بالطبيع الذى استقدمه محمد الطيب الروداني من مصر – انظر ص 3 – 4 من هذه الرسالة .

وبعد هذا يقول : «وكان أول كتاب طبع بفاس هو شرح الشيخ مرتضى على الاحياء» هذا في حين أن هذا الشرح انما تم طبعه

عام 1304 هـ بعد ما كانت المطبوعات الحجرية الاولى ابتدا طبعها بالمغرب منذ عام 1282 وعام 1283 هـ انظر المرجع اعلاه ص 6،5 .

(32) حسب افادة الفقيه العدل سيدى محمد بن الطالب ابن سودة المرى.

(33) هناك مقال بعنوان : «تدريس العلوم وطبع الكتب العلمية بالمغرب» بقلم الدكتور رينو ـ هسبريس 1932 م. ص. 78 ـ تعريب الاستاذ الفاضل الصديق ابن العربي الانف الذكر، وقد ورد في هذا المقال : «وفي سنة 1906 لم يبق بفاس سوى ناشر واحد وهو الحاج الطيب الازرق» .

ولا شك ان ذكر اسم الحاج الطيب الازرق هنا غلط واضح، وانما المعنى بالامر هو اخوه العربي الازرق حيث ان اسم الاول اختفى من المطبوعات الفاسية منذ سنة 1313 هـ حسب ص 10 من هذه الرسالة .

(34) له ترجمة في احد تعاليق «النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية» لابن زيدان .

(35) يوجد بخطه الجميل نسخة من «الشفا» للقاضي عياض، في سفر واحد ـ «المكتبة الملكية» بالرباط رقم 6 ـ فرغ من انتساخها صبيحة الاربعاء 6 جمادى الاولى عام 1298 هـ، وسمى نفسه هكذا : محمد الغالي ابن الحسن الحسني المحمدى الفاسي المدار، الزرهوني النجار .

(36) في كناش الفقيه الفرضي محمد بن عبد الرحمن الخصاصي الفاسي : توفي الفقيه سيدى الفاطمى ابن سودة في 4 رمضان عام 1318 هـ صح من خط المؤرخ أبى خليل عبد السلام ابن سودة في كناشه .

(37) ترجمته في «معجم الشيوخ» ج 1 ص 111 ـ 116 .

(38) التصريح باسم هذا الكاتب انما يوجد في بعض النسخ المطبوعة من «الدرر البهية» والمذيلة ـ ايضا ـ بملاحق مهمة .

(39) تعيين هذا المشرف مع مركز المطبعة : عن المؤرخ ابي خليل عبد السلام ابن سودة المرى .

(40) تحطيم «اخر مطبعة حجرية مغربية رواه مؤلف كتاب «فاس قبل الحماية»

(41) الرقم الاول ـ من جهة اليمين ـ للاواقي، وما بعده للمثاقيل .

(42) كان قنصلا للمغرب ـ بجبل طارق اخذا من «اتحاف اعلام الناس» لابن زيدان ج 5 ص 59 .

(43) في الاصل لا خل . ولا معنى لـه .

محمد بن شريفة

من تاريخ الاسر المغربية :

أسرة بني عشرة

تطورها التاريخي ودورها الحضاري

في تاريخ المغرب أسر جليلة، وبيوتات نبيهة، أسهمت بحظ وافر في بناء كياننا، واشتركت بقدر صالح في انشاء تقاليد بلدنا، وذلك بما خلفت وراءها من تراث أدبي أو مادي، وبما خرجت من اعلام برزوا في مختلف ميادين الحضارة، ويعتبر تاريخ هذه الاسر من أطرف جوانب تاريخنا، وامتع موضوعاته لما يشتمل عليه من عناصر وجزئيات قد تساعد على تكوين الصورة الكلية لماضينا القومي، ومن هنا نرى أن هذا الموضوع حري بالدرس وجدير بالعناية، واذ أقدم هذه المحاولة المتواضعة لدراسة بني عشرة، تلك الاسرة السلاوية القديمة، فاني أرجو وآمل ان يكون في ذلك ما يبعث ذوى الهمم الحية على العناية بهذا الجانب من تاريخنا.

من هم بنو عشرة ؟

ذهب بعض المؤرخين الى ربط أسرة بني عشرة بأسرة بنى المدبر العراقية المشهورة، وذكروا انهم من ولد أحمد بن المدبر، أحد رجال الدولة العباسية المعروفين، ولعل أقدم من نص على هذه النسبة المؤرخ الاندلسي ابن بسام في الذخيرة، وذلك أثناء ترجمته للشاعر أبي بكر محمد بن سوار الاشبوني حيث يقول : «ولبنى القاسم في الجود خيم كريم، ولهم تقدم مشهور معلوم، بلغني أن جدهم الاكبر، أحمد ابن المدبر، حامل تلك الفضائل، وصاحب الاعمال الجلائل، اذ كان أحد نجوم تلك الآفاق، ببلاد الشام والعراق، واشتهار معرفة قدره، يمنع عن ذكره» (1) كما أشار الى هذه النسبة عرضا ابن الابار في اعتاب الكتاب فقال : «ويذكر

أن جـدهم الاكبر احمد بن محمد بن المـدبر» (2) ويبدو أنـه اعتمد في ذلك على كـلام ابن بسام، أمـا المـؤرخ الناقد ابن عبد الملك المراكشي فـانه لمـا ترجم لعلى ابن عشرة قال في نسبه : الفـزاري، ثـم ساق بعد ذلك نسبة بني عشرة الى ابـن المـدبـر بصيغـة البناء للمجهول التي استعملهـا ابن الابـار قبلـه فقـال : «ويذكـر أنهم مـن عقب أحمد ابـن محمـد بـن المدبـر الكاتب أخى ابـراهيم وزير المعتمد وكبير» . (3) وكلمة الفزارى التى وردت هكذا في الذيل والتكملة لا يصح ان تكـون نسبة الى قبيلة فزارة فـلا صلة تذكر بينها وبـين بنى عشرة أو بني المدبر، (3*) وانما هي ـ فيما يبدو ـ محرفة عن : الفنزاري، وهى نسبة الى فنزارة، وهـذا الاسم كـان يطلق ـ فيما نعرف ـ على مكـان في طريق فاس بين سلا ومكناس، (4) كما كـان يطلق على جماعة يظهر أنهـا انتقلت مـن هـذا المكـان واستقرت بسلا منذ أيـام المرابطين او قبلهـم (5)، واليها ينسب بعض الاعـلام السلاويين كابى عبد الله محمد بن عمر بن نصر الفنزارى، وأبى عبد الله محمد بن المجـراد الفنزارى (7) وأبي عبد الله محمـد ابن أحمـد الفنزاري (8)، وغيرهم فهـل تكون نسبة الفنـزارى الواردة فـي تـرجمـة على ابن عشرة ذات صلـة بأحد المعنيين المذكورين ؟ وهل تكـون فنزارة في الاصل اسما لقبيلة بربريـة كانت تقطن في هـذه الجهة التى كـان فيها المكـان المعـروف بخميس فنزارة ؟ أم أن نسبة بنـي عشرة الى فنـزارة ـ اذا صحت ـ انما هي من قبيل النسبة الى المكان ؟ تلك اسئلة لا نستطيـع الاجـابة عنها الآن، ومهما يكـن من أمر في نسب بني عشرة فاننا نجد الشعراء الـذين مدحوهم، ينوهون بكرم محتدهم، وعراقة ارومتهم، وشرف نسبهم، فهذا شاعـرهم ابن سوار الاشبوني يقول في شرف نسبهم من قصيدة :

نسـب مـطـرد مـن شـرف ... ككعـوب الـرمـح ذات الاطـراد
وقبيـل كـلـه مـن عـزة ... كظبـى الهنـدي فـي يـوم الجلاد

وله في ذلك أيضا مـن قصيـدة اخـرى :

اذا احتجبوا، لم يستر الحجب نورهم ... وان طلعـوا، كـانـوا بـدر جمـال
أو انتسبوا في المجد، كـان انتسابهم ... لاعظـم عـم، أو لاكـرم خـال

ويقول فيهـم مـن أخـرى :

كـرمتـم فروعا في المعالـي حميـدة ... وطـابت أصـول منكـم وعـروق

ويقـول فيهـم ايضـا :

من معشر طـابـوا مناصب في العلى ... واذا يطيب الاصـل طـاب المـولـد

ويقول في مـدح أحـدهـم :

كـذاك مضت في السالفات جـدوده كما مـر كعب الرمح مطردا كعبا (9)

وفي مـدائح ابن بقي والاعمى التطيلي في بني عشرة مثل هذا، ولم نقف في شعـر هـؤلاء الشعـراء الـذين مدحوهم على ما يلمح الى نسبهـم .

سبب تسميتهـم ببنـي عشرة :

يعـرف افـراد هـذا البيت النبيه ببني القـاسم نسبة الى جـدهم الاقرب القاسم بن محمد بن موسى بن عيسى بن عشرة، وقـد اشتهروا أكثـر مـن ذلك ببني عشرة، نسبة الى عشرة الذي هو اسم الجد الاعلى لـلأسرة، وقـد كـان عشرة هذا من أمـراء المغرب في القرن الرابـع الهجري، وورد في جملة من هؤلاء الامـراء على حضرة الخليفـة الامـوي هشام بـن الحكـم الملقب بـالمـؤيـد وذلك بنية الجهاد في أرض الانـدلس، وذكـر الضبي في البغيـة ان الحـاجب المنصور بن أبي عامر كان يقدمه (10) ذلك هو الاصل التاريخي لشهـرة بني عشرة بهذا الاسم، ويبدو أنه قد تنوسي باختلاف الايام، وتعاقب الاعوام، فحيكت حول هذه الشهرة أسطورة شعبية خلاصتها أن سبب تسمية بني عشرة بذلك انهم كانوا عشرة اخوة توائم . وقـد تناقل العوام هـذه الاسطورة ووهـم فيها بعض من لم ينظر في كتب التاريخ وطبقات الرجـال، ولعل أقدم من اشار الى هـذه الاسطـورة هو المـؤرخ ابن عبد الملك المراكشي الـذى انتقدها ونعت قائليها بانهـم أغمار، وذكـر أن أحـد اعقـاب بنى عشرة سئل عن الاسطورة المذكورة فـانكرها وأجاب بقوله : جعلوا أمنـا خنزيـرة تلد عشرا حسيبهـم الله، ومـع هذا فقـد ظـل الناس بعد ذلك يتناقلون هـذه الاسطورة ويزيدون فيها حتى اذا جـاء ابن عرفة الورغمي الفقيه التونسي المعروف رواها بصورة موسعة، وذلك في باب الميراث مـن مختصره الفقهي حيث يقول : «سمعت مـن غير واحـد (11) ممن يوثـق بـه أن بني العشرة (12) الذين بني والدهم مدينة سلا بارض المغرب، كـان سبب بنائـه اياهـا انـه ولد له عشرة ذكـور مـن حمل واحـد مـن امـرأة له، فجعلهم في مائـدة ورفعهـم الى أمير المـومنـين يعقوب المنصور فاعطى كـل واحد منهم الف دينار وأقطـع أباهم أرضا بوادى سـلا فبنى بهـا مـدينة تعـرف الى الآن ببنى العشر، وبنى يعقوب المنصور مـدينة تسامتها والوادى يفصل بينهما ثـم رأيت في هـذا الوقت رجـلا يعرف ببنى العشرة، فسألته عن نسبه، وسببه، فـذكر لى مثل ما ذكرته». (13) ومن الواضح أن هذه الاسطورة ـ كما أوردها ابن عرفة ـ تشتمل على أوهام مختلفة

وهي من الوضوح بحيث نستغني عن التعليق عليها، وقد نقل العلامة ابن غازي كلام ابن عرفة السابق بنصه في كتابه شفاء العليل عند شرحه قول الشيخ خليل : «ووقف القسم للحمل، ثم عقب عليه بما يلي : «قلت وكأنه لم يقف على مافي رسم الحسن من قسم الغرباء من تكملة ابن عبد الملك اذ قال : تقول بعض الاغمار ان سبب هذه الشهرة انهم كانوا اخوة توائم، فسئل عن ذلك أحد أعقابهم فقال : جعلوا أمنا خنزيرة تلد عشرا حسيبهم الله (14)». أما ابن مرزوق فقد نقل في المكان نفسه من شرحه للمختصر كلام ابن عرفة وسلمه، ثم تتابع فقهاؤنا المتأخرون من شراح مختصر الشيخ خليل، وتحفة ابن عاصم، على نقل كلام ابن عرفة، واعتراض ابن غازي عليه، مع تحريف في نص ابن عبد الملك احيانا (15) . ونظن أن منشأ هذه الخرافة جاء من اسم عشرة الذى يوحي بمعنى العددية، على أن التسمية أو التكنية بعشرة وعاشر وعشرين وأبي عشرة وأحد عشر واحدى عشرة وغيرها من الاعداد شيء موجود في كتب الاعلام الاندلسية والمغربية، ومن الغريب أن مؤرخ سلا الفقيه المرحوم محمد بن على الدكالي، اكتفى في كتابه : الاتحاف الوجيز، بالاشارة الى هذا التعليل الخرافي من غير تعقيب، ولعله توسع في الموضوع في كتابه : الحدائق الذى يحيل عليه كثيرا ولم نقف عليه .

بنو عشرة قبل المرابطين :

أشرت فيما سبق الى الخلاف الواقع في نسب بنى عشرة، واذا ذهبنا مع من يقول بأنهم من بنى المدبر، فاننا لا نعرف شيئا عن تاريخ هجرتهم من المشرق، ولا عن أول داخل منهم الى المغرب، (15*) وهذا ـ مع الاسف ـ من نتائج الاهمال الذى أصاب تاريخ المغرب في عهوده الاولى، حيث لا نكاد نعرف شيئا عن القبائل والاسر العربية التى استقرت بالمغرب بعد الفتح الاسلامي وما تلاه حتى القرن السادس الهجرى . أما المكان الذى نزل به أسلاف بنى عشرة ـ على فرض قدومهم من المشرق ـ فقد يكون فنزارة حسب النسبة السابقة، وقد يكون شلة، كما قد يستفاد من نص ورد فى كتاب الاستبصار أثناء الحديث عن هذه المدينة الازلية، حيث يذكر العشريون بأنهم ارباب البلد . (16) وأقدم من أتانا خبره من هؤلاء العشريين هو عشرة الذى تنسب اليه الاسرة، فقد تحدث عنه الضبي في البغية عرضا في كلمات معدودات، أثناء ترجمته لعلى بن عشرة، فقال : «ورد جده عشرة على هشام المؤيد مجاهدا في جملة من امراء المغرب، وكان حاجبه يقدمه، والدهر

يخدمه (17)» . وهذا النص على قصره واضح الدلالـة على علـو منزلة عشرة، ورفعـة شأنه. فقد كـان قائـدا مجاهدا، وأميرا من أمـراء المغـرب في عصره، وناهيك برجـل كان يحظى بتقدير المنصور بن أبي عامر وتقديمه. ومـع ذلك فاننا لـم نجد له ذكرا في المظان من كتب التاريخ التي بـين ايـدينا، وقد اورد ابن خلدون في العبر (18) ومؤلف مفاخـر البربر (19) نقلا عن ابن حيان، اسماء طـائفة مـن امراء المغرب، وردوا على حضرة قـرطبـة أيـام هشام المـؤيـد وحاجبه المنصور بن أبي عامر وهم : اسماعيل بن البوري، ومحمد بن عبد الله ابن مديـن ابن عمه، ومحمد بن الخير الخزري، وابن عمه بكساس بـن سيـد الناس، وخزرون بن محمد اليزداجي ابن عمهم، وزيرى بن خـزر، وأبو بخت ابـن عبد الله بن بكـار وغيرهم . ونلاحظ ان جميـع هؤلاء الامـراء هم مـن العشائر الزناتيـة التى كانت تتجاذب حكـم المغـرب في ظـل الـولاء للخـلافة الامـويـة بالانـدلس، فهـل كـان عشرة بـين هـؤلاء الامـراء واغفـل ذكـر اسمـه فيمـن أغفـل ذكـره منهـم ؟ قـد يكـون ذلك، لا سيما وأن الفتـرة الزمنيـة التى ورد فيها أمـراء المغرب على حضرة قرطبة هى الفترة نفسها التى اشار اليهـا الضبي في البغية، كما أن العبارة المنقولة عـن ابن حيـان في شأن وفـادة الامـراء المذكوريـن، تشعر بذكر بعضهم فقط . وافتراض أن عشرة كان مـن جملـة هـؤلاء الامـراء، يجعلنا نتساءل مـرة اخـرى عـن صلته بهـؤلاء الزناتيين، فهل هى صلة نسب ؟ ام صلة حلف ؟ ام ماذا ؟ . الشيء الذى نملك الجواب عنه الآن أن هـذا الجـد الاعلى لبنى عشرة كـان من امـراء المغـرب المـوالين لبنى اميـة، خـلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وكـان مـوطنه في شلة أو فى فنزارة من نواحيها .

ولعل عشرة هـذا هو الذى يعنيه الاعمى التطيلى في موشح له يمدح بـه يحيى بن على بن عشرة اذ يقول :

يـا أيـهـا الـسـري — مـن أشـرف القضـاة
قـد حـلاك العلـي — بـالـحـلـم والانـاة
فـجـدك العشـري — مـقـاتـل الـعـداة

يـنـمـى الـى سـلالـة — قـد ورثـوا عـن الجـدود
شـرف المفخـر — هم الدراري في السعود — بـل هـم أفخـر (20)

بنو عشرة وتاسيس مدينة سلا الحالية :

ينبغي التمييز هنا بين سلا الغابرة التى ترد ايضا في النصوص القديمة باسم شلة أو شالة وبين مدينة سلا الحالية فالاولى مدينة قديمة اما الثانية فقد أسسها بنو عشرة في أوائل القرن الخامس الهجري .

ومؤلف كتاب الاستبصار الذى كان يعيش في العصر الموحدي الاول هو ـ فيما أعلم ـ أول من دون هذه الحقيقة التاريخية، ونورد نص كلامه فيما يلي نظرا لاهميته، قال في أثناء حديثه على سلا القديمة : «وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم، مدينة بالعدوة الشرقية، وهى المعروفة الان بسلا، فيها ديارهم بحومة الجامع» . (21) وقد كان هذا النص القيم الذى يفيد بكل وضوح نسبة تاسيس مدينة سلا الحالية الى بنى عشرة مجهولا حتى ان مؤرخ سلا الفقيه ابن على الدكالي، كان يرى أول الامر فيما يروى عنه مؤلف عائلات سلا «أن سلا بنيت في عهد تميم بن زيرى الزناتى اليفرنى ملك سلا وتادلا (22)» ولكنه بعد أن اطلع على كلام صاحب الاستبصار كتب يقول في أرجوزته التاريخية :

وجددت سلا على البحر المحيط	في صدر خامس المئين، بالبسيط
وحقق البانى لها ابن عشرة	لقاسم يعزى، روى من خبره

وهو ـ كما نرى ـ يستعمل كلمة التجديد بدلا من كلمة الانشاء والتاسيس التى تفيدها عبارة صاحب الاستبصار، كما أنه يعزو بناء المدينة أو تجديدها الى القاسم بن عشرة ـ اذا كان الضمير في قوله : يعزى، عائدا الى البناء لا الى البانى ـ ويذكر أن تاريخ البناء كان في صدر القرن الخامس الهجرى بل انه يحدده بسنة 420 هـ كما هو مكتوب مرتين في طرة الكتاب (23) ولا اعلم الان مصدره في كل ذلك، هذا ولسنا نعرف الاسباب التى دعت بنى عشرة الى الخروج من شلة واتخاذ مدينة خاصة بهم وباتباعهم على الضفة الشرقية من الوادى، وقد يكون ذلك من نتائج الخراب الذى أصاب شلة أثر الفتن والحروب التى دارت بين برغواطة وبنى يفرن الذين غلبوهم على بلادهم واجلوا من بقى منهم (24) ونحن نجهل أيضا موقف أسلاف بنى عشرة من برغواطة نفسها (25).

ومهما يكن من أمر فان نسبة تاسيس مدينة سلا الحالية الى بنى عشرة كانت معروفة لدى القدماء، حتى ارتبط اسمها باسمهم، فكانت تعرف في بعض الاوقات بمدينة بنى العشر كما في كلام ابن عرفة الذى مر ذكره،

ومـن مظاهر هـذا الارتباط أن لسان الديـن ابن الخطيب لما أراد أن يفاضل بين مالقـة وسلا مـن حيث الاعـلام والرجال في رسالتـه : مفاخـرات مالقـة وسلا، لـم يجـد مـن يستحق الـذكر في نظره الا بنى عشرة، فبعد أن ذكر أن أعـلام مالقـة يضيق بهم رحب المجال، قال عن سلا : «وسلا المسكينـة لا ترجو لعثـرتهـا، الا ابـن عشرتهـا (26)» وليس مـن شرطـي هـنـا أن أرد علـى ابـن الخطيب (27)، وانما أوردت كـلامـه لما فيه مـن دلالـة على اقتـران الذكـر الذى ظل راسخا في الاذهـان الى عهد ابن الخطيب بين سلا ومؤسسيها مـن بنى عشرة .

بنـو عشرة في أيـام المـرابطـين :

بلـغ بنو عشرة ذروة المجـد وأدركوا غـاية السؤدد في أيام المرابطين اذ طـار صيتهم، وغدوا في سلا «بدور سمائها، وصدور أسمائها» كما يقول الفتح ابن خاقان في القلائد (28)، واصبحت حضرتهم قبلة يـؤمها طلاب النوال، وكعبة يحج اليها أهل العلم والفضل، ومستراحـا للوافديـن مـن اعـلام الانـدلس على مـراكش حاضرة المملكـة يومئـذ، حتى ان المقام لم يكـن يطيب لهـؤلاء بسلا، اذا كـان زعيمها من بنى عشرة غائبـا عنها. يـروى الفتح ابن خاقـان أن الفقيه الحافظ القاضي أبا محمد عبد الحق بن عطيـة «حـل بسلا والفقيه أبـو العباس فخـر بنى القاسم، وزين الاعيـاد والمـواسم، الذى تهمى مـن يـديه للندى سحب تكف، وتطوف بكعبته الآمال وتعتكف، غائب عنها فلـم ينخ فيها عيسه، ولـم يرتخييمه بها وتعريسه، ورحل من ساعته، وقال شعرا أخـذ الناس في اشاعتـه واذاعتـه، وهـو .

يا صاحبي انزلا قصر الحمى فسـلا	أنى سلا المجد عن أن تحتويـه سـلا
كـأنما الربـع، لمـا غـاب أحمـده،	مـنازل ظـل عنهـا البـدر منتقـلا
جـاد الزمـان بلقيـا منك سر بهـا	طـورا وساء بـذاك العهـد اذا بخلا
فاسمع مناجـاة نفس من اخى ثقـة	مضى، تحملـه مـنـك النـوى غلـلا
وعـد اليها أبـا العباس تحك بهـا	مـراتب الشمس لما حلت الحمـلا
لا زلت في عقدهـا وسطى ولا عدمت	منكـم حساما تباهي حوله خللا (29)

واذا كان بنو عشرة قد بلغوا أوج الشهرة في عهد المرابطين فان ذلك يرجع فيمـا أرى الى الميـراث المـادى والمعنـوى الذى أورثهم ايـاه جـدهم عشرة وبنوه مـن بعـده، ونحن نقدر أن ميراثهم المـادى كـان كبيرا جـدا، وهو يتمثل

فيما تركه لهم آباؤهم من دور ورباع وضياع واقطاعات في مدينة سلا ونواحيها، كما يرجع ايضا الى توليهم خطة القضاء التى ادرك أصحابها في عصر المرابطين من النفوذ الواسع، والجاه العريض، مالم يدركه القضاة في اي عصر سابق أو لاحق بالمغرب . (30) وأول من نعرفه ولي قضاء سلا وأعمالها من بني عشرة في عهد المرابطين، ابو الحسن علي ابن عشرة، (31) ثم ولده ابو العباس أحمد، (32) وربما كان أخوه الحسن بن علي بن عشرة قاضيا في مكناسة، فقد ذكر أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق، أن المهدي واصحابه نزلوا عند مرورهم بمكناسة عند الحسن بن عشرة، (33) وسماه في موضع آخر حسون ابن عشرة، وحلاه بالقاضي (34). والراجح انهما اسم لمسمى واحد، لان حسون في عرف بلاد المغرب تصغير حسن (35)، ويبدو أن خطة القضاء كانت لبني عشرة قبل أبي الحسن المذكور، اذا صح لنا أن نعتمد على قول الشاعر الاعمى التطيلي في مدح أبي العباس أحمد بن عشرة :

بقاضي قضاة الغرب وابن قضاته تــوددت الآمال وهي فوارك (36)

أما عبارة «قاضي قضاة الغرب» فيبدو أنها لا مفهوم لها، وانما هي مبالغة شعرية، ذلك ان كلمة الغرب المذكورة تطلق على المغرب كله، كما تطلق على اقليم كان حده في عهد الموحدين من مدينة تازا الى مدينة مكناسة الزيتون .(37) وكلا الاطلاقين لا يحتملها الواقع التاريخي هنا . (38) ومهما يكن من أمر فقد جمع بنو عشرة ـ باسناد خطة القضاء اليهم ـ بين الزعامتين الدينية والدنيوية في سلا وأعمالها، وغدا بيتهم بيت علم وفقه يرحل ابناؤه الى الاندلس للاخذ عن علمائها، (39) كما يفد عليه اهل العلم والادب، فقد ذكر القاضي عياض في الغنية (40) وابن الابار في المعجم (41) أن الفقيه عبد الله بن أحمد ابن خلوف الازدي السبتي المعروف بابن شبونة نزل على بني عشرة بسلا فاكرموه وتوسعوا له ودرس عندهم، وكان احد الحفاظ لمذهب مالك . كما أن المهدي ابن تومرت أقام اياما عديدة عند بني عشرة في سلا حيث كان طلبتها يختلفون اليه ليأخذوا عنه العلم . (42) أما ثراء بني عشرة فقد كان عظيما كما تشهد بذلك الهبات والاعطيات التى كانوا يغدقونها على الشعراء، حتى وصفوا بانهم «رباب السماح، وأرباب الامداح (43)» وكانت لهم في باب المروءات مواقف كريمة، ومآثر جليلة، ولعل اشهرها قصة أبي الحسن على ابن عشرة مع أبي بكر عيسى بن الوكيل اليابرى التى رواها ابن الابار (44)، وابن عبد الملك (45)، وصاحب الروض المعطار (46)، كما اشار اليها ابن سعيد في المغرب (47)، ونحن نوردها هنا نقلا عن ابن الابار

قال: «كان ابو بكر عيسى بن الوكيل الكاتب مستعملا في غرناطة في الدولة اللمتونية، فحكى أنه انكسر عليه مال جليل يبلغ عشرة آلاف دينار فقبض عليه واشخص منكوبا الى مراكش. فلما بلغ الموكلون به مدينة سلا وبها يومئذ بنو القاسم المعروفون ببني عشرة، رباب السماح، وارباب الامداح - ويذكر أن جدهم الاكبر احمد بن محمد بن المدبر - قال قصيدته الشهيرة يمدح القاضي أبا الحسن، ويستجير به، وسأل ايصالها اليه، فبادر عند الوقوف عليها الى المخاطبة بتضمن المال وتحمله، وسؤال الصفح عنه والابقاء عليه باعادته الى عمله، فصدر جوابه بالاسعاف والاسعاد، وعاد ابن الوكيل الى غرناطة أنبه معاد، وأول القصيدة:

سل البرق اذ يلتاح من جانب البلقا أقرطي سليمى أم فؤادي حكى خفقا
ولم اسبلت تلك الغمامة دمعها اريعت لوشك البين أم ذاقت العشقا

يقول فيها:

غريب بارض الغرب فرق قلبه فأوت سلا فرقا ويا برة فرقا
اذا ما بكى أو ناح لم يلق مسعدا على شجوه الا الغمائم والورقا

ومنها في المدح:

حياء يغض الطرف الا عن العلى وعرض كماء المزن في الحزن بل انقى
وفضل نمير الماء قد خضر الربا وعدل منير النجم قد نور الافقا
بلغنا بنعماك الاماني كلها فما بقيت امنية غير ان تبقى (48)»

وتدلنا هذه القصة - من نحو آخر - على مبلغ الحظوة التي كانت لبني عشرة عند المرابطين، فأبو الحسن كما نرى يكتفي بمكاتبة أمير المسلمين في قضية خطيرة فيرد الجواب بالموافقة ويرجع المنكوب الى عمله من غير ان يصل الى حضرة أمير المسلمين (49)، وهذه الحظوة تبدو بينة في هذا الوصف الذي صور فيه الشاعر أبو بكر محمد بن سوار الاشبوني لقاء بين امير المسلمين (50) وبين عميد البيت العشري القاضي أبي الحسن، وذلك قوله فيه من قصيدة أنشده اياها بمناسبة رجوعه من حضرة امير المسلمين:

مضيت بوجه السعد وهو طليق وأبت بثوب النجح وهو يروق
لقيت أمير المسلمين مقربا كما يتلاقى شائق ومشوق
رآك وللاسلام نصحك كله وعهدك في ذات الاله وثيق
تلقاك بالبشر الذي أنت أهله فقالوا أب حان عليه شفيق

ويذكر الشاعر في هذه القصيدة أن قوما سعوا بالقاضي أبي الحسن الى أمير المسلمين فحاقت بهم سعايتهم ذلك أن الامير أثنى على قاضيه وأرى خصومه مكان الفضل منه، فارتاع هؤلاء الخصوم، وضاقت بهم الارض لولا أن القاضي عفا عنهم :

ولما طغا قوم وفرت لحومهم فعاج فريق واستقام فريق
وضلت نجوم بالجهالة مثل ما أضل سواع معشرا ويعوق
وجاءوك بالمكر الكريه وانما بصاحبه المكر الكريه يحيق
أراهم مكان الفضل منك فروعوا كما انتشقت ريح الغضنفر نوق
وفروا ولولا حسن رأيك فيهم لما حملتهم بعد ذلك سوق
فلا عدموا منك الذي عهدوا فما بغيرك غفران الذنوب يليق
توسعت فضلا في ولي وحاسد ولم يك في باع المكارم ضيق (51)

واذا كان القاضي أبو الحسن قد حظي عند الامير حظوة من له عليه دالة كما يتضح من قصة ابن الوكيل اليابري المذكورة آنفا، فان ولده القاضي، أبا العباس الذي لقبه الفتح ابن خاقان بفخر بني القاسم لم يدرك ـ لعلة ما ـ حظوة أبيه، اذ أنه كان ينقبض عمن ينكبهم السلطان، ولو كانوا من اصدقائه، حذرا من امير المسلمين، وهذا ما يفسر لنا موقفه من نكبة صديقه الوزير الكاتب ابى محمد بن القاسم (52) سليل امراء البونت في شرق الاندلس، مع أن هذا الاخير كان أيام وزارته قد جذب بضبع أبي العباس لما سعي به الى امير المسلمين، وربما كان من المفيد ان نورد هذه القصة كما رواها صاحب القلائد الذي كان له دور فيها، قال متحدثا عن نكبة ابى محمد عبد الله بن القاسم : «ولما نفذ في أمره ما نفذ، وانفصل عن امير المسلمين وانتبذ، خيره في بلاد المغرب فاختار سلا، واعتقد أنه يأنس فيها ويسلا، بمجاورة بنى القاسم الذين غدوا بدور سمائها، وصدور رأسمائها، فلما حلها انقبض عنه أبو العباس انقباضا نعي عليه أقبح نعي، ونسب فيه الى قلة الوفاء والرعي، وكان بينهما أيام وزارته مودة محمودة التواخي، مشدودة الاواخي، واشتملت اذ ذاك على أبى العباس مساع أدجت مطلعه، وحنت على الوجد أضلعه، فجذب فيها أبو محمد بضبعه، والفاه بين بصر العضد وسمعه، فلما وردت مشيت اليه ونقمت عليه صدوده، وايحاشه لمن كان ودوده، وعرفته بحرماته، واوقفته على مواته فاعتذر، بما يخاف من امير المسلمين ويحذر، وكتب اليه :

واحسرتا لصديق ماله عوض ان قلت من هو لا يلقاك معترض
القاه بالنفس لا بالجسم من حذر لعلة ما رأيت الحر ينقبض

فكتب اليه ابو محمد مراجعا :

شد الجياد اذا اجريت منقبض ما للوجيه على الميدان معترض
انى تضاهيه فرسان الكلام ومن غباره في هواديهن ما نفضوا
جرت على مستو من طبعه كلم هي المشارب لكن مالها فرض
كان منشدها نشوان من طرب او بلبل من سقيط الطل ينتفض
تحية من أبي العباس زاربها طيف من العذر في أثنائها يمض
لا بالجلي فتستوفي حقيقته ويستبان بعين ما بها غمض
لكن أغض عليه جفن ذى مقة كما يسد مسد الجوهر العرض
يامن يعز علينا أن نعاتبه الاعتاب محب ليس يمتعض
ناشدتك الله والانصاف مكرمة أما الوفاء بحسن الود مفترض
هب المزار لمعنى الريب مرتفع ما للوداد بظهر الغيب منخفض
اما لكل نبيه في العلى حيل تقضى الحقوق بها والمرء منقبض
كن كيف شئت فمن دأبي محافظة على الذمام وعهد ليس ينتقض
وهمة لم تضق ذرعا بحادثة ان الكريم على العلات ينتهض
والحر حر وصنع الله منتظر والذكر يبقى وعمر المرء ينقرض (53)

وما أريد أن ادافع عن موقف أبي العباس، ولكني أرى أن اتهامه بقلة الوفاء فيه شيء من التجني، فالرجل كان في وضع دقيق، وبين خطتي خسف : اغضاب أمير المسلمين او الانقباض عن صديقه، ولما كان رجل دولة فقد اختار الثانية، أما بيتاه ففيهما شعور بالحسرة الاليمة والاسى المرير يحسهما الرجل الحر حين يحال بينه وبين القيام بما تفرضه المروءات من واجبات، ويستوقفنا فيهما قوله : لعلة ما، وكانه يعني أن المذكور كان من امراء الطوائف الذين قضى عليهم يوسف ابن تاشفين، وأن الاتصال به قد يؤول تاويلا سيئا لدى امير المسلمين، ومن هنا يلتمس بعض العذر لابي العباس في حذره واحتياطه، واذا رجعنا الى كلام ابن خاقان ـ ذاك الذي كان سفير الادب المتنقل بين البيوتات النبيهة في الاندلس والمغرب على عهد الطوائف والمرابطين ـ فاننا نجد فيه دلالة على مداخلته لابي العباس وادلاله عليه، وقد ترجم له ولابيه أبي الحسن في النسخة الكبيرة من كتابه مطمح الانفس (54) وهي نسخة مفقودة، ولا شك أنها تشتمل على شيء من أخبار بني عشرة، ورأى ابن خاقان فيهم، وقد نقل عنها الضبي

في البغيـة (55) بعض شعر أبي الحسن علي ابن عشرة، وولـده أبي العباس، أمـا قـلائد العقيان فقد تضمنت قـدرا غير يسير من الاخبـار والاشعار التي مـدح بهـا بنو عشرة (56).

بنـو عشرة حماة الادب في هـذا العصر :

لئن كان عصر الطوائف عصر ازدهار الشعر وتكريم الشعراء، فقـد كـان عصر المرابطين ـ ولا سيما في بـدايتـه ـ عصر كساد الشعر وهبـوط قيمـة الشعـراء، وشكـوى هـذه الحال واضحـة عند شعراء هـذا العصر ومـؤرخيه يقـول ابن بسام : «فلما صمت ذكـر ملوك الطوائف طوى الشعر على عـره، وبرىء من حلوه ومره، الانفثة مصدور، أو التفاتة مـذعور (57)» كمـا يشـير الفتح الى شيء مـن هـذا في مقـدمة القلائد. أمـا شكوى الشعراء لضيعة الادب واقفـار ربوعـه فنكتفي منهـا بقـول ابـن بقـي :

أكـل بنـي الآداب مثلي ضـائـع | فـأجعل ظلمي اسوة فـي المظـالـم
ستبكي قوافي الشعـر ملء جفونهـا | على عـربي ضـاع بـين اعاجم (58)

وقوله من قصيدة في الانحـاء على أهل المغرب وذم مثواه عندهم :

وغلت في المغـرب الاقصى واعجزنـي | نيل الرغائب حتى ابت بالندم (59)

كما يصورها قول الاعمى التطيلي من قصيدة في مدح بني عشرة :

أيـا رحمتا للشعـر أقـوت ربوعـه | علـى انهـا للمكـرمـات مناسك
وللشعـراء اليـوم ثلث عـروشهـم | فـلا الفخـر مختال ولا العـز تامك
اذا ابتدر النـاس الحظوظ واشرفت | مطـالب قـوم وهي سـود حـوالك
رايتهـم لـو كـان عنـدك مـدفـع | كمـا كسدت خلف الرئـال الترائك
فيـا دولة الضيـم اجملي او تجاملي | فقد اصحبت تلك العرى والعـرائك
ويـاقـام زيـد اعرضي او تعـارضي | فقد حال من دون المنى قال مالك (60)

ولهـذه الظاهرة اسباب، لعل اهمها هـذا الذي أشار اليه الاعمى التطيلي مـن أن ارتفـاع شان الفقهاء وعظمة أمرهم كـان من عوامل خمول الشعـراء، وقـد اختلف مـوقف هـؤلاء من الفقهاء، ففريق جاهرهـم بالعـداء وواجههـم بالهجـاء كـابن البنى الـذي يقـول :

أهل الرياء لبستم ناموسكم … كالذئب يختل في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك … وقسمتم الاموال بابن القاسم
وباشهب شهب البغال ركبتم … وباصبغ صبغت لكم في العالم (61)

وابن خفاجة في قوله :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم … فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى اصابوا فرصة … في اخذ مال مساجد وكنائس (62)

قال المقري معقبا على هذين البيتين : «وهذا المعنى استعمله الشعراء كثيرا (63)» . وفريق آخر هادنهم وتقرب اليهم بالمديح اما اعترافا بعلمهم وفضلهم كالمدائح التي قيلت في القاضي عياض (64) وأبى بكر ابن العربي، أو طمعا في نوالهم كما ترى بالنسبة الى أحمد بن حمدين قاضي الجماعة بقرطبة وأبى أمية احمد بن عصام قاضى قضاة شرق الاندلس (65) واصحابنا بنى عشرة قضاة سلا .

كان بنو عشرة أوفر هؤلاء الفقهاء والقضاة حظا من مدائح الشعراء بفضل جودهم الذى كان مضرب المثل . وتوافد عليهم الشعراء من مختلف جهات الاندلس يتفيأون ظلالهم ويعيشون في اكنافهم، واصبحت ديار بني عشرة ملتقى اعلام الشعر والادب والعلم يومئذ، وغدت حضرتهم بدون منافس في المغرب والاندلس، ويمكن القول انهم مدحوا باكثر مما مدح به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين او ولده علي، وهكذا عاد بهم كساد الادب الى نفاق ووجد فيهم الشعراء حماة يأخذون بضبعهم وينهضون بحقوقهم في عصر قلت فيه الاريحية، وتقلص عنه ظل المروءة . وكأنى ببنى عشرة ـ حين رفعوا راية المجد في سلا يومئذ ـ كانوا يقصدون الى احياء الفضائل التي كانت لسلفهم ـ فيما يذكر ـ من بني المدبر ممدوحي البحتري وابن الرومي وغيرهما من شعراءالعصر العباسي، ويؤخذ من أخبار بنى عشرة ـ وما انتهى الينا منها الا قليل ـ أنهم كانوا أشبه بالامراء منهم بالقضاة، فهم يستقبلون الشعراء للانشاد في المناسبات، وحين يخرج أحدهم لنزهة كانت تصحبه حاشية من الاصحاب والاتباع وفيها الشعراء وأهل الدعابة وخفة الروح، روى صاحب بدائع البدائه نقلا عن سقيط الدرر ولقيط الزهر لابى بكر الدانى ما يلي : «وخرج القاضي الفقيه أبو الحسن على بن القاسم بن محمد بن عشرة

أحد رؤساء المغرب الاوسط (66) في جماعة من اصحابه منهم محمد بن عيسى ابن سوار الاشبوني ورجل يسمى بأبي موسى خفيف الروح، ثقيل الجسم، فجعل يعبث بالحاضرين بأبيات من الشعر يصنعها فيهم فصنع القاضي أبو الحسن معاتبا له :

وشاعر أثقل من جسمه

ثم استجاز ابن سوار، فقال :

تأتي معانيه على حكمه

يهجو فلا يهجى فهل عندكم ظلامة تعدى على ظلمه
لسانه في هجوه حية منية الحية في سمه
يصيب سر المرء في رميه كأنما العالم في علمه
أما أبو موسى ففي كفه عصا ابنه والسحر في نظمه (67).

وأبهة الامارة ظاهرة في هذا الخبر الذي أورده المقري في نفح الطيب حيث يقول : «ولما بنى الفقيه أبو العباس ابن القاسم قصره بسلا وشيده وصفته الشعراء، وهنته به، ودعت له، وكان بالحضرة حينئذ الوزير أبو عامر ابن الحمارة، ولم يكن أعد شيئا، فأفكر قليلا ثم قال :

يا أوحد الناس قد شيدت واحدة فحل فيها حلول الشمس في الحمل
فما كدارك في الدنيا لذي أمل ولا كدارك في الاخرى لذي عمل» (68)

كما أن مادحي بني عشرة من الشعراء كانوا يضعونهم في صف الملوك، فهذا ابن سوار الاشبوني أحد شعراء حضرتهم يقول من قصيدة في مدح أبي الحسن علي ابن عشرة :

أمثل علي تطلب العين أن ترى ومثل علي في الملوك غريب

وقد كرر هذا المعنى في مواضع من شعره ومنها قوله :

يقول رجال غير ما يفعلونه وان عليا قائل وفعول
فلا تطلبوا في ساحة الارض مثله فمثل علي في الملوك قليل (69)

وقد كانت شارة الابهة ترافق ركاب أبي الحسن هذا في حله وترحاله، فحينما دخل الاندلس غازيا سنة ثمان وثمانين واربع مائة (70) أقبل عليه الشعراء يمدحونه، ولما رحل بعد ذلك الى المشرق لاداء فريضة الحج امتدحه الشعراء بالمهدية ومصر وغيرهما (71)، ومن المؤسف اننا لم نقف على هذا الشعر في المصادر التي بين أيدينا (71*).

أما الشعراء الذين مدحوا أبا الحسن هذا فهم كثر، ومنهم ابو بكر محمد ابن سوار الاشبوني، وأبو جعفر احمد بن عبد الله بن أبي هريرة المعروف بالاعمى التطيلي، وأبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي، وأبو الوليد اسماعيل بن ولاد، وعيسى بن الوكيل اليابري .

بنو عشرة وابن سوار :

فأما ابن سوار فله في علي بن عشرة أمداح كثيرة أورد بعضها ابن بسام في الذخيرة، وكان من خبر صلته به أنه وقع في أسر النصارى بقورية، وجرت عليه محن، فوجه اليه من سجنه قصيدة طويلة وصف فيها كيفية القبض عليه وما كان يقاسيه من هول وعذاب وختمها بمدحه قائلا :

وان وراء البحر اروع ما جدا ... بغرته الغراء يستنزل القطر
الا خبراني ابني أبي هل أتاكما ... وشيكا عن القاضي أبي حسن ذكر
سلا عن سلا هل من علي حقيقة ... بأني في احشاء قورية سر
الا انما الدنيا علي وقربه ... والا فان الارض عامرها قفر
بعدل علي تعمر الارض كلها ... وتتسع الدنيا ولو انها قبر
حنيني اليه موثقا ومسرحا ... كما حن للبر الذي يغرق البحر (72)

وقد بادر أبو الحسن الى افتدائه واخراجه من وثاقه بعد أن ظل حولا كاملا من الدهر ينادي :

أنا رجل حر الا رجل حر

ولولاه لبقي يرسف في قيود السجن، كما استدناه الى جنابه، فاصبح شاعر حضرته يصحبه في غدواته وروحاته، ويخلد محاسن سيرته . فمن

مدائحه فيه قوله مقرا بالنعمة ومعترفا بالجميل :

رأيتك أندى الناس كفا وكل ما ... تجود به فالله ينميه للاخرى
ولولاك مافك السلاسل ضاغط ... وما فارقت عيناي سلسلة الاسرى
وصيرت عيشي في جنابك بالذي ... مننت به حلوا وكم ذقته مرا
على ذاك لا أنفك اخلص داعيا ... الى الله أن ينمى لك الجاه والعمرا (73)

وهو يمدحه بما جرت العادة ان يمدح به القضاة من صفات العدل والانصاف ولين الجانب والسكينة والوقار كقوله من قصيدة :

بعدل على تعمر الارض كلها ... وتتسع الدنيا ولو أنها قبر (74)

وقـولـه مـن أخـرى :

لـو أن رفقك في القلـوب مـركـب … لـم يلتقم في البحر يـونس حـوت
ولقـد حملت مـن الـوقـار سكينة … لـم يحتملهـا قبلك التابـوت (75)

على أن صفة الجـود المفرط هى أكثـر الصفات دورانا في هـذه المدائـح فمن ذلك قـولـه :

فتى يهب الـدنيا ويـرتـاح للنـدى … كما اهتـز غصـن البان وهو رطيب
وتأتـى عطـايـاه اطراد خصـالـه … كمـا اطردت للسمهـرى كعـوب
وان كنت قد أضربت عن مـدح غيره … فليس لـه في العـالمين ضريب (76)

وقـولـه :

اذا نـزل العـافـون في عـقـر داره … فقـد نـزلـوا فـي غبطـة وأمـان
بحيث حيـاض الجـود زرق مياهها … ومـزن العطـاء دائـم الهطـلان
وللغيث اوقـات يفـاجىء صـوبـه … ونـائـلـه ينهـل كـل أوان
أغـر طليـق الـوجـه يهتـز للندى … كمـا اهتـز مصقـول الفرنـد يمان
فمـا لعلـي فـي البـريـة مشبـه … ومـا لعلى فـي الانـام بثـان
فلو أنني في الوصف لم اذكر اسمه … دروه وقـالوا ذى صفات فـلان (77)

ونجـد عنده تشبيها مركبا كـرره في مواضع مـن شعـره وذلك تشبيهه سـلا بمصر ونهرهـا بالنيل وكريمهـا ابن عشرة بالخصيب ممدوح أبى نواس فمـن ذلك قـولـه :

أحب سـلا مـن أجـل كونك في سلا … فـكـل سـلاوى الـى حبيـب
لصيرتـهـا مصرا فنيلـك نيلهـا … وكفك بطحاهـا وانت خصيب (78)

وقـولـه :

ولـولاك مـاكـانت سلا دار هجرتي … ولا كـان لـي عمـن أحـب رحيـل
فـالفيتهـا مصرا وأنت خصيبهـا … وكفـاك بطحـاهـا ونيلك نيل (79)

وهـذه المدائح تختص بالممدوح أحيانا كما في الامثلة المذكـورة وتشمـل قـومـه احيانا كما في قـولـه :

سقى منـزلا بالغرب منسكب الحيا … وجـاد عليـه كـل اسحم هـام
بحيث بنـو عشر تنير وجـوههـم … كمـا طلعـت لـيـلا بـدور تـمـام
فمـا اكثـر المثني عليهـم سجيـة … ومـا أشبـه النعمى بطـوق حمـام
رعـا الله فيهـم ذمـة المجـد والعلى … فـلا خلـق أرعى منهـم لذمـام (80)

وقولـه :

ان مـن بعـد بني القاسم لا | أحد يملا عينا من جواد
نسب مطرد من شرف | ككعوب الرمح ذات الاطراد
وقبيل كله من عزة | كظبي الهندى في يوم الجلاد
وبنو عشر ذوو العلياء لم | يخلقوا الا لكف وذياد
وعفاف واعتكاف وتقى | ووفاء وعطاء وأياد (81)

وقولـه :

ولم يحكهم صوب الحيا لكن اقتدى | بما فيهم من شيمة وخلال
وجاءوا على جيد الزمان قلائدا | وافعالهم فيها ضروب لآل
أقاموا لواء المكرمات وخيموا | من المجد والعلياء تحت ظلال (82)

وبعض قصائد ابن سوار في بني عشرة كتبها اليهم من مدينة تلمسان، ويبدو أنه فارق حضرتهم على غير ارادة أبي الحسن ثم ندم كما يدل على ذلك قوله من قصيدة فيها شوق وعتاب :

أعلى يا ابن القاسم بن محمد | بيني وبينك عروة لا تفصم
رد التحية مثل ودى غضة | اني عليك مع النسيم مسلم
ولقد كتبت وأدمعي منهلة | والقلب فيه جذوة تتضرم
أمن السوية ان اكون كما ارى | فيفوز غيرى بالنعيم واحرم
والله يرضى عنك من حكم فقد | وافيت حكم الله فيما تحكم
ان بنت عنك ولم ترده فانه | بعضى لبعضك في فراقك يخصم
ولقد ندمت على فراق سلا كما | طعم الندامة حين أهبط آدم (83)

ويبدو أنه لم يجد عند غيرهم ما وجد عندهم فعاد الى سلا وشهد وفاة ولي نعمته أبي الحسن سنة اثنين وخمس مائة، فقال يرثيه من قصيدة :

العيش بعدك ياعلي نكال | لا شيء منه سوى العناء ينال
يا عثرة عثر الزمان بأهله | ليت الزمان من العثار يقال
يا عصمة الفقراء بل يا ما لهم | هيهات ما للناس بعدك مال
ابكيك بالدم لا بدمعي انه | يبكي سواى به وذاك محال (84)

واستمر ابن سوار يعيش في كنف خلفه القاضي أبي العباس أحمد حيث نجد له مدائح فيه ومراثي في بعض بني عشرة، فمن مدائحه في القاضي أبي العباس قوله من قصيدة :

تكلفني نظم النجوم قلائدا ... لعمري لقد كلفتني مرتقى صعبا
وهبني ملكت الشمس والبدر في يدي ... وسقت الى جنبيهما الانجم الشهبا
اذا لم اعلقها على جيد أحمد ... فلا جيد في الدنيا يكون لها حسبا
صبا بالغواني من صبا وهو لم يزل ... ببنت المعاني هائما كلفا صبا
فتى يهب البيض الكواعب كالدمى ... وبيض الظبا والسمر والضمر القضبا
لقد وهب الله الجمال لاحمد ... وشرف منه الخلق والخلق العذبا
موفق آراء القضاء كانما ... بصيرته في الغيب تخترق الحجبا
اذا اكتسب الناس الدنانير عدة ... فاحمد لا يرضى بغير العلا كسبا (85)

ومنها قوله من أخرى :

وبأحمد بن علي ابن القاسم بـ ... ـن محمد درت المكارم حالها
هو لفظة من منطق الدنيا بها ... فخر الزمان على بنيه فقالها (86)

وقوله من أخرى :

ولبست أثواب الملاحة مثل ما ... لبس السماحة والرجاحة أحمد
لو كان خلد فاضل لفضيلة ... فيه لكان على الزمان يخلد
الجد والشرف المؤثل والندى ... والمجد والعليا له والسؤدد
وبلاغة لم أدر حين سمعتها ... أفصاحة أم لؤلؤ متبدد
لا ناطق خجل الكلام بها ولا ... متوقف فيها ولا متلعثم

وقد أورد له ابن بسام في الذخيرة مراثي في بني عشرة منها واحدة في ولد لبعضهم، وثانية في رثاء واحد منهم اسمه محمد، وثالثة في رثاء قاضيين منهم يقول فيها :

الصبر اجمل عند كل ملمة ... لاكن على فقديهما لم يجمل
قمران غيب بالخسوف سناهما ... لا تخسف الاقمار ان لم تكمل
من قاضيين موفقين كانما ... هذا شريح في القضاء وذا علي

ولست أدري هل يعني في هذه المرثية القاضيين أبا العباس أحمد وأخاه القاضي حسون أم يعني غيرهما من بني عشرة، فقد سكت ابن بسام عن تعيين المرثيين .

بنـو عشرة والاعمى التطيلي :

وأمـا الاعمى التطيلي فقـد مـدح بني عشرة علـى البعـد بقصـائـد وموشحات معروفة، ويبدو أن آفـة العمى أقعـدتـه عـن الانتقال اليهـم فـي العـدوة، فاكتفى بتوجيه مـدائحـه اليهم من اشبيلية بلـد اقامته كما يـدل على ذلك قولـه مـن قصيدة :

الكنـي اليـه فـي السلام وبيننـا مخـارم لا تسمـو اليهـا المـآلك

وفي هـذا دليـل آخـر على الشهـرة التي كانت لبني عشرة عند شعـراء الاندلس في هـذا العصر، ولا شك ان عطاياهـم الجزيلة هي التى جعلته يحوك غر مـدائحه فيهم، فمنها قصيدة في مـدح القاضي أبى الحسن (89) مطلعها :

تنـاصر الشيب فـي فوديـه خذلان ان الـزيادة فـي النقصان نقصـان

يقول في مـديحهـا :

انى استجرت على ريب الزمان فتى الا يكـن ليث غـاب فهـو انسـان
حسبـي بعليـا علـي معقـل أشب زمـان سـيرى بـه في الارض أزمان
صعب المـراقى ولكـن ربمـا سهلت على المنى منـه أوطـار واوطـان
الـواهب الخيل عقبـانـا مسومـة لـو سومت قبلهـا في الجو عقبـان

وأشهر منها قصيدته التى يمدح فيها أبا العباس ومطلعهـا

صـدود ملظ أو فـراق مـواشـك لعمـرى لقـد ضاقت على المسـالك

وهى مـن عيون شعره، تمتاز بجـودة السبك، واحكـام القافية، وحسن استعمال الغريب . وقـد استهلها بقسم جمع بـين النسيب وشكـوى الحـال وسبق أن استشهدت بابيـات من هـذا المعنى الاخير، وما أحسن تخلصه الى غـرض المديح في هـذه القصيدة، فقـد كان يشكو انهـزام الادب أمـام الفقـه ولمـا كـان ممدوحـه من الفقهاء فانـه احترس احتراسا لطيفا بأن جعله جامعـا بينهما وذلك قـولـه :

فيا دولـة الضيـم أجملي او تجاملي فقـد اصحبت تلك العرى والعرائك
وياقـام زيـد اعرضي أو تعـارضي فقـد حـال مـن دون المنى قال مالك
سمت بـأبى العبـاس تلك وهـذه الى حيث لا تسمو النجـوم السوامك

وبعد أن يمدحه برحابة الفكر، وصلابة القناة، وبعد الهمة، وسورة العدل، ورفـع الضيم عن الجار، في ابيـات قـويـة يقـول :

نضاه أمير المومنين مهندا ... لكل دم منه وان عز سافك
وتاهت به الايام علق مضنة ... تنازعه املاكه والملائك

وهو يشير هنا الى صلة الممدوح بامير المسلمين حسب الصدى الذى كان يبلغ الى مسامعه، وذلك بالاجمال طابع الصورة التى رسمها لممدوحه ونلاحظ أنه لم يتقيد هنا كما في مواضع أخرى من شعره (90) بلقب «أمير المسلمين» الذى اتخذه المرابطون تادبا مع خلفاء بنى العباس كما نص ذلك المؤرخون، الا أن يكون الامر تحريفا او سهوا من النساخ، وبعد ان يستوفي وصف الممدوح يتوجه اليه بالخطاب غير مستنكف من السؤال الصريح على طريقة الشعراء المنتجعين :

اليك أبا العباس غر مدائحي ... تصلي عليهن العلا وتبارك
اليك وريعان الرجاء يؤمها ... وقدما رجتها البائسات الضرائك
قلائد اعناق وازهار أعين ... ومنهن في بعض الصدور حسائك
فحك لي من نعماك بردا أجره ... فاني لا براد المدائح حائك

ويختم قصيدته بمدح بنى القاسم عامة فيقول :

بني قاسم قد زنتم الدهر كله ... كما زانت الصدر الثدى الفوالك
رفعتم لاهل الغرب اعلام دينهم ... فابصر مافوك وأقصر آفك
فقل لسلا شحي على آل قاسم ... ولا تسلي بغداد أين البرامك (91)

وللاعمى التطيلي ايضا موشحات في مدح بنى عشرة لعل اشهرها موشحه في مدح يوسف بن علي بن عشرة ومطلعه :

كيف السبيل الى ... صبري وفي المعالم ... أشجان
والركب وسط الفلا ... بالخرد النواعم ... قد بانوا

وهو من مذهبات موشحاته وغررها، ومن قسم المديح فيه قوله :

ومزمع للسفر ... لم يرض غيرى مستشار
فقال تدري سفرى ... هم على البحر بحار
فقلت سر الخبر ... عندى تجده باختصار

ان جئت ارض سلا ... وافاك بالمكارم ... فتيان
هم سطور العلا ... ويوسف بن القاسم ... عنوان (92)

وقد اشتهر هذا الموشح عند الوشاحين فعارضه ابن الصباغ الجذامي ـ وهو وشاح متصوف كان يعيش في أخريات عصر الموحدين ـ وضمن

خرجته (93) وللتطيلي كذلك موشحان في مدح يحيى، ونظن أنه يحيى ابن علي بن القاسم الذي كان من ممدحي بني عشرة، ومطلع الاول :

ما للفؤاد ماله لم يثنه هول الصدود

عن رشا احور لما راى ذل العبيد تاه واستكبر

ومن قسم المديح فيه قوله :

لله أي دنيا بقرب من أحب
كمثل عهد يحيى وللنوال سكب
يسقي العفاة سقيا فما يخاف جدب
الأروع المحيا يلقاك منه ندب

كالطود في جلاله كالبحر في اشراف بنود

كالمحيا منظر كالروض يهدي من بعيد نشره الاعطر (94)

اما الموشح الثاني فأوله :

ادر لنا أكواب ينسي بها الوجد واستصحب الجلاس كما قضى العهد

ومن مديحه قوله :

حليت الدنيا من بعد تعطيل
وجاءنا يحيى بين البهاليل
اغر بالعليا من فوق تحجيل

يختال في اثواب طرازها الحمد وأفرط الايناس فما له حد (95)

وهناك موشحات أخرى في مدح بني عشرة مختلف في نسبتها الى التطيلي او الى ابن بقي، ولكن نسبتها الى هذا الاخير أشهر .

بنو عشرة وابن بقي :

أجمع الذين ترجموا لابي بكر يحيى بن بقي على أنه كان مبتلى بالحرمان، مصابا بحرفة الادب، لا يقر له قرار الى أن اتصل بيحيى ابن علي بن القاسم فانتزعه من هذه الحال «وأرقاه الى سمائه، وسقاه صوب نعمائه، وفياه ظلاله، وبوأه أثر النعمة تجوس خلاله، فصرف فيه أقواله، وشرف بقوافيه نواله، وأفرده منها بأنفس در، وقلد لبته منها بقصائد غر (96)» ويحيى هذا هو الذي سبق ذكره آنفا في موشح الاعمى

التطيلي وهـو أخو القاضي أبي العباس ويوسف من بني عشرة، ولا نعرف عنه شيئا الا مـن خـلال مدائح ابن بقي فيه، وقد حلاه ابن خلكان بالامير، وكـان مثلا شرودا في الاريحيـة والنبل كما تصفه قصائد ابن بقي وموشحاته. فمـن قصيدة طويلـة له في مـدحه قـولـه :

نـوران ليسا يحجبـان عـن الورى | كـرم الطبـاع ولا جمـال المنظر
وكـلاهمـا جمعـا ليحيى فليـدع | كتمـان نـور عـلائـه المتشهـر
فـي كـل افق مـن جمـال ثنائـه | عـرف يـزيـد على دخـان المجمـر
رد فـي شمائلـه ورد فـي جـوده | بـين الحـديـقـة والغمـام الممطر
بـدر عليـه مـن الـوقـار سكينـة | فيهـا لقيطـة كـل ليث مخـدر
مثل الحسام اذا انطوى فـي غمـده | القى المهـابـة فـي نـفـوس الحضر
أربـى علـى المـزن الملث لانـه | أعطى كما اعطى ولم يستعبـر (97)

ونحن نعـرف أن ابن بقي وشاح كبير، الا أن الذى قد يكون مجهولا هـو أن أشهـر مـوشحاته واجملهـا ـ من حيث الصناعة والصياغة الفنية ـ قيلت في بني عشرة، فمنها المـوشح الذى أولـه :

صبرت والصبر شيمة العاني | ولم أقل لمطيل هجراني | أليس كفـانـي

وقـد جـاء في مـديحـه ما يلـي :

هـذا زمـان الـربـيـع يـايحيى | فـاسقني مـن يمينك العليـا
مـدامـة ملكتنـي الـدنـيـا | أمـا تـرى الارض البست وشيـا
والزهر في فضة وعقيان | والماء يحكي انسياب ثعبان | في مذنب بستان
يـا كـوكبـا لاح مـن بنـي القاسم | أهـلا وسهـلا بسعـدك الـدائـم
امـا الايـادى فمـا أنـا قـائـم | بشكـرهـا نـاثـرا ولا نـاظـم
انسيتني معشري وأوطاني | وجدت محلي بكل هتان | منسكبا أرواني (98)

ويبدو مما جاء في هـذا الموشح وموشح التطيلي السابق في مـدح يحيى أن هـذا الامير لـم يكن كابيـه وأخيه متقـلا باعبـاء خطة القضاء، وما تفرضه صبغتها الدينية من سمت ووقـار وتحوط وتحفظ، ولذلك لم يتحرج الشاعران في مدائحـه من ذكـر الشراب ووصف مجالسه، ومن موشحـات ابن بقي فـي مـدح يحيى أيضا الموشح الـذى أولـه :

أشكو وانت تعلم حالي | أليس ذاك عـين المحال | والضـلال

وفيـه يقـول :

لا والـذي أمـات واحيـا
ما راق ناظري غير يحيى
بشيمـة لـه ومحيـا
فليهنـه وليهن المعالـي ما حاز مـن عظيم جمـال وجـلال
ارتاب فـي الكريم العلي
حتى أراك يـا ابـن علي
وقـد حللت وسط الندى
كـالبدر طـالعا في كمال كالبحر زاخرا في احتفال مـن نـوال (99)

أمـا قصـائـده ومـوشحـاتـه في مـدح القـاضي أبي العبـاس، فمنهـا قصيـدة يقـول فيهـا :

لا ينفـذ العـزم الا أن ينفـذه والسيف يكهـم الا في يـدي بطـل
تهـويـمـة فـي بسـاط يهجعهـا أشهى اليـه مـن التهويم في الكلـل
ونـوبـة من صهيل الخيل يسمعها بالرمـل أطيب الحانا مـن الرمـل
ياكوكبـا يغـرق العافـون في دفـع مـنـه وتحتـرق الاعـداء في شعـل
لا يدرك الناس لو راموا ولـو جهدوا بالريث بعض الذى ادركت بالعجل (100)

وأخـرى مطلعهـا :

أمصطبـر انـت ان قـوضـوا وأمـوا االمصيف مـن المربـع

ومنهـا في المـدح :

أبـا بـن علـي يقـاس الحيـا وان لـم يضـن ولـم يـمـنـع
وهـذى سحـاب الحيـا أقلعـت وسحب عطـايـاه لـم تـقـلـع
دعـاه الانـام لـدفـع الخطـوب فـلـم يـتـبلـد ولـم يخشـع
فقصـر مـن خطبهـا المستطيـ ـل وسكـن مـن ريحها الـزعـزع
وعفـى علـى رسـم جـور أتـى علـى عـهـد مـديـن او تـبـع
واحـيـا بـاحكـامـه سـيرة مـن العمـريـن على مـهـيـع
بـمـن يشـرف المـدح الا بـه فتى اروعـا ايـمـا اروع (101)

وفيـه يقـول مـوشحه الـذى مطلعـه :

أعـيـا على العـود رهـين بـلـبـال مـزرق
اذلـه الـحـب لا ينكـر الـذلـة من يعشق

ونقتطف من قسم المديح منه قوله :

يا ايها الحائم ... هل لك في عذب ... مل، الدلا
يمم بني القاسم ... واقصد من الغرب ... الى سلا
واستمط رواسم ... تحال بالركب ... وسط الفلا
سفائنا تجهد ... في ابحر الآل ... ما تغرق
يستبشر الركب ... وتشتكي الرحلة ... الاينق

وفي خرجته يقول :

اما ترى احمد ... في مجده العالي ... لا يلحق
اطلعه الغرب ... فارنا مثله ... يا مشرق (102)

وقد اعجب الوشاحون بهذه الخرجة حتى قال ابو بكر ابن زهر ـ وهو الذي شرقت موشحاته وغربت ـ «ما حسدت قط وشاحا على قول الا ابن بقي حين وقع له : أما ترى احمد الخ» (103) .

وتعتبر الفترة التي قضاها ابن بقي في جوار بني عشرة في سلا من ابرز معالم حياته، حتى ان أديبا اندلسيا اختصر ترجمته بقوله «هو سرقسطي النسب، اشبيلي الادب، سلوي النسب، وادي آشي العطب، يعني أن أصله من سرقسطة، وتأدب باشبيلية، واكتسب المال بمدينة سلا من العدوة، وتوفي بوادي آش من الاندلس» (105) وهذا اذا كان يؤيد شهادة صاحب المطمح التي سبقت الاشارة اليها، فانه يتعارض مع قصيدة له اوردها ابن خاقان في القلائد مقدما لها بقوله : «وله منحيا على اهل المغرب وقد ذم عندهم مثواه، وصفرت من نائلهم يداه» ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

أقمت فيكم على الاقتار والعدم ... لو كنت حرا أبى النفس لم اقم
وظلت أبكي لكم عذرا لعلكم ... تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
فلا حديقتكم يجنى بها ثمر ... ولا سماؤكم تنهل بالديم
لارزق عندكم لكن ساطلبه ... في الارض ان كانت الارزاق بالقسم

الى ان يقول :

وغلت في المغرب الاقصى فاعجزني ... نيل الرغائب حتى ابت بالندم (105)

فهل يكون ابن بقي قال هذه القصيدة قبل اتصاله ببني عشرة ؟ أم انه قالها في ساعة غضب ؟ أم يكون ذلك منه جحودا للنعمة ؟ .

هـذا ومن العجيب حقـا أن يذهب أحد مـؤرخي الادب الاندلسي (106) الى أن المقصود ببني القاسم في هـذه الموشحـات هم بنو القاسم الفهريـون امراء البونت، مـع أن المصادر أجمعت على أنها قيلت في بني عشرة قضاة سلا، وهب ان المـؤرخ الفاضل لـم يقف على هـذه المصـادر التى هي في متنـاول اليـد الـم تكن كلمتا سلا والغرب اللتان تكررتا في هـذه الموشحات كافيتين في تجنيبـه الوقـوع في هذا الخطـا وذلك بالاضافـة الى أن دولـة اصحـاب البـونت كـانت قـد انتهت قبـل ذلك .

بنـو عشرة وابـن حمـديس :

ومن الشعـراء الذين اتصلوا ببني عشرة عبد الجبار بن حمديس الشاعر الصقلي المعروف، فقد زارهم اثنـاء وفـوده على المعتمد ابـن عبـاد في منفـاه باغمـات، وبقي مـن شعـره في مـدحهـم قصيـدة طويلة في مـدح القـاضي ابى الحســن يقـول فيهـا :

ركبت نوى جـوابة الارض لم يعش … لـراكبهـا عيس تخـب ولا رجـل
اسائـل عـن دار السمـاح واهلـه … ولا دار فيهـا للسمـاح ولا أهـل
ولولا ذرى ابن القاسم الواهب الغنى … لمـا حط منهـا عنـه ذى كـرم رحل
تخفض أقـدار اللئـام بلـؤمهـم … وقـدر علـى مـن مكـارمـه يعلـو
فتى لـم يفـارق كفـه عقـد مـنـة … ولا عـرضه صون ولا مـالـه بـذل
لـه نعـم تخضر منهـا مـواقـع … ولا سيمـا ان غـبر الافـق المحـل
ورحب جنـاب حـين يـنـزل للقـرى … وفصل خطـاب حـين يجتمع الحفل
ووجـه جميل الـوجه تحسب حره … حسامـا له مـن لحظ سائلـه صقل
مـروعـة امـوالـه بعطـائـه … كـأن جنـونا مسها منـه او خبـل
وأي امـان او قـرار لخـائف … على رأسـه مـن كف قـاتلـه نصل

وفيهـا يقـول أيضـا :

أيـا قـاضيـا تـذكي بصـيرة رأيه … سراج هدى يجلو من الظلم ما يجلـو
ويا جبـل العلـم الـذي دون سفحه … يقـابلنـا مـن صفحه الخلق السهل

ويقـول في الاشادة بمـآثـر بني عشرة :

لقـد بهـرت شهب الـدراري منيرة … مـآثـر منكـم لا يكـاثـرهـا الرمل
وزنتم تـراث المجد من كـل سيـد … على منكبيه مـن حقـوق العلا ثقـل
فمـن قمـر يبقى على الافق بعـده … هـلا لا ومـن ليث خليفتـه شبـل

واصبح منكم في سلا الجور اخرسا وقام خطيب بالذي فيكم العدل
ملكت القوافي اذ توخيت مدحكم ويارب أذ واد تملكها فحل (107)

ومن هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على بني عشرة أبو محمد ابن الحمارة الغرناطي تلميذ ابن باجة وخلفه في الفلسفة وعلم الالحان، وقد اوردنا له فيما سبق بيتين يهنىء فيهما القاضي أحمد بن عشرة بمناسبة فراغه من بناء قصره المشهور .

ومنهم أيضا أبو الوليد اسماعيل بن ولاد، قال ابن عبد الملك المراكشي : «وقفت له على مجموع في امداحه ورثائه (يعني أبا الحسن علي بن عشرة) ومدح ابنه واخيه أبي العباس سماه نزهة الآداب (108)»، ولو وصلنا هذا المجموع لاستطعنا أن نقف فيه على معلومات جديدة عن بني عشرة، اذ أنه حسب وصف ابن عبد الملك ـ ديوان خاص بهذه الاسرة، وسجل لاحداثها ومناسباتها .

وبعد فتلك نظرة عامة عن بعض الشعراء الذين امتدحوا بني عشرة وعاشوا زمنا في حضرتهم، قصدت فيها الى ابراز فضل هذه الاسرة المغربية في رعاية الشعراء ولادباء، واثراء ديوان الشعر المغربي، وأنا أرى أن التطور الذي عرفه فن الموشحات على يد التطيلي وابن بقي مدين ـ الى حدما ـ لبني عشرة من حيث انهم كانوا موضوعا من مواضيعه، وحافزا على قوله ، وكان كل ذلك في حقبة أقوت فيها ربوع الادب وكسدت سوقه وضعفت عناية الدولة باهله .

واذا كنت قد استشهدت بأمثلة من الشعر الذي قيل في بني عشرة فلما لهمن دلالات تاريخية، علاوة على قيمته الفنية، ولان قسما كبيرا منه غير منشور. هذا ولم يكن بنو عشرة يطربون للشعر ويرتاحون لسماعه فحسب، وانما كان بعضهم يساجل الشعراء، ويستجيزهم القول، ويعنى بنظم القريض، وقد اورد الضبي في البغية نقلا عن الفتح ابن خاقان امثلة من شعر القاضي أبي الحسن في الزهد نكتفي منها بهذا المثال :

الى كم ذا التمادي في المعاصي أما تخشى هبلت من القصاص
ذنوبك كل يوم في ازدياد تسر بها وعمرك في انتقاص
تمنى النفس يوما بعد يوم وما بعد المنية من مناص
أتعصى الله خالق كل شيء وأنت لشر نفسك غير عاصي
تباكر سوءة وتظل تبغي ندى وحمى وتطمع في الخلاص
ستعلم ما أقول وسوف تجزى بفعلك يوم يوخذ بالنواصي (109)

كما ذكر في ترجمة ولـده القاضي أبي العباس انه كان اديبا شاعـرا قال : «فمـن شعر أبي العباس في النحـول ما انشده له في المطمح وهـو قولـه :

جنيت بـالـوهـم ورد الخد مجتنيا ... ونلت ما اشتهى مـن ريقـه الشنب
فعلت فعـل امرىء لا شيء يحجبـه ... قدصار يخترق الاستار والحجب» (110)

بنـو عشرة في عهـد المـوحـديـن :

يبدو أن زعـامـة سلا التى كـانت لبني عشرة قـد انتهت بانتهـاء دولة المـرابطين، ولسنا ندرى هل كـان هـذا من نتائج الانقـلاب السياسي أم أن الابنـاء من بنى عشرة لم يستطيعوا الحفـاظ على مـيراث الآبـاء، ومهما يكن فلـم يكـد يمضى اولئك السادة الممدحـون، حتى لم نعـد نجـد لبنى عشرة صدى في الادب او في السياسة، ونظـن ان زعـامـة بني عشرة لسـلا انتهت بـوفـاة القاضي أبي العبـاس، واذا كـان الضبي في البغية وابـن الابـار في التكملـة لـم يذكرا سنة وفاتـه، فان ابن خاقان الـذى توفي قتيلا سنة 529 هـ ذكـره مـرة في القلائـد مقرونا بعبارة : «رحمه الله تعـالى» (111) ونعـرف أيضا أنـه كـان حيا سنة 515 هـ وهي السنة التى مـر فيها المهدى بن تومـرت بسلا ونزل عند أبى العباس . (112) وعلى ذلك تكون وفاته فيما بين التاريخين المذكوريـن، وبعيد هـذا بـدأ الصراع بين المرابطـين والمـوحدين، وكان لسلا ذكـر فيه، فقد خرجت أول الامـر عن طـاعة الفئتين المتحاربتـين وتزعمهـا شخص من سوقتها يدعى الخياط حين ثـار ولده عمر بن الخياط على الموحدين بجـزولة الا ان الصحراوى الذى غلبه الموحدون على فاس تمكن من دخول سلا وضرب عنق الخياط ورمـاه في البحر وفيا فنزارة الذين أطاعوه (113) ولنذكر هنـا أن ابن عبد الملك المـراكشي يجعـل نسب أبى الحسن علي بن عشرة في فنـزارة هـؤلاء كمـا سبقت الاشارة الى ذلك، ثـم فتـح المـوحـدون سـلا في سنـة 540 هـ بعد حصارها وامتناع من أهلها، وقـد روى أحـد المـؤرخـين قصة هـذا الفتح فقال : «كـان فتحها على يـد رجل يسمى يبورك وابنيه محمد وعلي، وذلك أنهم أرسلوا الى الموحديـن فوصلوهم ليـلا وصنعـوا السلاليـم فصعدوا بهـا على السور، وقتلوا كـل من وجـوده على السور، ودخلوا سلا، ووجـدوا فيهـا انـاسا، وهـرب آخرون في حلق الوادى فـرجع عليهم البحـر فغـرقـوا، فعيد فيها عبد المومـن عيد الاضحى، وولى عليها عبـد الـواحـد الشرقي، واقـامت سلا على طاعة الموحـدين الى أن ظهـر المـاسى المعـروف بابن هـود ببـلاد السوس فقتـل أهل سلا عاملهم وقـدموا والده هـودا فبقي

بها الى ان قتل ابنه، ودخلت البلد، وعادت الى طاعة الموحدين الى انقضاء دولتهم» (114) تلك هي الاحداث التى عرفتها سلا في أوائل دولة الموحدين ويهمنا منها خلوها من ذكر بنى عشرة الا ما كان فيها من ذكر قصر ابن عشرة ونكبة فنزارة الذين كانت تربطهم ببنى عشرة رابطة ما، أما القصر الذى نزل فيه مهدى الموحدين وصحبه ضيوفا على بانيه عند مرورهم بسلا سنة 515 هـ فقد اصبح بعد فتح هذه المدينة ملكا للدولة فيما يبدو فقد سكن فيه عبد المومن بعد أن دخل المدينة فاتحا (115)، وفي رحبته استقبل سادة الاندلس الذين وفدوا عليه لتقديم البيعة (116)، وفي هذا القصر أيضا سكن يحيى بن عبد العزيز آخر بني حماد بعد استسلامه ونقله الى مراكش ثم الى سلا حيث ظل يسكن قصر ابن عشرة الى أن توفي سنة 558 هـ (117)، ومن هنا نستطيع القول بان بنى عشرة في عهد الموحدين أصابهم ما أصاب غيرهم ممن خدموا دولة المرابطين كالقاضي عياض والقاضي أبي بكر ابن العربي وغيرهما . ومع ذلك فقد بقيت بقية من بني عشرة ظلت في هذا العصر أيضا موئلا لاهل الفضل والعلم، ومنهم ابو علي حسن بن علي ابن عشرة الذى كان «مالفا للفضلاء عليه ينزلون، وبفنائه يحطون، واليه يهرعون» كما يقول ابن رشيد في رحلته (118)، وسمى من الادباء الوافدين عليه من الاندلس القاضي الكتاب أبا يحيى أبا بكر بن هشام القرطبي، وكانت وفاة هذا الكاتب سنة 635 هـ أو سنة 640 هـ (119) وأبو علي المذكور هو الذى ولي قضاء سلا في أوائل دولة بنى مرين كما سنذكره فيما بعد ، وهو غير القاضي حسون أو الحسن بن علي بن عشرة الذي كان قاضيا في دولة المرابطين كما سبق ذكره. ومن أعلام بنى عشرة في هذا العصر ايضا أبو الحجاج يوسف بن على بن عشرة الذي ترجم له ابن عبد الملك ترجمة قصيرة في قسم الغرباء من كتابه الذيل والتكملة، (120) وذكر انه كان ذا حظ من رواية الحديث والفقه وأنه روى ببلنسية عن أبي عبد الله محمد بن المواق وذكره مرة أخرى أثناء ترجمة ابن المواق في جملة الآخذين عنه (121)، وقد كان ابن المواق المذكور قاضيا ببلنسية وتوفي سنة 642 هـ، ويشبه ان يكون أبو الحجاج هذا أخا لابى علي المذكور آنفا لتوافق نسبهما وزمنهما، وعلى كل حال فهو غير ابى يعقوب يوسف بن علي بن عشرة ممدوح الاعمى التطيلي السابق وذلك لتباعد عصريهما كما هو واضح، ومن أهل هذا العصر : أبو عمر أحمد بن أحمد بن عمر ابن ابراهيم بن عشرة التجيبى من أهل بلنسية روى عن أبى الربيع ابن سالم هكذا ترجمه ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (122)

وواضح أنه ليس من بني عشرة أصحابنا، وانما ذكرته للشبه الاسمي، وهنالك ايضا في هذا العصر أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن أبي عشرة الفاسي الذي ترجمه ابن عبد الملك (123) كذلك، وقال انه كان قاضيا ببلنسية سنة 617 هـ وباشبيلية قبل الفتنة ثم قلده العادل الموحدي قضاء الجماعة بمراكش سنة 621 هـ، ولا أحسبه من بني عشرة أصحاب سلا. اما قضاء سلا الذي كان بنو عشرة يتوارثونه في عهد المرابطين فقد اصبح الذين يلونه في دولة الموحدين من خارج سلا كأبي محمد عبد الله بن حوط الله المالقي، وأبي الحسن علي بن حسن الصديني، وأبي العباس احمد بن محمد الشريشي، وابي جعفر أحمد بن فرقد الاشبيلي، وأبي عبد الله محمد بن حماد الصنهاجي القلعي، وأبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي الشقري وقد ترك لنا هذا الاخير رسالة طريفة يشكو فيها بعض مالقي من قضاء سلا، فهو حين تقلد قضاء هذه المدينة كان يظن «ان سلا سلو عن الانكاد، وعلو على الاضداد، وساحة فيها أرب، وراحة ليس معها تعب» فاذا به وهو الرجل اللبق لا يظفر برضى المتحاكمين اليه من أهلها، ذلك انهم كما يقول : «كل يطلب الحكم على هواه، والميل اليه عن سواه، ويقول مخالفي يجب أن يعصى، ومن اقضيته أنا كيف لا يقصى، والقضاة أنا هادي عميانهم، ووادي رعيانهم» واذا صدقنا كلام ابن عميرة فان أهل سلا لم يكونوا يومئذ راضين تمام الرضى عن هؤلاء القضاة الطارئين عليهم أو عن بعضهم على الاقل فهو يقول على لسانهم : «فالمهاجر الينا يجد الاوس والخزرج، ويركب الملجم المسرج، هذا ان أرضى الحسب وأهله، وستر بعلمنا جهله، فاما ان عدا طوره، وجفا زوره، وتهاون بخلافنا، ولم يحفظ مآثر اسلافنا، ففرخه قبل النهوض مصيد، وزرعه من قبل ان يهيج حصيد» كما يذكر أن المحكوم عليهم في عهده كانوا يلجأون الى أحد أعلامهم ـ وربما كان من بني عشرة ـ طالبين منه أن ينصرهم بفتواه وتدخله لدى القاضي (128)، ولعل هذا مادعا المرينيين فيما بعد أن يعيدوا خطة قضاء سلا الى أحد أبنائها من بني عشرة كما كان الشأن في أيام المرابطين.

ويبدو أن تخلي الدولة الجديدة عن بني عشرة واعراضها عنهم ـ بعد ما كان لهم من جاه وحظوة في الدولة السابقة ـ كان من نتائجه أن انصرف بعضهم الى حياة الزهد والعزوف عن الدنيا، ومعاشرة اهل التصوف، فكان منهم الزاهد الفاضل عبد الله بن يوسف بن عشرة الذي أشار اليه صاحب التشوف (124)، ويظن أنه صاحب الضريح القائم الى الان بباب حساين من مدينة سلا (125)، وهذا الزاهد قد يكون ولد يوسف بن عشرة ممدوح

ابن بقي في موشحه السابق، وذكر صاحب التشوف (126) ايضا أن عبد الرحمن ابـن يوسف بن عشرة ـ وهو اخو الزاهد المـذكـور ـ كـان يحضر مجـالس الصوفي ابى عبد الله محمد بن سالم الشلبي في موضع يعرف بدار أم القـاضي على سـاحـل البحـر، كما روى (127) قصة عن القاسم بن عبد العزيز بن عشرة تـدل على صلته بأبي موسى الدكالي الذي كان من كبار الاولياء في هذا العصر، وهو صاحب الضريح المعروف خارج سلا. ومن هذه الامثلة التى أوردها صاحب التشوف نرى أن بني عشرة في هـذا العصر أقبلـوا على اعمـال البـر وفعـل الخـيرات، ومـن ذلك أنهم حبسوا أرضا لدفـن موتى المسلمين، وبنت احدى السيدات منهم دارا على ساحل البحر تعرف بدار أم القاضي، كانت بمثابة رابطة يلتقي فيها أهل الخير والصلاح، (129) ويقال انها بنتها لتكون مسجدا لاصحاب الزوارق الذين ينقلون الناس بالوادى حتى لا تفوتهم صلاة الجماعة، ويظن ان هـذا المسجـد هو المعروف اليـوم بجامع «للا القضية» بوقاصة، الحي الرباطي القديـم (130)، واذا ثبت ذلك تكون مـآثر بنى عشرة قد شملت العدوتين معا ومن الاخبار الطريفـة التى رواهـا ابن الزيات تلك المنافسة التى قامت بـين أهل سـلا اثـر وفـاة أبي موسى الدكـالي المذكـور آنفـا، فقد تنازع الناس في دفنه، وأراد كـل واحد أن يدفنه في روضته واشتد التنافس على الخصوص في ذلك بـين سيد من بني عشرة هـو عمر بن الحسن بن داوود بن عشرة، وبين سيدة نبيلـة من فضليات نساء سلا في ذلك العصر هي مـلالـة بنت زيـادة الله. قال ابن الزيات : «وحدثنى عمر بن الحسن بن داوود بن عشرة قـال : كنت فيمن حضر جنازة أبى موسى، وأنا يومئذ شاب، وكانت لنا أرض محبسـة لدفن موتى المسلمين، فحفرت فيها قبرا واتيت الى نعشه وقد غلب الظلام فسللته مـن فـوق النعش واعتنقته وحملته الى ذلك القبر فدفنته والناس يظنـون أنـه باق على النعش، فاعلمتهم أنى دفنته بالارض الحبس، فاقاموا على قبـره يسمرون عليه بالليل ويقرأون القـرآن بالنهار، فلمـا كملت سبع ليال غلبهم السهر، فما انتبهوا الا وقد نقل من ذلك القبر الى قبر حفرتـه له مـلالة فـي رابطـة القـدم وعملت عليـه قبـة أنفقت عليهـا خمسمائـة دينـار (131)» والحق أن مظـاهر التدين والتصوف والزهد كانت موجودة ايضا عنـد الجيل السابق من بنى عشرة في عهـد المرابطين، ونحن نلمس شيئا من ذلك في اشعار ابى الحسن الزهدية، كما نلمسه في هذه القصة التى ننقلها عن كتاب التشوف لابـن الزيـات قال : «حدثنى يحيى بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبى بكـر ابن الاخنس عن أبيـه عـن أحمـد بن عشرة قـال : تزوجت ابنة عمي، فلمـا خـرجت من عندهـا، مـررت بسوق الصيارفة، فرأيت سلكا بيد دلال ينادى

عليه بخمسمائة دينار، فاشتريته الى أجل وحملته الى ابنة عمي على عادة الناس في اتحاف العروس، ولم يكن عندي من أين اقضى ثمنه، فلما بقي من اجله يوم بقيت متحيرا، فأسبغت الوضوء وصليت وجعلت اهتف طول ليلتي بدعاء كان قد علمنيه أبو الفضل (يقصد ابا الفضل ابن النحوى) وكان لا يقبل من أحد شيئا، وانما يأكل ما يساق اليه من بلده، فاذا احتاج وتأخر عنه ماله، دعا بذلك الدعاء فيفرج عنه، فلما طلع الفجر سمعت قارعا يقرع الباب فخفت ان يكون صاحب السلك فاذا هو رسول أبي فقلت في نفسي : لعل صاحب الدين شكا الى أبي، فاردت ان اكتتم منه، فلم يكن بد من النهوض اليه، فلما دخلت عليه سالني عن حالي وأنسني وقال لي : ارفع ما تحت البساط، فحملت خريطة، فاذا فيها الف دينار فقضيت الدين بنصفه، وأصلحت بعض حالي ببقيته (132) ، سقت هذه القصة على طولها لدلالاتها العديدة، وتصويرها للسلوك الديني عند بني عشرة، ونزداد تفهما لهذه الصورة اذا تذكرنا ان صاحب القصة هو أبو العباس أحمد ابن عشرة ولد قاضي البلد وزعيمه، وخلفه في ذلك من بعده، وقد استمرت نزعة التصوف والميل الى أهله، وخدمة رجاله عند بعض حفدة بنى عشرة في العصر المريني كما سنرى فيما بعد .

بنو عشرة في عهد المرينيين :

كانت الجهات الواقعة حول سلا من بسيط تامسنا ميدانا لغارات مجتاحة كان يشنها المرينيون في أخريات دولة الموحدين، وقد بدأت هذه الغارات في أيام الخليفتين الموحديين : الرشيد والمعتضد، وتمت باستيلاء يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق المريني على العدوتين : الرباط وسلا سنة 657 هـ، وانتهى بذلك حكم الموحدين في هذه الجهة، ولكن سلا ابتليت في عهد هذا الامير بمحنة من أقسى المحن التى عرفتها ان لم تكن اقساها، ذلك ان الامير المذكور حدثته نفسه بطلب الملك والخروج على عمه يعقوب بن عبد الحق صاحب الامر، ولما عرف أن أهل سلا لا يوافقونه على مطامعه امتحن أشياخهم وجردهم من السلاح معتمدا على الجيش الذى كان معه من بنى مرين، ثم دفعه جنونه الى الاستنجاد بملك قشتالة فكتب اليه يطلب مئتين من الروم، فاهتبلها القشتاليون فرصة سانحة وقدروا أنها تمكنهم من الاستيلاء على مركز هام في ديار الاسلام بعد ان استرجعوا معظم اجزاء الاندلس المسلمة، وهكذا أغاروا باساطيلهم على سلا فقتلوا وعبثوا وخربوا ونهبوا، ولما انتزعها منهم أمير المسلمين يعقوب

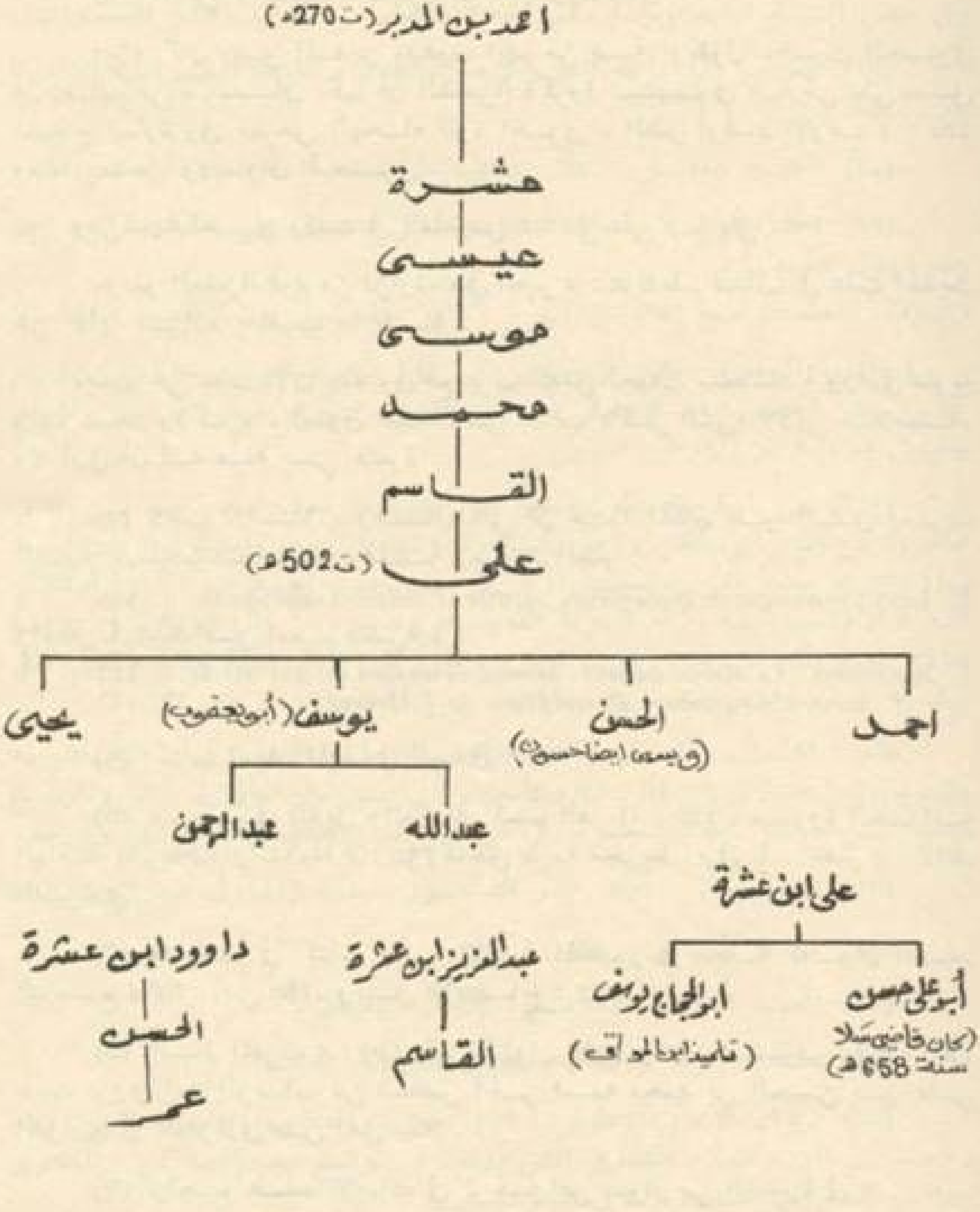
ابن عبد الحق تراجعوا عنها حاملين معهم أكثر من ثلاثة آلاف أسير من أهل سلا، وفي جملتهم قاضيها أبو علي حسن بن عشرة الذى ظل أسيرا باشبيلية الى أن افتداه أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق مع من افتداهم من الاسرى (33)، ولست أدري هل أبو علي هذا هو الذى ترجم له ابن عبد الملك في الجزء المفقود من قسم الغرباء، أم أن المقصود بتلك الترجمة حسون أو الحسن بن على بن عشرة الذى سبقت الاشارة الى أنه كان قاضيا في دولة المرابطين .

وقد عرضت لحادثة سلا المذكورة لصلتها بموضوعنا من حيث ان قاضي سلا في أوائل العهد المريني كان من بنى عشرة، فهل يكون معنى ذلك أن بنى عشرة استرجعوا مكانتهم ومركزهم في هذا العهد باسناد خطة القضاء اليهم من جديد ؟ قد يكون ذلك .

ونجد بعض بنى عشرة في هذا العصر يتركون سلا ويتوجهون صوب المشرق اما لاداء فريضة الحج، أو لطلب العلم، او خدمة المتصوفة، ومن هؤلاء حفيدهم أبو عبد الله محمد بن ابراهيم السلاوي الذي رحل الى المشرق وسمع به من جماعة ثم استقر بتونس حيث لقيه ابن رشيد بها في ذهابه سنة 683 هـ ثم في ايابه سنة 685 هـ ، وذكر طائفة من اخباره . قال ابن رشيد : «وجده لام فيما ذكر ابن عشرة أظنه ابو علي او أبوه، ونشا مع جده» كما ذكر انه اختص بخدمة الشيخ أبى الحسن الحرالي الصوفي المعروف قال : «واستملى عليه كثيرا من كتبه، وحفظ جملة من كراماته، وشاهد منها، وقد جمع ذلك في جزء، وقيد عنه جملة اجزاء، وكان قائما عليها يحفظها أو اكثرها من حفظه، غير انه كان لا يقيم الاعراب حق اقامته، فدل ذلك لديه، وتحديثه من حفظه خير من تحديثه بخطه فخطه كثير الخلل، وعنه خرج تصانيف أبي الحسن الحرالي او اكثرها فلذلك لا يوجد منها شيء يوثق بجملته (134)»، وسمى بعد ذلك ما اخذه عن الحرالى من مؤلفاته، ومن بني عشرة الذين خرجوا من سلا في هذا العصر بعد ذلك الرجل المعروف ببنى العشرة الذى رآه ابن عرفة في القرن الثامن بتونس كما مرذكره.

ومن بعد هؤلاء لا نجد ذكرا ببني عشرة أو بني القاسم في العصور التى تلت هذا العصر فيما وقفنا عليه، ولا ندرى هل انقرضوا أم انهم اعقبوا واتخذ عقبهم اسماء أخرى تنوسي معها بمر الزمن ذلك الاسم القديم (135) ومهما يكن من أمر فسوف يظل ذكر هذه الاسرة باقيا ما بقيت مدينة العشريين، وما قرىء الشعر الذى خلدهم . ولله الامر من قبل ومن بعد .

شجرة بني عشرة (على سبيل التقريب)



التعليقات

(1) الذخيرة ق 2، ورقة 148، مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(2) أعتاب الكتاب : 224، تحقيق الدكتور صالح الاشتر.

(3) الذيل والتكملة، قسم الغرباء : ورقة 8 .

(3*) كان بنو المدبر يدعون انهم من ضبة، ويقول ياقوت الحموي ان اصلهم من ستمسيان، كما أن الشعراء ذكروا نسبهم في فارس على سبيل المدح تارة وفي معرض الهجاء تارة اخرى . انظر ارشاد الاريب 1 : 226 وما بعدها، وديوان البحترى .

ومن جهة أخرى وقفت في القاموس 2 : 90 على ما يلي :

«وبنو العشراء قوم من فزارة» وفي العبر 2 : 632 ط. لبنان، في عقب الحديث عن بقايا فزارة بالمغرب ما نصه :

«منهم حي عظيم الآن يظعنون مع عرب المعقل لجهات سجلماسة ووادي ملوية ولهم عدد وذكر» . أسوق هذا من باب ذكر الشيء لادنى ملابسة، ولا أرى أن له صلة ببني عشرة .

(4) ذهب الاستاذ بروفنسال الى ان هذا المكان هو الذي يعرف اليوم بالخميسات من قبيلة زمور، انظر :

E. Lévi-Provençal : *Documents inédits d'Histoire almohade*, p. 105.

وانظر كذلك في اسم فنزارة :

L. Massignon : *Le Maroc dans les premières années du XVI^e siècle*, p. 213.
J. Léon l'Africain : *Description de l'Afrique*, t. I, pp. 171-172.

(5) كتاب اخبار المهدي للبيذق : 107 .

(6) مترجم في الذيل والتكملة، قسم الغرباء : 120 . مصورة الخزانة العامة بالرباط، والتكملة 2 : 752 ملحق طبعة مجريط، وفي ط . مصر 2 : 631، الفزاري .

(7) مترجم في كتاب بلغة الامنية المنشور في مجلة تطوان العدد التاسع 1964 . ص 180، ونيل الابتهاج : 271 .

(8) البيان المغرب 3 : 429 ط. تطوان 1960 وانظر التشوف : 193، 290، حيث يروى ابن الزيات عن شخص آخر اسمه محمد بن الحسن بن علي الفزارى أو الفنزارى من اهل سلا .

(9) راجع هذه الابيات في ترجمة ابن سوار من الذخيرة ق 2 .

(10) بغيـة الملتمس : 414 ط مدريـد .

(11) لا نعرف من هم هؤلاء الذين سمع منهم ابن عـرفـة هـذه القصيدة ولكننا نشير الى أن أبـا القاسم الشريف الادريسي احـد الاعلام السلاويين كـان مـن أكـابر تلامذة ابـن عرفـة، نيل الابتهـاج : 225 . ط مصر .

(12) كذا بالاصل، وورد الاسم مقرونا بال ايضا في اعتاب الكتاب : 224، وفي بعض النسخ المخطـوطـة مـن اعتاب الكتاب : عشرة، وهـو الصـواب .

(13) مختصر ابن عرفة الجزء الاخير : 242، مخطوط الخـزانـة العامـة بالـربـاط .

(14) شفـاء الغليـل : 367، مخطـوط الخـزانـة العامـة بالـرباط .

(15) انظر شرح الشيـخ التـاودى بـن سـودة على التحفـة 3 : 542 عند قـول ناظمهـا :

ويـوقف القسـم مـع الحمـل الى ان يستهـل صـارخـا فيعمـلا

وحاشية الرهوني على الزرقـاني 8 : 334 ط. القاهرة، وهـامش الشيخ كنـون على الحاشية المذكورة في الصفحة نفسها، وشرح بنيس لفرائض الشيخ خليـل ملزمـة 34 : 3، ط. فـاس .

(15*) من الممكن ان يكون سلف بني عشرة من بعض ولد أحمد بـن المدبر هاجروا من مصر الى المغرب بعد نكبته ومـوتـه في سجن أحمد ابن طـولـون سنة 270 هـ بينما بقي بعضهـم الآخر في مصر حيث نجـد لهم ذكـرا أواخـر الدولة الاخشيـديـة وأيام الدولة الفاطمية، ومنهم مـن نال الوزارة في دولـة هؤلاء كعبد الله بن يحيى ابن المدبر . وعلى كل حـال فثمة حلقة مفقـودة في سلسلة نسبهم بـين عشرة وبـين أحمد بـن المـدبر .

انظر : اعتـاب الكتـاب : 157 والمصـادر المـذكـورة فـي الحـاشيـة وتهذيب ابن عسـاكر 2 : 61 . 62 والاشارة الى مـن نال الوزارة : 48 وتاريـخ مصر لابـن ميسر : 48 والنجـوم الزاهرة 5 : 22 واتعاظ الحنفـا 144 وغيرها .

(16) الاستبصار : 140، نشر الدكتـور سعـد زغلـول عبد الحميـد .

(17) بغيـة الملتمس : 414 .

(18) العبـر المجلـد السابـع : 67 ط. لبنـان .

(19) مفاخر البربر ورقة 7 مخطوط الخزانة العامـة .

(20) ديوان الاعمى التطيلي : 276، تحقيق الدكتور احسان عباس، وقد رجحت ان تكون كلمة : القسري التي وردت في الموشح محـرفـة عن : العشري بحكـم القـرائن المـوجـودة في المـوشـح .

(21) الاستبصار : 140 أما جومة الجامع المذكورة فهي التي تعرف اليوم بجومة الطالعة، والمظنون أن الجامع نفسه ـ وهو الجامع الاعظم اليوم ـ من بناء بني عشرة، وبعض الناس ينسب بناءه الى أبي العباس احمد بن عشرة منهم، ولكننا لم نقف على نص في هذا الموضوع وقد ذكر صاحب الاستبصار في الصفحة نفسها أن سقف الجامع تهدم واحتمى الغرباء في بنائه سنة 574 هـ وفي الروض المعطار : 13 أن يعقوب المنصور الموحدي أعاد بناءه مستخدما في ذلك أسارى الارك وغيرهم، ثم تتابع تجديده في العصور التالية .

(22) J. COUSTÉ : *Les grandes Familles de Salé*, p.
وفي هذا الكتاب كلمة عن عشرة فيها بعض الخيال الذي لا يستند على أساس تاريخي سليم .

(23) اتحاف اشرف الملا : 7، مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(24) وصف المغرب للبكرى : 141 .

(25) في خبر أورده البكري : 135 عن وفادة برغواطية على الحكم المستنصر سنة 352 هـ ذكر أن المترجم عن رئيس هذا الوفد بجميع ما أخبر به، الرسول الذي قدم معه، وهو أبو موسى عيسى بن داوود ابن عشرين المسطاسي من اهل شلة مسلم من بيت خيرون بن خير، أسوق هذا الخبر هنا لما يمكن ان يوحي به من صلات في هذا الموضوع، ويلاحظ أن بعض الاعلام المذكورة في نسب هذا الرسول الترجمان من الاسماء المستعملة عند العشريين .

(26) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب : 65، نشر الدكتور مختار العبادي، وقد اصاب هذه الفقرة تحريف، فقد كتبت فاصلة السجعة الاولى هكذا : لعشرتها، وصوابها ما اثبتته، وهو استعمال لغوى معروف ومنه قول الكميت :

كيدوا نزارا بأوباش مؤلبة   يرجون عشرة جد غير عثار

كما ضبطت فاصلة السجعة الثانية بكسر العين وسكون الشين، وفي ذلك تفويت لمعنى الاشارة التاريخية المقصودة . والصواب ضبطها بفتح العين والشين ويجوز تسكين الشين توخيا للموازنة التامة بين السجعتين .

(27) تعتبر أرجوزة اتحاف أشرف الملا ردا على مفاخرة ابن الخطيب وانظر خاتمتها ص 133، فقد أشار الى اسباب تحامل ابن الخطيب على سلا وأهلها .

(28) قلائد العقيان : 131 ط. بولاق.

(29) المصدر نفسه : 209 .

(30) المعجب : 171، نشر العريان والعلمي .

(31) انظر ترجمته في بغية الملتمس : 414 ـ 415 . والتكملة : 231 ملحق طبعة مدريد . والذيل والتكملة، قسم الغرباء : 8 .

(32) انظر ترجمته في بغية الضبي : 457 .

(33) اخبار المهدى ابن تومرت : 65 .

(34) المصدر نفسه : 66 .

(35) الذيل والتكملة ج 1، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط .

(36) ديوان الاعمى التطيلى : 91 .

(37) المعجب : 255 .

(38) الذى ولي قضاء الجماعة بمراكش في هذه الحقبة أو في قريب منها هو أبو الحجاج يوسف ابن الملجوم الفاسي، التكملة : 750 ط مدريد .

(39) ممن رحل منهم الى الاندلس ابو الحجاج يوسف بن علي بن عشرة الذي روى بمدينة بلنسية عن أبى عبد الله بن المواق وكان ابو الحجاج المذكور ذا حظ من رواية الحديث والفقه، الذيل والتكملة، قسم الغرباء : 207 ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(40) الفنية : 48 ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(41) معجم أصحاب الصدفى : 214 .

(42) اخبار المهدى ابن تومرت : 66 .

(43) اعتاب الكتاب : 224 والروض المعطار : 197 .

(44) اعتاب الكتاب : 224 ـ 225 .

(45) الذيل والتكملة الغرباء : 8 .

(46) الروض المعطار : 197 ـ 198 .

(47) المغرب 2 : 235 ـ 236 .

(48) نسبت هذه الابيات خطا عند بعض المتاخرين الى الولي سيدى عبد الله اليابورى دفين الرباط ولعله كان يتمثل بها فظنت انها له .

(49) في كلام ابن سعيد أن أبا الحسن خلصه من السجن بسلا، المغرب 2 : 235 .

(50) لم يذكر اسمه في تمهيد صاحب الذخيرة للقصيدة والاشبه انه يوسف بن تاشفين فهو معاصره .

(51) الذخيرة ق 2 : 151 .

(52) انظر ترجمته في المغرب 2 : 396 ـ 397 . وقد ذكر الفقيه ابن علي الدكالي أنه مات بسلا ودفن بباب حساين منها، اتحاف اشرف الملا : 92 .

(52) انظر اخباره وأصداء نكبته في القلائد : 127 وما بعدها والمغرب 2 : 396 ـ 397، وقد أخذ يوسف بن تاشفين من هذا الامير حصنه سنة 485 هـ ولكنه رعى له عهده فاصبح بعد ذلك وزيرا لولده على القلائد : 295، ثم نكب مرة ثانية، وعاش آخر أيامه في سلا منقبضا عن الناس منصرفا الى العلم حتى توفي، وذكر الفقيه ابن علي أنه مدفون بباب حساين من سلا، اتحاف أشرف الملا : 92 .

(53) القلائد : 131 ـ 132 والمغرب 2 : 397 ـ 398 .

(54) بغية الملتمس : 414 ، و 457 .

(55) المصدر نفسه .

(56) انظرها في القلائد : 131 ، 209 ، 275 ، 281 .

(57) الذخيرة ق 2 : 264 .

(58) القلائد : 278 .

(59) المصدر نفسه : 280 .

(60) ديوان التطيلي : 90 ـ 91 .

(61) 171 ونسبت في زاد المسافر : 71 والنفح 4 : 410 الى الابيض .

(62) النفح 4 : 281 .

(63) المصدر نفسه .

(64) جمع ولد القاضي عياض ما قيل في أبيه من شعر في ديوان اشتمل على نحو خمسة آلاف بيت لفحول شعراء ذلك العصر كابن سارة وابن بقي وابن جودى وابن شرف وابى بحر بن عبد الصمد وابن ابى الخصال وابن الوزان وابن بياع وابن وهب وغيرهم، التعريف بالقاضى عياض : 120 مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(65) تستطيع ان تجد هذا الشعر متفرقا في القلائد والذخيرة وديوان الاعمى التطيلى وغيرها .

(66) فهم الفقيه محمد بن علي الدكالي في جواب له الى المستشرق بروفنسال حول بني عشرة أن قوله : أحد رؤساء المغرب الاوسط، تابع لاسم

عشرة، فبنى على ذلك حكما تاريخيا، وهو أن عشرة كان أميرا للامويين على المغرب الاوسط، وهذا لا يستقيم مع جملة الاخبار التي نعرفها عن بني عشرة، كما ان الاقرب من حيث القواعد النحوية أن يكون ذلك تابعا للاسم الاول في الجملة لأنه المقصود بالحديث، وحينئذ تكون عبارة المغرب الاوسط خالية من مدلولها الاصطلاحي أو يكون المغرب الاوسط بالنسبة الى المغرب الاقصى، انظر E. Lévi-Provençal : *Documents inédits...*, p. 106

(67) بدائع البدائه : 45 ط بولاق، والنفح 5 : 146 ـ 147 .

(68) نفح الطيب 5 : 159 ، 271 ، ورايات المبرزين : 93 .

(69) الذخيرة ق 2 : 152 .

(70) كذا في الذيل والتكملة، قسم الغرباء : 8 وفي التكملة : 231 (ملحق طبعة مدريد) أنه دخل الاندلس غازيا سنة ثمان وثلاثين واربعمائة، وهو تاريخ بعيد حين نعرف انه توفي سنة 502 هـ . وأغلب الظن أن ثلاثين في التكملة المطبوعة تحريف لثمانين وقد سكت كل من الابار وابن عبد الملك عما اذا كان أبو الحسن دخل الاندلس غازيا منفردا أو أنه دخلها في صحبة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في أحد جوازاته الى الاندلس القريبة من التاريخ المذكور .

(71) الذيل والتكملة: 8 ، التكملة : 231 .

(71*) في ديوان أبي الحسن علي بن عبد الرحمن البلنوبي ـ وهو شاعر صقلي من أهل القرن الخامس كان يعيش في مصر ـ قصيدتان في مدح من اسمه أبو الحسن علي بن احمد بن المدبر، والشاعر يحليه بسماء الرؤساء وشمس الكفاة : فهل هو أبو الحسن علي بن عشرة الذي ينمي ـ كما عرفنا ـ الى أحمد بن المدبر، وامتدحه شعراء مصر حين مر بها في هذه الحقبة ؟ أم أنه أحد بني المدبر الذين كان لهم شأن بمصر يومئذ ؟ ليس في القصيدتين ولا في المراجع التي وقفت عليها ما يستأنس به في ذلك . انظر : شعر البلنوبي للدكتور امبرتو رتزتانو، حوليات كلية الآداب ـ جامعة عين شمس المجلد الخامس 1959 .

(72) الذخيرة ق 2 : 149 .

(73) المغرب 1 : 412 .

(74) الذخيرة ق 2 : 149 .

(75) المصدر نفسه : 150 .

(76) المصدر نفسه : 152 .

(77) المصدر نفسه : 151 .

(78) المصدر نفسه : 152 والمغرب 1 : 412 .

(79) المصدر نفسه : 152 .

(80) المصدر نفسه : 151 .

(81) المصدر نفسه : 150 .

(82) المصدر نفسه : 150 .

(83) المصدر نفسه : 150 .

(84) المصدر نفسه : 152 .

(85) المصدر نفسه : 153 .

(86) المصدر نفسه : 152 .

(87) المصدر نفسه : 153 .

(88) المصدر نفسه : 153 .

(89) كذا في القلائد المطبوعة : 275 . وديوان التطيلي : 218 اعتمادا عليها، وفي الخريدة، ونسخة القلائد المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط : 248 انها في مدح امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ونحن نرجح ان تكون في ابن عشرة لانها لا تحتوى على شيء مما يمدح به أمير المسلمين .

(90) انظر ديوان التطيلى : 11 ، 14 ، 93 ، 199 ، 205 .

(91) المصدر نفسه : 89 وما بعدها .

(92) أثبته الدكتور احسان عباس في ديوان التطيلى : 272 واضطرب المقرى في نسبته، فنسبه في ازهار الرياض 2 : 208 للتطيلى، وفي نفح الطيب 5 : 159 لابن بقي .

(93) ازهار الرياض 2 : 235 وديوان ابن الصباغ، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط .

(94) ديوان التطيلى : 275 ـ 276 .

(95) المصدر نفسه : 267 ـ 268 ، ودار الطراز : 47 .

(96) النفح 5 : 368 وانظر وفيات الاعيان 5 : 248 وارشاد الاريب 20 : 21 .

(97) المصـدر السابـق .

(98) نسبه في دار الطراز : 77 لابن بقي، واثبته الدكتـور احسان عباس في ديـوان التطيلي : 269 ، نقـلا عـن جيش التوشيح .

(99) دار الطراز : 76 .

(100) قلائد العقيان : 263 مخطوط الخزانة العـامة بالرباط، ووردت هـذه الابيـات في النسخـة المطبوعة : 281 على غـير الترتيب المذكـور الذى آثـرتـه لانسجـامـه .

(101) القلائد : 261 مخطوط ... وقـدم لها الفتح بقولـه : «وقال يمدح الفقيه أبا العباس بن علي زعيم سلا» وهى ساقطة من المطبوعـة .

(102) جاء في رايـات المبرزين : 48 أثناء تـرجمة ابن بقـي مـا يلي : «لـه في بني عـزة (كـذا) قضاة سلا موشحات مشهورة منها قوله : امـا ترى احمـد الخ» وعزة تصحيف عشرة كما هو واضح، والموشح منسوب لابى بقى في دار الطراز : 63 وأزهار الريـاض 2 : 209 ، وأثبت في ديوان التطيلى اعتمادا على جيش التوشيح .

(103) ازهـار الريـاض 2 : 209 .

(104) اخبار وتراجم اندلسية : 51 ، اعـداد الدكتـور احسان عباس .

(105) القـلائـد : 280 .

(106) دار الطراز : 150 .

(107) وردت هـذه القصيـدة في ذيل الديـوان : 557 ـ 558 ، تحقيـق الـدكتـور احسان عباس، والذخيرة وبغيـة الملتمس : 521 . وبعض ابياتهـا في مسالك الابصار للعمـرى .

(108) الذيل والتكملة قسم الغـرباء : 8 .

(109) بغية الملتمس : 415 .

(110) المصدر نفسـه : 457 .

(111) القلائـد : 281 .

(112) اخبار المهـدى ابن تومـرت : 66 وانظر الترجمة : 106 .

(113) المصدر نفسـه : 106 ـ 107 .

(114) البيان المغـرب 3 : 21 .

(115) المصدر نفسه : 20 والعبر 6 : 478 .

(116) المصدران السابقان .

(117) العبر 6 : 364 والاستقصاء 2 : 108 . أما عن مآل قصر بنى عشرة فيقول صاحب الاستقصاء 2 : 97 «وهذا القصر لم يبق له اليوم اسم ولا رسم» وكذلك قال تلميذه الفقيه ابن علي . ويظن كاتب فاضل أنه كان في المحل الذى بنيت فيه المدرسة المرينية بطالعة سلا . مجلة دعوة الحق : 43 عدد اكتوبر 1962 . وحاول كاتب فاضل آخر ان يجعل مكان هذا القصر في قصبة الرباط، مع ان النصوص صريحة في أنه كان بسلا، مجلة دعوة الحق : 49 . عدد نوفمبر 1964 . هذا وقد وقفت في رحلة التجاني : 344 على ما يلي : «فلما كانت سنة ثمان وأربعين [وخمسمائة] وصل الخليفة (يعنى عبد المومن) الى سلا واستصحب يحيى معه فاسكنه في بعض قصور بنى عشرة وأقام بسلا الى أن مات هنالك ودفن في مقابرها الجوفية مما يلي البحر .» ومعنى ذلك أنه كان لبنى عشرة في سلا قصور لا قصر واحد .

(118) رحلة ابن رشيد 2 : 41 مخطوط الاسكوريال .

(119) انظر ترجمته في برنامج الرعيني : 200 ، والمغرب لابن سعيد 1 : 74 واختصار القدح : 30 وتحفة القادم : 159 .

(120) الذيل والتكملة، قسم الغرباء : 207 .

(121) المصدر نفسه، والاعلام للفقيه عباس بن ابراهيم 2 : 141 .

(122) الذيل والتكملة ج 1 مخطوط المكتبة الملكية بالرباط .

(123) المصدر نفسه، قسم الغرباء : 33 .

(123) مكرر، رسائل ابن عميرة : 195 مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

(124) التشوف : 182 .

(125) الاتحاف الوجيز : 70 ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ويقال ان رجال الحفرة في سلا وهم : سيدى قاسم غليظ، وسيدى عبد الله، وسيدى علي مليح من بنى عشرة، ويلاحظ أن هذه الاسماء تتفق مع أسماء بعض بنى عشرة المعروفين .

(126) التشوف : 281 .

(127) المصدر نفسه : 188 .

(128) المصدر نفسه .

(129) المصدر نفسه : 281 .

E. Lévi-Provençal : *Documents inédits*.... p. 106 (130)
ومجلة دعوة الحق : 49 ، عدد نوفمبر 1964 .

(131) التشوف : 188 .

(132) المصدر نفسه : 77 ، وانظر ترجمة ابن النحوي ودعاءه المذكور في التشوف : 72 وما بعدها ، ونيل الابتهاج : 349 ولم تذكر المصادر أنه دخل سلا، فلعل ابن عشرة لقيه بفاس .

(133) انظر تفصيل هذه الحادثة في البيان المغرب 3 : 422 وما بعدها، وراجع بحوثا حولها في مجلة هسبيريس سنة 1944 وسنة 1952، ومجلة الاندلس سنة 1943 .

(134) رحلة ابن رشيد 2 : 41 مخطوط الاسكوريال، ومن الجدير بالذكر هنا أن أبا عبد الله محمد بن ابراهيم السلوى هذا روى عنه ابن عبد الملك المراكشي وذكره في جملة الآخذين عن أبي المطرف أحمد ابن عميرة المخزومي، الذيل والتكملة 1 : 74 مخطوط المكتبة الملكية بالرباط .

(135) يقال انه ما تزال الى اليوم بقية من بني عشرة أو بني القاسم في سلا، ولكن المسألة تقف عند حد الظن .

الصديق بن العربي

شعر المعتمد بن عباد في منفاه

في شهر رجب من سنة 484 هـ اقتحم المرابطون مدينة اشبيلية واستنزلوا اميرها المعتمد بن عباد بعد حكم دام 23 سنة (461 ـ 484) فانطوت بذلك صفحة من حياة هذا الامير الشاعر وافتتحت صفحة اخرى من حياته كانت مليئة بالتوجع والحسرات والانين.

كان المعتمد في مقدمة شعراء الاندلس فقد قال الشعر في فنونه وأغراضه المألوفة ونظرة عابرة على مجموع شعره تجعلنا نتصوره تصورا واضحا في شطرين من حياته : أولهما شعره في الاندلس، وثانيهما شعره في المغرب بعد الاسر، وهذا القسم الثاني بالذات من شعره هو الذي فاض به خاطره في عهد المحنة والاسر، ولا ريب أن شعره في هذا العهد هو الاهم وهو الاولى بالدرس والنظر لماله من روعة وطرافة، ففي هذه الفترة القصيرة التي عاش فيها مغربا لم تخمد قريحته الشاعرة، ولم يركن الى الانطواء والصمت، بل كان يطلق الزفرات المتتابعة ويفيض حزنه بمقطعات مليئة بعاطفة الحزن والاسى وذكريات الماضي البعيد.

ويفتتح المعتمد بن عباد هذه الصفحة الجديدة من حياته بهذه القطعة التي انشدها في تاثر بالغ عندما ألقي القبض عليه بالايدي، خارج قصره باشبيلية بعد ما طلب الامان لنفسه :

لما تماسكت الدموع ... وتنهنه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضو ... ع على فمي السم النقيع
ان يسلب القوم العدا ... ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه ... لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطباع ... أيسلب الشرف الرفيع

قـد رمت يـوم نـزالهـم ... أن لا تحصنني الـدروع
وبـرزت ليس سـوى القميص ... علـى الحشـا شيء دفـوع
وبـذلت نفسـي كـي تسيـل ... اذا يسيل بهـا النجيـع
أجلـى تـاخـر لـم يكـن ... بهـواي ذلـي والخشـوع
مـا سـرت قط الـى القتـال ... وكـان مـن أملـي الـرجـوع
شيـم الالـى انـا منهـم ... والاصـل تتبعـه الفـروع

ولما استقل السفينة التي تحمله الى ارض المنفى وحوله جماهير المودعين صعد الزفرات وانشد :

بكى المبارك فـي اثـر ابـن عباد ... بكى علـى اثـر غـزلان وآسـاد
بكـت ثـريـاه لاغمت كـواكبهـا ... بمثـل نـوء الثريـا الـرائح الغادي
بكـي الوحيـد بكـي الزاهي وقبتـه ... والنهـر والتـاج كـل ذلـه بـادي
مـاء السمـاء علـى افيـائـه درر ... يالجـة البحـر دومـي ذات ازبـاد

وبينما كانت السفينة تشق طريقها بين الامواج مبتعدة بـه عن الاندلس ومغانيها انشد هـذه الابيات المفعمة بالحسرة والالـم .

لـم انس والمـوج يدنيني ويقصيني ... والموت كـاد مـن الربان يـاتيني
ابصرتهـولا لوان الـدهر ابصـره ... لابصر الـدهـر امـرا ليس بالدون
قـد كنت ضنا بنفس لا اجـود بهـا ... فبعتهـا بـاضطرار بـيـع مغبـون
كـم ليلـة بت مطويـا علي حـرق ... فـي عسرة مـن عيون الذل في العين
فتلـك احسـن أم أمـر ظللـت بـه ... في ظـل عـزة سلطـان وتمكـين
ولـم يكـن والـذى تعنو الوجوه له ... عـرض مهانـا ولا مالـي بمخـزون
وكـم خلـوت مـن الهيجا بمعتـرك ... والحـرب تـرفل في اثوابها الجون
يـارب ان لـم تهب حـالا اسـر بـه ... فهب لعبـدك اجـرا غير ممنـون

ولما وصل المعتمد الى طنجة تسارع اليه الشعراء يطلبون منه النوال فقال متـافقـا :

شعـراء طنجـة كلهـم والمغـرب ... ذهبـوا مـن الاغـراب ابعـد مذهب
سـالـوا العسير مـن الاسير وانـه ... بسـوء الهـم لاحـق فاعجب واعجب
لـولا الحيـاء وعـزة لخميـة ... طى الحشـا نـاغـاهـم في المطلب
قد كان ان سئل النـدى يجزل وان ... نادى الصريخ ببابـه اركب يـركب

واقـام المعتمد مدة بطنجة فرفـع اليه الشاعر القيرواني علي بن عبد الغني الحصري قصائد قديمـة والحف في الطلب فبعث اليـه المعتمـد بكـل ما يملك مـن الـذهب وهي 36 مثقالا فلـم يكلف الحصري نفسـه مشقـة الـرد عليـه فقـال المعتمـد في ذلك :

قـل لمـن قـد جمـع العلم وما احصـى تـوابـه
كـان فـي الصـرة شعـر فتنظـرنـا جـوابـه
قـد اثبـنـاك فـهـلا جلب الشعـر ثـوابـه

غـادر المعتمد طنجـة متوجها الى الجنوب وفي الطريق الى مكناس شاهـد جمـاعـة من الناس يستسقون لقلة المطر وشـدة الجفـاف فقـال :

خـرجـوا ليستسقو فقلت لهم خذوا دمعـي ينـوب لكـم عـن الانـواء
قـالـوا حقيـق فـي دموعك مقنـع لكنهـا ممـزوجـة بـدمـاء

وفي الطريق الى مكناس يتوصل المعتمد بن عباد برسالة من ولـده الرشيد فيخاطبه فيها بقطعة استهلهـا بقـولـه :

يـاخليف الـندي ورب السمـاح

فيجيبـه المعتمـد بقطعـة كلهـا مـرارة وألـم قـال فيهـا :

كنت حلف الـندى ورب السمـاح وحبيـب الـنفـوس والارواح
اذ يميني للبـذل يـوم العطـايـا ولقبض الارواح يـوم الـكـفـاح
وشمـالـي لقبض كـل عـنـان يقحـم الخيـل فـي مجـال الرماح
وانـا الـيـوم رهـن اسر وفقـر مستبـاح الحمـي مهيض الجنـاح
لا اجيب الصريـخ ان حضـر الناس ولا المعتفـين يـوم السمـاح
عـاد بشـري الـذى عهـدت عبوسا شغلتنـي الاشجـان عـن افـراحي
فـالتمـاحي عـن العيـون كـريـه ولقـد كـان نـزهـة اللمـاح

وتستمر القافلة في سيرها نحو الجنوب حتى تشرف على جبـال الاطلس الشامخـة فيقال له هـذه جبال درن فينشـد :

هـذى جـبـال درن مشـوبـة بـالـدرن
كـانـهـا تـخـبـرنـي بـانـهـا تقـبـرنـي
يـالـيـتنـي لـم أرهـا ولـيـتـهـا لـم تـرن

وأخيرا يصل المعتمد الى مدينة اغمات حيث اعد له مكان في سجنها ولم تتحمل زوجته اعتماد الرميكية هذه الصدمة والاهانة فاجابها :

قالت لقد هنا هنا مولاى اين جاهنا ؟
قلت لها الهنا صيرنا الى هنا

وفي اغمات نستمع اليه وقد حركت في نفسه الامل حين نعبت الغربان وكان نعيبها فالا بقدوم بعض نسائه عليه فنظم هذه الابيات الرائعة :

غربان اغمات لا تعد من طيبة من الليالي وافنانا من الشجر
تظل زغب فراخ تستكن بها من الحرور وتكفيها اذى المطر
كما نعبتن لي بالفال يعجبني مخبرات به عن أطيب الخبر
ان النجوم التي غابت قد اقتربت سنا مطالعها تسرى الى القمر
على ان صدق الرحمن ما زعمت أن لا يروعن من قوسي ولا وترى
والله والله لا نفرت واقعها ولا تطيرت للغربان بالغرور
وياعقاربها لا تعدمي ابدا شجا وعقرا ولا نوعا من الضرر
كما ملاتن قلبي مذ حللت بها مخافة اسلمت عيني الى السهر
ماذا رمتك به الايام ياكبدي من ثبلهن ولا رام سوى القدر
اسر وعسر ولا يسر أومله استغفر الله كم لله من نظر

وما كاد المعتمد بن عباد يصل الى منفاه باغمات حتى تواردت الاخبار بوفاة ولديه الفتح ويزيد فتجددت احزانه وتعالت حسراته وانشد في رثائهما قصائد باكية من ابلغ شعر الاحزان الذى انشاه في نكبته :

يقولون صبرا لا سبيل الى الصبر سابكي وابكي ما تطاول من عمرى
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيد فهل عند الكواكب من خبر
ترى زهرها في ماتم كل ليلة تخمش لهفا وسطه صفحة البدر
ينحن على نجمين اثكلت ذاوذا واصبر ما للقلب في الصبر من عذر
مدي الدهر فليبك الغمام مصابه بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قطر دمعها على كل قبر حل منه أخو القطر
وبرق ذكى النار حتى كانها يسعر مما في فؤادى من الجمر
افتح لقد فتحت لي باب رحمة كما بيزيد الله قد زاد في أجرى
هوى بكما المقدار عنى ولم أمت وادعي وافيا ؟ .. قد نكصت الي الغدر
توليتما والسن بعد صغيرة ولم تلبث الايام أن صغرت قدرى

توليتما حين انتهت بكما العلا   الى غاية كل الى غاية يجرى
فلو عدتما لاخترتما العود في الثرى   اذا انتما ابصر تماني في الاسر
بعيد على سمعي الحديد نشيده   ثقيلا فتبكي العين بالجس والنقر
معي الاخوات الهالكات عليكما   وامكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكي بدمع ليس للقطر مثله   وتزجرها التقوى فتصغى الى الزجر
ابا خالد اورثتني الحزن خالدا   ابا النصر مذ ودعت ودعني نصري
وقبلكما قد اودع القلب حسرة   تجدد طول الدهر ثكل ابي عمرو

وله في نفس المعنى وقد راى قمرية وأمامها وكر فيه طازان صغيران :

بكت ان رات الفين ضمهما وكر   مساء وقد اختى على الفها الدهر
بكت لم ترق دمعا واسبلت عبرة   يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها   وما نطقت حرفا يبوح به سر
فمالي لا أبكي ام القلب صخرة   وكم صخرة في الارض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده   وابكي لا لا في عديدهم كثر
بني صغير او قليل موافق   يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما   بقرطبة النكداء او رندة القبر
غدرت اذن ان ضن جفني بقطره   وان لؤمت نفسي بصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي   لمثلهما فلتحزن الانجم الزهر

وتعاوده ذكرى فقد ولديه فيرسلها زفرات بعد زفرات :

ياغيم عيني أقوى منك تهتانا   ابكي لحزني وما حملت احزانا
ونار برقك تخبو اثر وقدتها   ونار قلبي تبقى الدهر بركانا
نار وماء صميم القلب أصلهما   متى حوى القلب نيرانا وطوفانا
ضدان الف صرف الدهر بينهما   لقد تلون من في الدهر الوانا
بكيت فتحا اذا مارمت سلوته   ثوى يزيد فزاد القلب نيرانا
يا فلذتي كبدى يابي تقطعهما   من وجدها بكما ما عشت سلوانا
لقد هوى بكما نجمان مارميا   الا من العلو بالالحاظ كيوانا
مخفف عن فؤادى ان ثكلتكما   مثقل لي يوم الحشر ميزانا
يا فتح قد فتحت تلك الشهادة لي   باب الطماعة في لقياك جذلانا
ويا يزيد لقد زاد الرجا بكما   أن يشفع الله بالاحسان احسانا
كما شفعت أخاك الفتح تتبعه   لقاكما الله غفرانا ورضوانا
مني السلام ومن أم مفجعة   عليكما ابدا مثني ووحدانا
أبكي وتبكي ونبكي غيرنا أسفا   لدى التذكر نسوانا وولدانا

وفي يوم عيد من الاعياد التي توالت عليه في اغمات دخلت عليه بناته ليسلمن عليه وهن في اطمار بالية واقدامهن حافية فلم يتمالك نفسه من اطلاق هذه الزفرات :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا ... فساءك العيد في اغمات ماسورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة ... يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... ابصارهن حسيرات مكاسيرا
يطان في الطين والاقدام حافية ... كانها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخد ويشكو الجدب ظاهره ... وليس الامع الانفاس ممطورا
افطرت في العيد لاعادت اساءته ... وكان فطرك للاكباد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا ... فردك الدهر منهيا ومامورا
من بات بعدك في ملك يسر به ... فانما بات بالاحلام مغرورا

ويظهر ان المعتمد لم يكن وحيدا في سجنه فقد كان يتردد عليه بين حين وءاخر عدد من المعتقلين الاجانب عن اغمات وفيهم البعض من اهل فاس فكان المعتمد يستانس لمجالستهم ويروح عن نفسه بمباسطتهم والتحدث اليهم. وفي يوم ما دخلوا عليه مودعين بعد ان انتهت مدة اعتقالهم فودعهم بهذه الابيات :

اما لانسكاب الدمع في الخد راحة ... لقد آن ان يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا ءال فاس لمبتلى ... بما منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن اغمات والتوت ... علي قيود لم يحن فكها بعد
من الدهم اما خلقها فاساود ... تلوى واما الايدى والبطش فالاسد
فهنئتم النعمى ودامت لكلكم ... سعادته ان كان قد خانني سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا ... ولله في امرى وامركم الحمد

واستمر المعتمد مدة اخرى وحيدا في سجنه ففقد من كان يجالسه وابتعد عنه من كان يؤانسه وفي ذلك يقول :

تؤمل للنفس الشجية فرجة ... وتابي الخطوب السود الاتماديا
لياليك من زاهيك اصفى صحبتها ... كذا صحبت قبلي الملوك اللياليا
نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ ... وبعد هما نسخ المنايا الامانيا

وتتوالى الايام والليالي وهو في محبسه رهين فيتذكر احيانا مجده الغابر وتغمر نفسه نشوة الزهو فيوجه هذه القطعة الى صديقه ابن حمديس

غريب بأرض المغربين اسير … سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا … وينهل دمع بينهن غزير
سيبكيه في زاهيه والزهر الندى … وطلابه والعرف ثم نكير
اذا قيل في أغمات قد مات جوده … فما يرتجى للجود بعد نشور
مضى زمن والملك مستانس به … واصبح منه اليوم وهو نفور
برأى من الدهر المضلل فاسد … متى صلحت للصالحين دهور
اذل بني ماء السماء زمانهم … وذل بني ماء السماء كبير
فما ماؤها الا بكاء عليهم … يفيض على الاكباد منه بحور
فيا ليت شعري هل ابيتن ليلة … امامي وخلفي روضة وغدير
بمنبتة الزيتون مورثة العلا … تغنى حمام او ترن طيور
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا … تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهي وسعد سعوده … غيورين والصب المحب غيور
تراه عسيرا لا يسيرا مناله … الا كل ماشاء الاله يسير
قضى الله في حمص الحمام وبعثرت … هنالك منا للنشور قبور

وحتى في المنفى وفي غياهب السجن لم يتخل شاعرنا عما جبل عليه من نخوة وكرم فقد وجه الي صديقه الشاعر ابي بكر ابن اللبانة حينما زاره واعتزم العودة الى الاندلس عشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين وكتب معهما هذه القطعة .

اليك النزر من كف الاسير … وان تقنع تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء … وان عذرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه … اليس الخسف ملتزم البدور
ورج لجبره عقبي نداه … فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت يداه من حضيض … وكم حطت ظباه من امير
وكم من منبر حنت اليه … اعالي مرتقاه ومن سرير
زمان زاحمت عن جانبيه … جياد الخيل بالموت المبير
بحيث يطير بالابطال ذعر … ويلقى ثم ارجح من ثبير
وقد نظرت اليه عيون نحس … مضت منه بمعدوم النظير
نحوس كن في عقبي سعود … كذاك تدور اقدار القدير
وكم احظى رضاه من حظي … وكم شهرت علاه من شهير
زمان تنافست في الحظ منه … ملوك قد تجور على الدهور

ووجه الى صديقه المذكور هدية فأبى قبولها منه فوجه اليه المعتمد هذه الابيات :

رد بـرى بغيا علي وبرا وجفا فاستحق لوما وشكرا
حاط نـزري اذ خاف تأكيد ضري فاستحق الجفاء ان حاط نزرا
فاذا ما طويت في البعض حمدا عاد لومي في البعض سرا وجهرا
يا ابا بكر الغريب وفاء لاعدمناك في المغارب ذخرا
اي نفع يجدي احتياط شفيق مت ضرا فكيف ارهب ضرا

وقبل ارتحال ابن اللبانة من اغمات كتب الى المعتمد بقصيدة فاجابه المعتمد بمثلها قائلا :

كلامك حر والكلام غلام وسحر ولكن ليس به حرام
ودر ولكن بين جنبيك بحره وزهر ولكن الفؤاد كمام
اضاء لنا اغمات قربك برهة وعاد بها حين ارتحلت كلام
وابقى السام الذل في ارض غربة وما كنت لولا الغدر ذاك اسام

وقدم الشاعر ابن حمديس الصقلي لزيارة المعتمد باغمات فصرفه بعض خدمه ولما اخبر المعتمد بذلك وجه الى صديقه هذه القطعة معتذرا :

حجبت فلا والله ما ذاك عن امرى فأصغ فدتك النفس سمعا الى عذري
فما صار اخلال المكارم لي هوى ولا دار اخجال لمثلك في صدري
ولكنه لما احالت محاسني يد الدهر شلت عنك دأبا يد الدهر
عدمت من الخدام كل مهذب اشير اليه بالخفي من الامر
ولم يبق الاكل ادكن الكن فلاء اذن في الاذن يبرأ من عر
حمار اذا يمشي ونسر محلق اذا طار بعدا للحمار وللنسر
وليس بمحتاج اتانا حمارهم ولا نسرهم ممن يحن الي وكر
وهل كنت الا البارد العذب انما به يشتفي الظمئان من غلة الصدر
ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها اذا نزعت نفسي الى لذة الخمر
وانت ابن حمديس الذى كنت مهديا لنا السحر اذ لم يات في زمن السحر

وفي اغمات زاره الطبيب ابو العلا بن زهر لمعالجته ولما ودعه دعى لصاحبنا بطول البقاء فاجابه قائلا :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى ... أسيران يطول به البقاء
اليس الموت اروح من حياة ... يطول على الشقي بها البقاء
فمن يكن من هواه لقاء حب ... فان هواي من حبلي اللقاء
أرغب ان اعيش ؟ ارى بناتي ... عواري قد اضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان اعلا ... مراتبه اذا ابدوا النداء
وطرد الناس بين يدي ممر ... وكفهم اذا غض الفناء
وركض عن يمين او شمال ... لنظم الجيش ان رفع اللواء
بعينيه امام او وراء ... اذا احتل الامام او الوراء
ولكن الدعاء اذا دعاه ... ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت ابا العلاء جزاء بر ... نوى برا او صاحبك العلاء
سيسلي النفس عما فات علمي ... بان الكل يدركه الفناء

ويظهر ان المعتمد بن عباد عقد صلات وثيقة مع سكان البلد وحتى مع بعض افراد الطبقة الحاكمة فقد طلب من الاميرة حواء بنت تاشفين خباء فاجابته معتذرة بان ليس عندها خباء وفي ذلك يقول :

هم اوقدوا بين جنبيك نارا ... اطالوا بها في حشاك استعارا
اما يخجل المجد ان زودوك ... ولم يصحبوك خباء معارا
فقد قنعوا المجد ان كان ذاك ... وحاشاهم منك خزيا وعارا
فقل لعينيك ان يجعلوا ... سواد العيون عليكم شعارا
تراهم نسوا حين جزت القفا ... ر حنينا اليهم وخضت البحارا
بعهد لزوم لسبل الوفاء ... اذا حاد من حال عنها وجارا
وقلبي نزوع الى يوسف ... فلولا الضلوع عليه لطارا
ويوم العروب ذددت العدا ... نصرت الهدى وأبيت الفرارا
ثبت هناك وان القلو ... ب بين الضلوع لتابي الفرارا
ولولاك يا يوسف المتقي ... رأينا الجزيرة للكفر دارا
راينا السيوف ضحى كالنجو ... م وكالليل ذاك الغبار المثارا
فلله درك في هوله ... لقد زاد باسك فيه اشتهارا
تزيدا جتراه اذا ما الرما ... ح عند التناجز زدن اشتجارا
اذا نار حربك ضرمتها ... حسبنا الالسنة فيها شرارا
شلقى فعالك يوم الحسا ... ب تنثر بالمسك منك انتثارا
وللشهداء ثناء عليك ... بحسن منامك ذاك النهارا
وانهم بك يستبشرو ... ن الا تخاف والا تضارا

وفي باب هذه الاتصالات التي انعقدت بين الاسير واعيان المدينة نجد شخصا من المتادبين يطلب منه ان يزوده بشيء من شعره فيجيبه المعتمد بهذه القطعة التي تفيض لوعة واسى :

ياسائل الشعر يجتاب الفلاة به … تزويدك الشعر لا يغنى عن السغب
راومن الريح لاري ولا شبع … غدا له مؤثرا ذو اللب والادب
اصبحت صفرا يدى مما تجود به … ما اعجب الحادث المقدور في رجب
ذل وفقر ازالا عزة وغنى … تعمى الليالى من البلوى على كثب
قد كان يستلب الجبار مهجته … بطشي ويحيا قتيل الفقر في طلبي
والملك يحرسه في ظل واهبه … غلب من العجم اوشم من العرب
فحين شاه الذى اتاه ينزعه … لم يجد شيئا قراع السمر والغضب

وعندما تستبد به الافكار ويتنابه الحزن على المصير ويتبين ما ءالت اليه حالة بعد المجد والسلطان يغضب غضبا مشوبا بالاسى ويعتب على الدهر وقد يشعر بالفخر والياس فيركن الى الرضى ويلجأ الى الرحمان ملتمسا في الايمان بالله كل سلوان وذلك ما تفصح عنه هذه القطعة :

قبح الدهر فماذا صنعا … كلما اعطى نفيسا نزعا
قد هوى ظلما فمن عادته … ان ينادى كل من يهوى لعا
من اذا الغيث همى منهمرا … اخجلته كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته … عصفت ريح به فانقشعا
من اذا قيل الخنا صم وان … نطق العافون همسا سمعا
قل لمن يطمع في نائله … قد ازال الياس ذاك الطمعا
راح لا يملك الا دعوة … جبر الله العفاة الضيعا

وفي نفس المعنى يقول :

ارى الدنيا لا تواتي … فاجمل في التصرف والطلاب
ولا يغررك منها حسن برد … له علمان من ذهب الذهاب
فاولها رجاء من سراب … وءاخرها رداء من تراب

وله في نفس المعنى :

اقنع بحظك في دنياك ماكانا … وعز نفسك ان فارقت اوطانا
في الله من كل مفقود مضى عوض … فأشعر القلب سلوانا وايمانا

اكلما سنحت ذكرى طربت لها — مجت دموعك في خديك طوفانا
اما سمعت بسلطان شبيهك قد — بزته سود خطوب الدهر سلطانا
وطن على الكره وارقب اثره فرجا — واستغفر الله تغنم منه غفرانا

ولما امتدت ايام سجنه واشتدت عليه قسوة الكبل وتوالت عليه الهموم واطبقت عليه الشجون ارسل هذه العبرات :

انباء اسرك قد طبقن آفاقا — بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم — حتى اتت شرقها تنعاك اشواقا
فاحرق الفجع اكبادا وافئدة — واغرق الدمع آماقا واحداقا
قد ضاق صدر المعالي اذ نعيت لها — وقيل ان عليك القيد قد ضاقا
اني غلبت وكنت الدهر ذا غلب — للغابين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها — وكان عزمي للاعداء طراقا
متى رايت صروف الدهر تاركة — اذا انبرت لذوى الاخطار أرماقا

وله في هذا المعنى :

من يصحب الدهر لم يعدم تقلبه — والشوك ينبت فيه الورد والآس
يمر حينا وتحلو لي حوادثه — فقلما جرحت الا اتثنت تاسو

ولما ثار ابنه عبد الجبار بناحية مالقة على المرابطين اتخذت الاحتياطات لمنع المعتمد من اى اتصال بالمتمردين وشددت الحراسة عليه ووضع الكبل في رجليه خوفا من فراره وفي ذلك يقول :

قيدى اما تعلمني مسلما — ابيت ان تشفق او ترحما
دمي شراب لك واللحم قد — اكلته لاتهشم الا عظما
يبصرني فيك ابو هاشم — فينثني والقلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبه — لم يخش ان ياتيك مسترحما
وارحم اخيات له مثله — جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد — خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئا فما — يفتح الا للرضاع فما

وقال في نفس المعنى :

تبدلت من عز ظل البنود — بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدى لسانا ذليقا — وغضبا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا اذ هما — يعض بساقي عض الاسود

ومر عليه في مكان اعتقاله سرب من القطى محلقا في الفضاء لا يعوقه عائق فنظر الى كبله الثقيل وقد منعه من كل حركة وانشد متوجعا :

بكيت الى سرب القطى اذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك والله المعيد حسادة ولكن حنينا ان شكلي لها شكل
فاسرح لا شملي صديع ولا الحشا وجيع ولا عينان يبكيها ثكل
هنيئا لها اذ لم يفرق جميعها ولا ذاق منها البعد عن اهلها اهل
واذ لم تبت مثلي تطير قلوبها اذا اهتز باب السجن او صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريني وانما وصفت التى في حيلة الخلق من قبل
لنفسي الى لقيا الحمام تشوق سواي يحب العيش في ساقه كبل
الاعصم الله القطا في فراخها فان فراخي خانها الماء والظل

وقال يخاطب الكبل :

تعطف في ساقي تعطف ارقم يساورها عضا بأنياب ضيغم
اليك فلو كانت قيود أسعرت تضرم منها كل كف ومعصم
مخافة من كان الرجال بسيفه ومن سيفه في جنة او جهنم

ولعله ثورة ابنه عبد الجبار في مالقة ايقظت في نفسه الامل في الخلاص من محنته والتشوف الى استرجاع مجده وعودة الى سلطانه فكان يجد في مثل هذه النفثات متنفسا لالامه واحزانه :

كذا يهلك السيف في جفنه الى هز كفي طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم اعتقلـ ـه ولم تروه من نجيع يمين
كذا يمنع الطرف علك الشكيـ ـم مرتقبا غرة في كمين
كان الفوارس فيه ليوث تراعي فرائسها في عرين
ألا شرف يرحم المشرفي مما به من شمات الوتين
ألا كرم ينعش السمهري ويشفيه من داء دفين
الاحنة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الانين
يؤمل من صدرها ضمنة تبوئه صدر كيف معين

ويتتبع المعتمد اخبار هذه الثورة التي قام بها ابنه عبد الجبار ويخشى مغبتها عليه وعلى نفسه فتتجدد احزانه وتتضاعف همومه ويقول :

غنتك اغماتية الالحان ثقلت على الارواح والابدان
قد كان كالثعبان رمحك في الورى فغدا عليك القيد كالثعبان

متمردا يحميك كل تمرد … متعطفا لارحمة للعاني
قلبي الى الرحمان يشكو بثه … ماخاب من يشكو الى الرحمان
ياسائلا عن شانه ومكانه … ماكان اغنى شانه عن شان
هاتيك قينته وذلك قصره … من بعد اى مقاصر وقيان

وله يعاتب الدهر الغادر :

ابى الدهر أن يقنى الحياء ويندما … وان يمحو الذنب الذى كان قدما
وان يتلقى وجه نخبي وجهه … بعذر يغشى صفحتيه التذ مما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه … الركل صعب من مراقيك سلما
سترجع أن حاولت دونى فتكة … يا خجل من خد المبارز احجما

وله في نفس المعنى :

سلت علي يد الخطوب سيوفها … فجذذن من جلدى الخصيف الامتنا
ضربت بها ايدى الخطوب وانما … ضربت رقاب الاملين بها المنى
يادا ملي العادات من نبحاتنا … كفوا فان الدهر كف اكفنا

وفي ايامه الاخير وكأنه استشف الاقدار بدنو اجله فانشد هذه الابيات الطافحة بالاسى واوصى ان تكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى … لقد ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالمعنى اذا اتصلت … بالخصب ان اجدبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا … بالموت احمر بالضرغامة العادى
بالدهر في نغم بالبحر في نعم … بالبدر في ظلم بالصدر في النادى
نعم هو الحق حاباني به قدر … من السماء فوافاني لميعادى
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه … ان الجبال تهادى فوق اعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم … رواك كل قطوب البرد رعاد
يبكي اخاه الذى غيبت وابله … تحت الصفيح بدمع رائح غادى
حتى يجودك دمع الطل منهمرا … من اعين الزهر لم تبخل باسعادى
ولا تزل صلوات الله دائمة … على دفينك لا تحصى بتعداد

الاعلام والطوائف والاماكن الواردة في شعر المعتمد

اغمات ـ رقم القطع .... 10 ـ 14 ـ 15 ـ 20

ابن عباد .... 2 ـ 38

ابو خالد 11

ابو النصر 11

ابو عمرو 11

أبو هاشم 30

ابن حمديس 20

ابن اللبانة (ابو بكر) 19

ابو العلاء بن زهر 22

الفتح .... 11 ـ 13

الزاهي (قصر) .... 2 ـ 17

اهل فاس 15

بنو ماء السماء 17

جبال درن 8

رنده 12

طنجة 4

قرطبة 12

يزيد .... 11 ـ 13

يوسف بن تاشفين 23

الكتب المؤلفة حول ابن عباد

شعر المعتمد بن عباد ـ كامل الكيلاني ـ مع ديوان ابن زيدون ـ مصر 1932

ديوان المعتمد بن عباد ـ احمد احمد بدوى ـ مصر 1951

شاعر ملك ـ علي الجارم ـ عدد 6 من سلسلة اقرأ ـ مصر 1953
بنوعباد باشبيلية ـ عبد السلام الطود ـ تطوان 1946
المعتمد بن عباد ـ هيلدا شعبان ـ بيروت 1957
المعتمد بن عباد ـ صلاح خالص ـ بغداد 1958
المعتمد بن عباد ـ عبد الوهاب عزام ـ مصر 1059
المعتمد بن عباد حياته وشعره ـ نديم مرعشلي بيروت 1961
المعتمد بن عباد ـ علي ادهم العدد الثاني من اعلام العرب ـ مصر ... 1961

مقالات في المجلات المغربية

يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد ـ عبد الله جنون ـ السلام اكتوبر 1933
المعتمد بن عباد ـ احمد بلافريج ـ السلام ـ ابريل 1934
الاميرة اعتماد الرميكية ـ المختار السوسي ـ مجلة المغرب عدد 38 1936
نكبة المعتمد بن عباد ـ عبد الله جنون ـ ملحق جريدة المغرب ماى 1938
نكبة المعتمد بن عباد ـ محمد الفلوس ـ ملحق جريدة المغرب ماى .. 1938
نكبة المعتمد بن عباد ـ مبارك الميلى ـ ملحق جريدة المغرب يوليوز .. 1938
يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد ـ ادريس التبر رسالة المغرب يناير 1948
أسير اغمات ـ المهد البرجالي ـ دعوة الحق عدد 12 1958

مقالات في المجلات الشرقية

شخصية المعتمد بن عباد ـ فؤاد افرام البستاني ـ المكشوف 139 ـ 1938
محنة بني عباد ـ محمد عبد الله عنان ـ الثقافة 276 ـ الى 281 ـ 1944
شعر المعتمد بن عباد ـ احمد احمد بدوى ـ الرسالة 831 ـ 1949

مراجع عامة

ازهار البساتين في اخبار الاندلس والمغرب على عهد المرابطين والموحدين . تاليف جان وجيروم طارو ترجمة وتعليق احمد بلافريج ومحمد الفاسي الرباط 1930 .

نفح الطيب ـ الطبعة الجديدة في عشر اجزاء الخامس والسادس .

مختارات من الشعر الاندلسي ـ جمعها الدكتور نيكل بيروت 1949 .

الاعلام للسيد عباس بن ابراهيم ـ الجزء الثاني ـ الرباط 1937 .

محمد ابراهيم الكتاني

العثور على الورقات الاخيرة من [البيان المغرب] لابن عذارى المراكشي

بعد الفراغ من طبع المجلد الاخير من [البيان المغرب] لابن عذارى المراكشي الذى تعاونت على تحقيقه مع الزميلين الاستاذين ويسي ميراندا ومحمد بن تاويت التطواني، ونشرته كليه الاداب والعلوم الانسانية بجامعة محمد الخامس بالرباط 1960 ـ 1964 ـ عثرت في نسخ مكتبة القصر الملكي العامر بالرباط ـ التي وصفتها في العدد التاسع من مجلة [تطوان] ص 167 ـ 171 ـ على زيادات بآخر الجزء لا توجد في النسخ التي اعتمدنا عليها في نشر الجزء المذكور، فاحببت نشرها على صفحات تطواننا الغراء، تعميما للفائدة وليتمكن من عنده نسخة من المجلد المطبوع من اضافتها اليه .

وقد قابلت هذه الزيادة على جميع نسخ القصر، وسجلت ما بينها من اتفاق واختلاف، وجعلت ما في بعضها من زيادات بين معقوفين، كما حافظت على ما بها من بياض في موضع بعض الكلمات والجمل ، والله من وراء القصد :

وفي الثامن والعشرين لمحرم ركب الواثق بالله فرسه القرطاسي وقد تاهب الناس للبروز وخرجوا للقائه من الحضرة بالطبول، وتوجه اليه العرب من كل مكان، فلقيهم باحسن القبول، وكسى جمل المصحف بما جرت به العادة من الزينة الزيناء، ورفعت الاعلام الصغار مع جوانب الغشاء المحتوى عليه، وجعلت قلائد من فضة في عنقه، قد اعدت له، والبغل ايضا كسى كذلك وجعل عليه من الزينة مثل ذلك، وتزيا العبيد الذين يخدمون الجمل [والبغل] (1) بالثياب البيض، وغسلت لهم اكمام الاوصال فجبسوها وتقدموا بها امامه، فكانوا في غاية الجمال والاحتفال .

وأولاد الواثق بالله مع حاشيتهم وقرابتهم يتلونه، والوزراء وراءهم في الساقة الكبرى التي فيها الاعلام المسبعة الخلافية، وعلامات قبائل الموحدين على العادة المعتادة، وكذلك سائر العلامات، وترتب المشى على هذا التوجه المذكور.

وكان التوجه الى مراكش حرسها الله تعالى على طريق القبلة، وخرج أهل مراكش لهذا البروز رجالا ونساء ولم يبق بها فارس (2) [ولا راجل الاخرج .

وكان لقاء السيد ابي زيد بالقرابة والطلبة وأهل الخدمة بباب الكحول .

وكان هذا اليوم في هذه الدولة الواثقية من اعظم الايام احتفاء، وأحسنها جمالا، والناس يقبلون بعضهم على بعض، وكل يصافح صنفه ويهنيه بهذا القدوم السعيد، والاياب الحميد .

ولما دخل الواثق بالله مدينة مراكش قصد الى الجامع تيمنا به، وشكر الله تعالى على جميل مواهبه، وتجدد له الدعاء بذلك، وركب من باب الجامع الى باب رياض الحزب ووقف هناك فهناه الحاضرون، ولثموا يمناه، ودخل الى قصره وقد قرت عيناه، بما كان يتمناه .

وكملت هذه الحركة السوسية، التي كانت أثر حركته الهسكورية، ولم يكن فيهما معا من كبير معنى يذكر، وان كان فضله لاينكر ! غير بعض التسكين والتهدين، والقبض على الشقي ابن حمدين .

واما ابن جلداسن مسعود فامتنع في جبله، ونقض العهود وقطع المواصلة، وما كان تقدم له من المجاملة ، وذكر عنه انه قال في جملة كلامه، وسبب مقاطعته وملامه : «كما نقض الواثق لملك المغرب عهده، ولم ينجز له

وعـده، فكيف انا الذى قد رآني عبده ؟ وكان في ذلك ـ على ما قيل ـ كـلام له في هـذا المعنى طويل، أضربت عنه خيفة التطويـل

وقيل : ان الواثق بالله كان بينه وبين المقام اليوسفي عهود مـؤكدة، وايمان مرددة، فلـم يف له الابالبعض، وءاثـر على الابرام والنقض (3) فكـانت بينهما انكـاد، ودار بينهـا حـرب وجلاد، على مايأتي :

ولبعض الطلبة في الواثق بالله اثـر حركته جملة اشعار بالتهنئـة على تلك الحركـة رفعوها اليه، فقرئت بجملتها عليـه، فاحسن اليهـم، وأنعـم عليهـم، ورفـع له بعض خدامه وهو بالسوس أبياتا وهي :

قـالت لنـا الايـام بعـد صموتهـا	مـن ذا الذى يرضى العـلا والمنهلا ؟
يحمـي الـورى ويـذود عن حرماته	يروى سيوف الهند من برى الطلا ؟
من همـه قـرع العـدا وصلاح مـا	قد كـان عـن نهج السداد تحـولا ؟
مـن لا يـرى يصبو الى دنيـا ومـا	يـرنـو لزهرتهـا اذا مـا تجتـلا ؟
قلنـا لهـا : ذاك الامـام الـواثـق	الهادى أمير المـومنـين ابو العلا !

ولـما استقر الواثـق بالله بحضرته المـراكشية، بعد حركته السوسيـة، بلغـه الخبـر أن ابـا يوسف توجه بعساكـره لمحـاربة ايغمـراسان، فبقـي رسوله بمراكش حتى عـاد ابو يوسف الى مدينة فـاس، وبعث الواثـق هدية حفيلة الى أمير تلمسان يغمراسان بن زيان، فتوجه الفقيه ابو الحسن بن قطرال ببعضها في البـر، وتوجه ابو عبد الله البكرى بأثقالها في البحـر : دخـل من اسفي وخرج في هنين، واخذ ابـو الحسن بن قطرال على طريـق سجلماسة مـع رسول يغمراسان، وهو ابن ابي عثمان، مـع ابن أبي مـديون الونجاسني، فـوصل الى سجلماسة فوجدوا بها عثمان بن يغمراسان، فبعثهـم مـع بعض اشياخ المعقـل، فوصلوهم الى تلمسان، فوجدوا بها ابا عامـر بن يغمراسان، وأبوه قد توجه الى جهة مليانة وغيرها، وبها وصله رقاص ابن قطرال بكتب أبي دبوس وبما وصله من عنده من هدية [فوصله جوابه لابيه يـامـره] (4) باجراء كرامـة ابي الحسن [وضيافته حتى تنقضي حـركته من تلك البـلاد الشرقية ويعود الى البلاد] (4) الغربية ليشغل بني مرين عن التوجه لجهة البلاد المراكشية، فبقي ابو الحسن بن قطرال تحت كرامة يغمرسان مدة من عام كامل واشهر، يعده وعدا بعد وعد ! وهو مع ذلك ييسر له خيولا وغـير ذلك بـرسم الهديـة لابي دبـوس .

وبنو مرين في أثناء ذلك قد توجهوا لحصار مراكش وحفوا بها، فخرج اليهم الواثق بالله بجيوشه فكانت محاربات ومقاتلات وموقفات (5) اجلت عن هزيمة الواثق بالله وقتله !

فبلغهم بتلمسان انه قد مات مقتولا، وتفرقت جيوشه وعساكره، وانقرضت دولته، وانقطعت أوامره، فرجع أبو الحسن بن قطرال على طريق سجلماسة، ومات في جهة بلاد درعة رحمه الله تعالى .

ولما ظهر للفقيه القاضي ابي اسحاق بن القشاش أختلال الامور والاحوال، وكثرت فيه وفي غيره من بعض الناس الاقوال، رفع هذا الرفع للواثق بالله، فوقع له التوقيع بما اكتبه بعد ان شاء الله تعالى، نقلته من خط ولده ابي عبد الله، والتوقيع عليه بخط ابي دبوس، وهو : «رضي الله تعالى عن المقام الامامي الواثقي المعتمدي المؤيد المظفر الاسعد المبارك، وأطال للمسلمين أيامه، ونصر الويته الكريمة واعلامه، عبد نعمته، ومملوك منته، ابراهيم بن أحمد الاوسي، يسلم على المقام الامامي ايده الله تعالى، ويقبل اليدين المباركتين، ويهنى العبد مولاه أعز الله مقامه، بما سناه له من البشائر المتناسقة، والفتوح المتلاحقة، والحمد لله، وهو سبحانه المسئول ان يشفع هذا الصنيع الجميل بامثاله، ويوزع العامة الشكر على انعامه بذلك وافضاله، ويعرف العبد مولاه، انه لم يزل محبا في هذه الدولة السعيدة من اول بدئها، الى حين كما لها وانتهائها راغبا الى الله تعالى في تتميم أمرها، وموالاة نصرها، فله الحمد سبحانه على أن رحم المسلمين بدولته السعيدة، وامتن عليهم بايامه الصالحة السديدة .

وان المقام الامامي الواثقي صدر عنه في اول الفتح المبارك من تقديم العبد للنظر في الخطة الشرعية ، والاعتناء بمصالح الدين، ما تكفل به الله تعالى لمقامه المؤيد (6) الاجر وجزيل الذخر، فشكر العبد الله تعالى والمقام الكريم على هذه الالتفاتة الكريمة، وشرع في النظر في هذه الخطة بعدان اتته عفوا دون أن يتقدم له فيها رغبة، ولا طلب، واستخار العبد الله وتوكل عليه، [واستمر ما قلد لايالو] (7) المسلمين نصحا واجتهادا بمبلغ قدرته، الى ان بلغت العبد عن بعض [الذين كانوا] (7) في المدد السالفة خاملين مهتضمين، أمور وأقاويل غيرت نفس العبد وكدرت خاطره، [فتحمل العبد] (7) ما بلغه عنهم وطواه، ولم يلتفت اليه، فلم يزالوا بعد هذا مستمرين على عادتهم طاعنين [في الخطة] (7) متعرضين بالاقاويل، حتى ضاق بهم ذرع العبد، وصاروا بحيث يتفقهون في الاحكام والنوازل، وينظرون

في العقود التي بها تقطـع الحقوق في مجالس الخصام، ويقدحون فيها، فوجب على العبـد انهـاء هـذا كلـه الى المقـام الامـامى أيـده الله ونصره .

والرغبة الى الله تعالى واليه في أن يكف هؤلاء القوم، ويدفع ضرر السنتهم، حتى يعلم جميعهم أن للخطة من يقيم رونقها، ويعضد المشتغل بهـا، او الانعام على العبد بصرفه عنها، وتاخيره [واعفائه منهـا] (7) ففـي ذلك لعلـل العبـد وأدوائه اكبـر شفاء اذ فيما تكلموا بـه امـر كبـير، وخطب شنيـع، [ولـو صدر شيء مـن هـذا ياسيدنا عمن له تخصص بالفقـه أو ادنى ملابسـة] (7) للعلم، لسكت العبد عنه واحتسبه لله تعالى [ولكن حرك العبد ان ذلك صدر عن قـوم جهلـة (8) احـداث لم يشموا قط (7) رائحة للعلم، فكيف ان يتعرضوا [لـلاحكـام] (7) ؟ التي هي ثمـرة الفقـه .

وقـد بلغ العبد من سنه نيفـا وثمانين سنة، والرغبة من المقام الواثقـي يامر العبـد باحد شيئين : اما بصرفه واراحته بالاعفاء، واما بنصره وشد ازره .

وفي كريـم علـم (9) الكريم ان الخليفة بوجوده يكـون نظـام العالم، والقاضي نائب عنه في أهم أموره، فان لم يكن منه (10) وتطلع لاموره، تعرض اليه من لاخلاق له بمثل ما تعرض للعبد .

ولـمولانا رضي الله عنه الفضل الاتـم في النظر فيما شرح له عبده، وقطع هـذه العلـل، وحسم هـذه الادواء، بما يقتضيه نظره المبارك العلي ايده الله .

والعبد منتظر لتوقيع كريـم بما يعتمد عليه بحول الله تعالى، وهو سبحانه يـديـم عـلاه، وينصر لواءه، والسلام الاتم المبارك العميـم، يخص المقام الكريم، ورحمة الله وبركـاته .

فوقـع له بهـذا التوقيع : هـذه جـراة كبـيرة علينا، واحتقـار مفـرط لجانبنا، والكـلام في هـذه الخطـة وفيمن اختـير لها ليس بهـين، ولا يقع فيه الا مختـل العقـل، غـالط في نفسه وفينا، جاهل قـدره، متعـد طـوره !

والخطـة اكبر مـن ان يسلك فيها أولـوا العلم والعقـل هـذا المسلك الصعب، فكيف بمن سواهم ؟ فيبحث عن المتكلم بهـذا ويعـرف بهم، فننظر في قضيتهم بما يظهر لنا ان شاء الله تعالى .

ولما قتل أبو دبوس ـ كما تقدم ـ تفرقت اجناده،فلم يصل احد من الموحدين ولا من رجالهم الى مدينة مراكش الا من وصل اليها منهم (11) وذلك، فلمـا وصـل الى مـراكش بعض اشياخ المـوحديـن، ومـن وجـد السبيـل

للوصول اليها من المتجندين، قدمـوا أمـيرا على أنفسهم أبا محمد عبد الواحد، ابن اميرهم ابي دبوس، وسموه المعتصم بالله، وقرعوا الطبول على مبايعته مدة مـن خمسة أيـام، وذلك اشغـالا للناس بخـلال ما يدبـرون لانفسهم فـي النجـاة بـرؤسهـم !

وكـان مقتـل ابـي دبـوس يـوم الاحـد الثـانـي لمحرم مفتتح عـام ثمـانيـة وستـين وستمائـة .

ووجـه [أمـير المسلمين ابـو] (12) يوسف وزيره أبـا زكـرياء بن حازم مـع بعض الفرسان ليتشوف اخبار اهل مراكش] (13) .

بـوادي تانسيف بيعتهم للسلطان المـؤيد ابي يوسف، بعثها له قاضيهم (14) ولده أبـا عبد الله، وصهره تمام، وابى عمر حجاج، واخبروا لابـي زكـرياء بـن حازم (15) ابي دبوس الى جبالهم باولادهـم وعيالهم، وبعض خيلهم ورجالهـم .

وخرج الناس (16) المنصور أبي يوسف فدخلها في يوم عاشوراء العـاشر لمحـرم من سنة ثمان [وستين المـؤرخة المذكورة] (17) .

وانقضت دولة بني عبد المومن ودرست (18) منارها، فسبحان مـن لا يبيـد ملكـه، ولا يفني دوامـه .

(19) [انشد (20)] في منامه هذين البيتين فورخ ذلك اليـوم [فكان يوم مقتل ابي دبـوس الواثـق] :

مـلـك بـنـي مـومـن تـولـى وكـان عـنـد السمـاك سمكـه
فـاعتبـروا وانظـروا وقـولـوا : سبحـان مـن لا يبيـد ملكـه !

انتهى ما وجد من السفر الاخير من البيان المغـرب، في اختصار أخبار ملوك الانـدلس والمغـرب لابي العبـاس احمد بن محمد بـن عـذارى رحمـه الله، بحمد الله حمدا كثيرا، وصلى الله على نبيه المبعوث بشيرا ونذيـرا

التعاليق

(1) زيادة من 336م و 2150م

(2) هنا تنتهي النسخة المطبوعة، وما يلي كله من نسخ مكتبة القصر الملكي بالرباط .

(3) كذا في جميع النسخ، وواضح أن الواو لا معنى لها هنا .

(4) ما بين معقوفين في الموضعين انفردت به النسخة رقم 334م ومكانه بياض في النسخ الاربع الاخرى .

(5) كذا !

(6) بياض في جميع النسخ مقدار كلمة . .

(7) جميع ما بين معقوفين في المواضع الثمانية التي تحمل رقم (7) كله مما انفردت به النسخة رقم 334م وكله بياض في النسخ الاربع الاخرى .

(8) بياض مقدار كلمة .

(9) بياض مقدار كلمة او كلمتين .

(10) بياض مقدار كلمة أو كلمتين .

(11) بياض مقدار كلمتين .

(12) ما بين معقوفين من رقمي 334م و 777م ومحله بياض في النسخ 3 الاخرى.

(13) بياض مقدار أربع أو خمس كلمات في جميع النسخ .

(14) بياض مقدار أربع أو خمس كلمات في جميع النسخ .

(15) بياض مقدار ثلاث كلمات في جميع النسخ.

(16) بياض مقدار خمس أو ست كلمات .

(17) ما بين معقوفين من رقم 334م .

(18) بياض مقدار اربع أو خمس كلمات .

(19) بياض مقدار كلمتين أو ثلاث .

(20) ما بين معقوفين من رقم 334م والبيتان فيها في الطرة (الهامش) .

فهرس الورقات الاخيرة من [البيان المغرب]

ص

دخول أبي زيد الى مراكش عائدا من سوس 238
نقض ابن جلداسين العهد وامتناعه في جبله 238
عدم وفاء الواثق ببعض ما كان بينه وبين المقام اليوسفي من عهود 239
أبيات في تهنئة الواثق بالله بحركته لسوس 239
ارسال الواثق بالله هدية حفيلة الى يغمراسن مع أبي الحسن بن قطرال وابي عبد الله البكري 239
توجه بني مرين لحصار مراكش ومقاتلة الواثق لهم وقتله 240
عودة ابن قطرال بعد ما قضى أكثر من عام بتلمسان وموته بجهة درعة 240
رسالة الفقيه القاضي أبي اسحاق ابراهيم بن احمد الاوسي المعروف بابن القشاش الى الواثق في شان افتيات بعض الناس عليه، وطلبه شد أزره أو اعفاءه من منصبه 240
توقيع ابي دبوس عليها بالبحث عن المتهمين لاتخاذ ما يلزم في شأنهم 241
تفرق اجناد ابي دبوس 241
تقديم بعض الموحدين بمراكش ابا محمد عبد الواحد بن أبي دبوس اميرا عليهم وتسميته بالمعتصم بالله مدة من خمسة أيام 241
تاريخ قتل ابن دبوس ثاني محرم 668 242
دخول أبي يوسف الى مراكش يوم عاشوراء 668 242
انشاد بيتين في المنام في موضوع انتهاء دولة الموحدين 242
التعاليق 243
الفهرس 244

محمد بن تاويت

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس

هو كتاب صدر حديثا لمؤلفه الاستاذ الكبير السيد محمد عبد الله عنان، واذا ما ذكر الاستاذ عنان، فاننا سرعان ما نتذكر بحوث هذا الاستاذ العظيم، ودراسته الاندلسية، التي تربو على ربع قرن من الزمان، وهي لما تزل تتمتع بجدتها وطرافتها، وحيويتها ونشاطها، شأن صاحبها حفظه الله ومتعنا بنتاج نشاطه .

نعم ان قراء العرب من عرب ومستعربين مديونون للاستاذ عنان في دراساته، ومقرون بهذا الدين في رسائلهم ونشراتهم الحافلة، معتزين بهذا وشاكرين لصاحبه بيض أياديه . ويكاد يكون وحده ـ من بين الشرقيين ـ يتمتع بهذه المنقبة، وهو في تمتعه هذا جدير بها، لأنه أفنى فيها عشرات السنين، ولانه تجرد لها في قوة وعزم ومثابرة ومصابرة، فما وهن ولاكل، شأن الخلص من أفذاذ العلماء .

لقد قسم أستاذنا كتابه الى قسمين، جعل القسم الاول منه، في عصر المرابطين وبداية الموحدين، والقسم الثاني منه في عصر الموحدين وانهيار الاندلس الكبرى .

ولننظر الى القسم الاول فنجد الاندلس فيه قد أخذ نصيبه الاوفى، وان كان المغرب لم يغمط حقه، الا أنه ما زال يطلب المزيد من فضل الاستاذ الذى غمر به الاندلس، ودرسه من جميع افاقه وأنحائه، في ملوكه وأمرائه، في زعمائه وقسسه، وما كان لهؤلاء وأولئك من مواقف ومؤامرات ومغامرات، قد تجنح في بعض أحايينها الى معترك الغرام والهيام

والى جانب ذلك، فقد زوده بتعاليق لها أهميتها الخاصة، ثم ختمه بوثائق كان أول من انفرد بنشرها ولا تقل أهمية من تلك التعاليق ان لم تزد عليها .

وقف الاستاذ في ذكره لمصادر الكتاب، وقفة الحائر في شخصية ابن القطان صاحب نظم الجمان، وأخيرا استشف أن يكون ابنا للمترجم في الذيل والتكملة لابن عبد الملك، والواقع أنه وفق فيما جعله في حيز، التمريض «ربما»، فهو بعتيه هو كما يفهم من ترجمة والده في الذيل والتكملة السالف .

ويلاحظ على المؤلف الفاضل ما ياتي :

أنه في صفحة 115 استظهر أن يكون بناء أسوار مراكش الذى أفتى به ابن رشد سنة 520 لا سنة 522 أو سنة 526، لان ابن رشد توفي سنة 520 ونرى ألا تلازم في هذا، فقد تكون الفتوى تأخر العمل بها أو انجازه، وأنه في صفحة 160 قرن الى الطعن في نسب ابن تومرت الحسني الطعن في نسب بني حمود، مع أن هؤلاء شهرت نسبتهم الادريسية، ولا يبقى الا الطعن في الاصل وهو ما قال به أعداؤهم من العباسيين ، ودحضه ابن خلدون في مقدمته، بخلاف نسب ابن تومرت الحسني، فجانب الانتحال فيه أقوى من غيره . وفي صفحة 162 يقول ان قرار المرابطين بحرق كتاب الاحياء قد صدر سنة 103 قبل وفاة الغزالي بنحو عام والواقع انه كان قبل وفاته بنحو عامين أثنين .

ويذكر في صفحات 176، 199 أن ابن تومرت كان يداهم الاجتهاد والواقع انه كان يداهم «القياس» لا الاجتهاد الذى رفع مناره وشيد الخلفاء بعده أركانه .

وفي صفحة 242 يذكر أن علي بن يوسف أول من استعمل النصارى مع انه يذكر في صفحة 418 أن يوسف استعمهم .

وفي صفحة 274، يقول :

«ثم سار (اى عبد المومن) الى أرض بني ورياغل، فيما بين سلا ومكناسة، فتحديد هذه الارض بما بين مكناسة وسلا، غريب علينا، فان كان الاستاذ نقل هذا عن أخبار ابن تومرت، كما يبدو، فتكون النتيجة أن بني ورياغل انتقلوا الى الريف فيما بعد .

وفي صفحة 318 يعلل زعامة القضاة في الاندلس، بما كان يتمتع به هؤلاء في ظل الدولة اللمتونية، والواقع أن زعامة رجال الدين في الاندلس لم تكن قاصرة على العهد اللمتوني، بل وجدناها

مبكرة في العهد الاموى، كما في موقعة الربض، بل ان زعامة رجال الدين، كانت في الاندلس معروفة بين المسيحيين أيضا، كما نجد لذلك أمثلة في أواخر هذا الجزء، فهذه الظاهرة تبدو بها اسبانيا حتى في وقتنا الحاضر وفي صفحة 427 يقول : ومما هو جدير بالذكر أنه فيما عدا أمثلة قليلة يندر أن نجد في الادب الاندلسي من نظم أو نثر خلال العهد المرابط وهذه قضية يقول بها دوزى، ولكن الواقع على خلافها، فالشاعر ابن خفاجة نظم ونثر في هذا العهد، وابن بسام ترك لنا ذخيرة من النثر والنظم كذلك حينما الف كتابه في هذا العهد، والفتح ابن خاقان، شدما نثر ونظم كذلك فيه، وسجل لنا في القلائد والمطمح كثيرا منها وفي الاعلام لابن الخطيب وغيره أمثلة عديدة، مما يجعل ذلك كثيرا لا قليلا . والمؤلف نفسه يؤيد هذا في صفحة 438 وما بعدها وان كان في صفحة 459 يعقب على بيتين مدح بهما المرابطون، فيقول : «وهذا المديح للمرابطين من الامور النادرة» فنرد عليه بما ذكرناه وبما ورد فيما بعد في صفحة 471 من رثاء ابن باجة لابي بكر المسوفي، وبما ذكره ابن الخطيب في هذا الامير بالذات، حينما تعرض له في الاحاطة، فذكر لهذا الفيلسوف أمداحا ومراثي فيه، من بينها نونية ساق منها أربعة أبيات

ويعود المؤلف في صفحة 474 فيقول، لما انتهى من ذكر عدة رجال اشتهروا في عالم الفكر والثقافة ان هذا الثبت الحافل من المفكرين والعلماء الأندلسيين، الذين ازدهروا في العصر المرابطي، في مختلف ميادين العلوم والآداب، ومنهم عبقريات بارزة يزدان بها تاريخ الحركة العقلية الاندلسية، يحمل على كثير من التأمل، وانه ليغدو من الصعب علينا، اذا ما استعرضناه في شيء من الروية، أن نقول ان الحكم المرابطي، قد جنى بأساليبه الرجعية على سير الحركة الفكرية الاندلسية، وعاقها عن التقدم والازدهار، وكل ما يمكن أن يقال في ذلك هو أن ما اتخذه المرابطون من اجراءات للحجر على الدراسات الكلامية والشرعية والفلسفية، وتوجيهها الى وجهاتهم الخاصة ومطاردة كتب الاصول، قد يكون له أثره في سير هذه الدراسات، وان كنا لا يحق لنا أن نبالغ في تقدير هذا الاثر

أنكون بعد هذا على حق حينما نصف ثورة القواعد الاندلسية على المرابطين بأنها كانت للتخلص من نيرهم ؟ فأى نير كان الا أن تكون المواقف الجدية أمام أمة خاضعة لمن كان يركب أكتافها ويكبت أنفاسها في غير شفقة ولا رحمة، من أعداء دينها وملتها ؟

وأخيرا ننبه على هـذه الاغلاط التي وقعت في هذا الجزء، فقد ورد في 59 ان علي بـن يوسف دخل «فـاس» في الثاني من ربيـع الآخر سنة 501 ثـم أزمـع الجواز الى الاندلس فعبر البحـر في منتصف سنة 500 (أوائل سنة 1107) اذن فتاريخ الدخـول الى فـاس غلط وهـو مـا يفصـح بـه روض القـرطـاس .

وفي صفحة 134، هذه العبارة، وسيق رأسه وطيف بها ثم حملت فطيف بها (بدل وطيف به ثم حمل فطيف به) ومثل هذا سيرد كثـيرا في القسم الثـاني، في عدة صفحات تبتدى بـ 259 وتنتهي بـ 508 .

وفي صفحـة 487، ورد قـولـه كـرامـة المـرأة المصـون (بـدل المصونة)

وفي صفحة 493 قوله : وكذلك فقـد كـانت وفـاة الفونسو مثارا لاحداث (ولا محـل لفقد هنـا) وستتكرر هذه العبارة في صفحة 22 من القسم الثاني .

وفي صفحة 507 قوله : فاحتز رأسه وقطعت ذراعه اليمنى ورجله اليمنى وارسلتا الى قرطبة، لتعرضا على ارملتـي الواليـين، ثـم أرسلت بعد ذلك فنجـد حرجـا في (وارسلتا، لتعـرضـا ،،) مـن جراء ما قبل وما بعد . والأسلم لـو استغني عنه كما في تـرجمة المـؤلف لتاريخ الاندلس لاشباخ (184) ففيـه ففصل رأسه وذراعـه اليمنى عن جسده، وأرسلت الى قرطبة

كما ننبه على تصحيف وارد في الوثائق الملحقـة، ففـي صفحة 535 جـاء ونتتاحفـو، ونتكاشفوا، ونصرحـوا، وهـو استعمـال عامـي عندنـا بـدل (نتتاحف، ونتكـاشف، ونصرح)

وفي صفحـة 546، وردت العبارة، وصيروكم عبيد العصى ولستم بالاكثرين منهم حصى وصوابهـا «وليسوا بالاكثيريـن منكم»

بعد هذا ننتقل الى القسم الثاني من الكتاب، فنجـده أضخم مـن الأول، اذ يقع في نحو ثمان مائة صفحة، بما في ذلك الفهارس، وهـو كسابقـه سفـر حافـل بالدراسات التفصيلية الجامعة، ويختلف عن سابقة في جانب أنـه قـد نال المغرب فيه حقـه كالاندلس على السواء، ولعل ذلك راجع الى توفر المراجع فيـه، أعني المراجـع المغربيـة أو التي اهتمت بالمغرب كما اهتمت بالانـدلس، بخـلاف العصر المرابطي، فان جانبه الاندلسي يتوفر على مراجعـه الاندلسية بالخصوص، تلك المراجـع التي تناولتـه في معظمها بمـا حلى لها مـن تعصب

او ضغينة، أما الجانب المغربي، فقليل المراجع والمصادر، لان المغاربة انفسهم لم يكونوا قد بدأو بتسجيل تاريخهم، كما فعل الاندلسيون زيادة على كون الذين خلفوهم عملوا على طمس معالمهم، التي استطاعوها في المغرب، ولم يستطيعوها في الاندلس، أو تركوها لما فيها من تحامل عليهم .

وعلى كل حال، فان المؤلف على العموم اتبع المنهج الذى سار عليه في القسم الاول، وذيل هذا بما ذيل ذاك، من دراسة في نظم الدولة، وتناول الحركة الفكرية فيها، والترجمة لبعض أعلامها، ثم نشر بعض الوثائق الهامة

ويلاحظ على هذا القسم ما يلي :

أنه ذكر في الصفحة 20 ـ 21 أن يوسف الموحدى اتخذ علامة (الحمد لله وحده) فصدرت بذلك لاول مرة، رسالة بتاريخ ثالث رمضان من عام 561، والمعروف أن هذه العلامة سبقت هذا التاريخ، اذ ان حفصة الركونية كانت قد خاطبت عبد المومن بالابيات :

يا سيد الناس يامن	يؤمل الناس رفده
امنن علي بصك	يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه	والحمد لله وحده

وقد اعتمد في ذلك على ابن صاحب الصلاه، وان كان هذا نفسه، ذكر رسالة لعبد المومن بهذا الحمد، كما نجد في الجزء المطبوع من المن ص 131 .

وأنه في صفحة 105 استنتج من قول الخليفة لابن وانودين في خطابه «وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى» أنه غص بانتصاراته المتوالية، ولا نرى في هذا ما رآه استاذنا، ان حملت الآية على محملها الاول، لما خوطب بها الرسول عليه السلام .

صفحة 115 يستشهد بأن الخليفة يوسف لما جمع شيوخ الموحدين والعرب عند خروجه من مراكش في حملته فاستشارهم، على أنه لم يكن لديه رأى حاسم في شأن الغزوة التي ينوى القيام بها،،، ونحن لا نرى ذلك منه الا استيناسا لرجاله، والا فبعيد كل البعد أن يحتفل الخليفة لذلك الجيش الهائل، ولا يكون له قصد حاسم في توجيهه، وقد عهدنا من المنصور هذا، وهو الذى باشر آنذاك هذه الاستشارة .

وفي صفحة 149 جعل سليمان بن عبد الله بن بن عبد المومن، ابن عبد المومن مباشرة، فجعله عم يعقوب، منبهما عليه الأمر بآخر، ذكره في الصفحات، 166 ، 167 ، وكان هذا ابن عبد المومن حقا، الا أنه عاد في صفحة 271 الى ذكره بابي الربيع بن عبد الله بن عبد المومن فارتفع بذلك الاشكال، خصوصا أنه ذكره بوالي بجاية الذي قام بتجديدها عقب الحريق، كما أشار الى ذلك ابن خلدون .

وفي صفحة 129، يقول ان المنصور امر بتجديد قصبة الرباط، وان هذه المدينة التي أسسها عبد المومن كانت تسمى المهدية، اذ كانت بخططها وموقعها على البحر، واحاطته بها، تشبه المهدية الفاطمية بافريقية، أفلا يكون نسبة للمهدى بن تاومرت .

وفي صفحة 289 ـ 290، يقف من قضية سفارة جون ملك انجلترا على الناصر موقف الشاك فيها، مع أنها معروفة في التاريخ الانجليزى بتفاصيلها واعيان سفرائها، وقد نشرنا في العدد الخامس من هذه المجلة، بحثا ممتعا في ذلك للمستشرق نبل بربر .

ونرى المؤلف في موقعة الارك، اهتم بتحديد المكان، أكثر من اهتمامه بالموقعة، التي أوجز فيها كثيرا، مع أنها ذات أهمية .

وفي صفحة 295 وردت هذه العبارة «مثلما كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد في سبيل الله على المعارك التي يخوضونها ضد النصارى» فهذه العبارة لا نريدها صادرة عن مسلم، فبالاحرى عن الاستاذ عنان المتحلى في بحوثه بالنخوة الاسلامية .

وفي صفحة 270 ورد قوله «وقطع النداء بالبربرية مثل أصبح ولله الحمد» وتكررت هذه العبارة في الكتاب ولا شك أن فيها قلقا، فعبارة أصبح ولله الحمد، قطعت لانها كانت من بدع ابن تومرت، لا لأنها كانت بالبربرية، فذلك أمر آخر عام فيها وغيرها .

وفي صفحة 287، تعرض لاشبيلية وذكر أن المسلمين حكموها منذ افتتحها موسى بن نصير، خمسة قرون وثلث قرن، وحكمها الموحدون زهاء قرن ـ وسكت عن المرابطين ـ ولا ندرى لماذا ؟

وفي صفحة 524 ذكر أن ابن عذارى في البيان، أورد نص بيعة أهل مكناس للحفصي باكمله، مع أن الوارد منها فيه ناقص

وفي صفحة 560 يعلق على بعض الافراد الذين اعتنقوا المسيحية من الموحدين وهم لا يتعدون ثلاثة، فيقول «ولا ريب أن في هذه الصفحة المؤلمة ما يصدع من هيبة الخلافة الموحدية، ومن عظمة تاريخها» والواقع أنها صفحة مؤلمة ولا شك، ولكنها مع هذا لا تأثير لها بالمرة، على هيبة الخلافة الموحدين وعظمة تاريخها، لانها أعمال أفراد قلائل، مهما كانت لهم من مكانة في الدولة، أو قرابة للخلافة نفسها .

وفي الصفحات 645 و 711 وما بعدها، يصف الدولة المرابطية بأنها كانت تتجاهل الحركة الفكرية، وأنها كانت دولة رجعية، تطارد العلوم والفلسفة، وهي صفات تحامل بها على المرابطين بعض المستشرقين، ولكنها خلاف الواقع، كما رأينا من المؤلف نفسه في القسم الاول، وان كان يبدو على ذلك بعض التردد، حاول المؤلف أن يتخلص منه في الصفحة 645 السالفة .

كما نبهنا على بعض الاغلاط التي وقعت في القسم الاول ننبه كذلك على بعضها في هذا القسم، فقد وردت التثنيات والجموع السالمة، على غير معهودها من العربية، كما وردت بعض الممنوعات من الصرف مصروفة، نحو أحدبا ويعقوبا .

وفي صفحة 78 يصحح ما ورد في التاريخ من ذكر يونيه بانه يوليه، خلافا لابن صاحب الصلاة، والواقع أنه لا خلاف، لانه يعتبر التقويم الجريجرى، لا التقويم الجديد، وهو ما لم يزل معروفا عند الفلاحين بالخصوص، وفي منظومة المقتنع لابى مقرع، وكانت أوربا حتى القرن السادس عشر تستعمله، فاذا استعملت الجديد نصت عليه بالعبارة (استيلونوفو) .

وفي صفحة 101 وردت العبارة وعلى مقربة من المكان رسا فيه الاسطول الموحدى «فسقطت (الذى) بعد (المكان) بدليل ما بعده وهو» فأمر بتخصيص بعض الاسرى لافتداء غانم بن مردنيس، كما يفهم من القصة قبل .

وفي صفحة 132 استعمل كلمة البوغاز، وهو استعمال ساد في الشرق والغرب، على أنه عربي، والواقع أن الكلمة تركية بمعنى الحلقوم والحنجرة أولا ثم بمعنى المضيق، الذى قلما يستعمله كتابنا، وهو الصحيح، خصوصا في عصر التعريب .

وفي النصوص الشعرية بالخصوص بعض التصحيف، أو جور بعض المصاريع على بعضها البعض، كما في الصفحات 39، و 320، و 482، و 689، و 690،

وغيرها، أما النصوص النثرية، فقليلة التصحيف، الا ماكان من ظهير الرشيد، الذي كتبه ابن عميرة .

وفي صفحة 580، وردت عبارة (تترى اليه الوفود من كل فج) بدل تنسل اليه مثلا، وهو استعمال عمت به البلوى في القديم والحديث، معتبرة كلمة تترى فعلا مضارعا، مع أنها اسم، والتاء الاولى منقلبة عن واو، فهي في أصلها (وترى) حال غالبا مما قبلها .

هذه أغلاط طفيفة بالنسبة الى كتاب بتلك الضخامة، ونادرا ما يخلو من مثل هذه الاغلاط كتاب عربي في عصرنا، في مشرقنا ومغربنا على السواء .

ايليـا أبـو مـاضـي

دراسات قيمة، وافـانا بها صديقنا وزميلنا، الاستاذ جعفر الطيار الكتاني، وهي في الـواقع من بواكـير الدراسات الجامعة، التي نرجو لهـا أن تعمـم فيما نستقبله مـن دراساتنـا، وقـد وصفهـا صاحبها عن ايمـان وصدق بـأنها استفادت تقريبا مـن كـل ما أخرجته المطبعة العـربيـة عـن هـذا الشاعـر الكبـير، ولكـن كاتبها لـه رأى في أبي ماضي مـن شعـره، قبل أن يتاح لـه الاطـلاع على ما كتبـه الاخـرون عن صاحب هـذا الشعـر، وهـو رأى يمكن القـول بـأنـه جـديـد .

نعـم، ان هـذا الاطلاع يتجلى واضحا في مناقشة الاراء، نقـاشا نـزيهـا مـزودا بافكـار أخـذت حقها الكامل من الاختمـار، كمـا أن الذاتية وعـدم التبعية، واضحة كل الوضوح في ذلك التناول الفاحص، الذى يعتمد على جواهر الاشياء فيحكم عليها أولها، بما مكنته تلك الجواهر، بعد الفحص في أناة ودؤوب

والكتاب مقسم الى أربعة أقسـام، الاول في حياة الشاعر من شعـره، منذ الحـداثـة الى انضمامـه الى جماعـة الرابطة القلميـة سنة 1921، والثاني في ثقافته مـن شعـره، والثالث في شخصيته من شعـره . وهـذا في نظرى أهم أقسام الكتاب، ويليه القسم الرابـع في فنيته من شعـره،

ويبقى علينـا أن نبدى الملاحظـات الجـزئيـة على الكتـاب وصاحبـه، لقـد استعمل الكـاتب في بحثـه تعبـيرات مصرية، مثل لقمـة العيش، وهـو الاخـر، وبالتالي وتدغـدغ، ولسبب او لاخـر .

ويستغرب من المؤلف، أن تصدر عنـه هـذه العبـارة لا تسمن ولا تغني مـن جوع (كما يقولون)، قال عنه سقراط ... وقـال عنه القرءان، فلمـاذا لم يقـل فلسفـة سقـراط .. والقـرءان، أو سقـراط .. والله ؟ وننبـه الى أن قصيدة العنقـاء سبق بها اليـا، بنحو ثمانيـة قـرون، فالصوفي، فـريد الدين العطار، مـن رجال القـرن السادس، تدور قصتـه الـرموزية «منطق الطـير» على البحث عـن سيمـرغ العنقـاء، ويـريـد بـه الا لـه الحـق، ولـو كنت مكان صديقي، لصرفني عن هذا الشاعـر، قصيدتـه الصليبيـة التـي يتشفى فيها مـن الاسلام بقولـه :

وقـد انجلت فاذا الهلال منكس علـم طـوته رايـة الصلبـان

يقول في صفحة 8 عن أبي ماضي : ولد في أحضان الطبيعة، صبيا، طلق المحيا، وسيم الطلعة، يلعب بالحبل .. الا نجد في كلام صديقنا، قفزة في كلامه، الى «يلعب بالحبل»، فهذه الجملة الحالية، متأخرة جدا عن الاحوال التي سبقتها .

ويقول في صفحة 18 : جعل تاريخ هجرة الشاعر سنة 1911 لا 1912، والذي يتبادر لنا أن هذا التاريخ الاقل ... فكلمة الاقل، نجدها قلقة في مكانها

ويقول في صفحة 31 : ولقد أوفت هذه الفئة من الادباء بالعهد .. فكلمة أوفت، كنا نريدها هنا ثلاثة لا رباعية

المقارنة الواردة في صفحتي 3635، بين بيت الشاعر :

الشوق ان جددته يتجدد   شوقي يروح مع الزمان ويغتدي

وبين بيت طرفة :

لخولة اطلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

لا نطمئن لها، حتى نجعل الشاعر ايليا محاكيا لطرفة في هذا

ويقول في صفحة 51، ان الرأيين المتضادين قد يختلفان، ولكنهما قد يجتمعان معا، واذا استحال الجمع بينهما عند فريق من الناس هم رجال الدين والفقهاء، فان اجتماعهما ليس جائزا فحسب عند علماء النفس

ان هذه الاستحالة، ليست قاصرة على من ذكر، بل إنها ليست لهم على الاساس، وانما هي للمتكلمين أصحاب العقول الفلسفية، فهم الذين يتناولون بحث التضاد، حينما يتعرضون للبحث عن التقابلات المتنوعة، واذا تذكرنا أن تعريفهم للمتضادين، الامران اللذان لا يجتمعان ولا يفترقان، كالوجود والعدم، أدركنا صحة هذه الاستحالة، سواء كانت عند الفقهاء وعند غير الفقهاء ويقول في صفحة 60 : والمتفرج يمتاز ببطء الحركة، وبحدة الذهن، لا أفهم لحدة الذهن معنى، الا أن يكون وصفا لازما لصاحبه، كالطبيعة التي جبل عليها، لا يتخلص منها في آن، ولا أن المتفرج، يتصف بها وهو متفرج، كما يتصف ببطء الحركة في هذه الحال بالذات، كما أني لا أفهم، ان الشاعر لا يومن بتناسخ الارواح من قوله :

في التراب الذى تدوس عليه   ألف دنيا وعالم لا تراه

واني لا استيقن من كونه لـم يحـن الى لبنــان، بل حـن الى مجهـول، حينما قيض له أن يعود الى لبنان، فحن الى اميركا في تحيتـه للشــام، فهـذا لا يثير ايـة غـرابة، وكثير منهم، يحنون الى وطنهم في غربتهـم، فـاذا عادوا اليـه، قالوا كما يقول المثل المغربي : «ردوني لحبسي» .

القصيدة التي فتن بها صديقنا، وذكر منها في صفحة 125، لاشك أنهـا منبثقة من رباعية الخيـام :

أســرار أزل رانــه تــوداني ونه من	وين حرف معنى نه تو خواني ونه من
هست أزبس برده كفتكوى من وتـو	جون برده برافتد نه تو ماني ونه من

ويقول تعليقا على قول الشاعـر :

والنـور عطر في تعاريجها والعطر نور في حواشيها

ان عطر النور ليس في الفتاة ولا نـور العطر، انهما في الكهف او الغابة، هـل سبـق للكهف أن حظـي بمثـل هـذا الـوصف ؟ فـاى وصف هـو ؟ انـه تلاعب في التعبير «والنـور عطر ... والعطر نـور ...» قبـل أن يكـون وصفـا علـى الحقيقـة ...

شطرة أبي العتاهية : فـأنت اليـوم أوعظ منك حيـا

لم ينشئها أبو العتاهية، وانما عرفت من قبل لبعض فلاسفة اليونان، يؤبن بهـا الاسكندر فليس بـلازم أن يكـون ايليـا آخـذا مـن أبـي العتـاهيـة .

في صفحة 153، أتى ببعض التعابير التي خالف بها الشاعـر قواعد اللغـة، فـذكر منها ما أوردته الاديبـة سراج عليه من كلمـة غرابيت، بدل غـربان ... وقد سكت صديقنا عن الاديبة، ونسى ما في القرءان الكريم، من «غرابيب سود»

استدلاله في صفحة 157، بكلام جبران الذى يشيد بايليا، لا يقـدح في كون هـذا تأثر بـه، خصوصا وهو يقرظ ديوانه .

تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط

هذا عنوان اختاره الأستاذان الفاضلان، السيد محمد ابراهيم الكتاني والدكتور أحمد مختار العبادي، للقسم الثالث من كتاب أعمال الاعلام، لابن الخطيب، الذي حققاه وعلقا عليه، ثم نشرته دار الكتاب

وان هذه النشرة، لتعد في نظرنا أول نشرة محققة تحقيقا علميا بمعنى الكلمة، لم يشذ عنها الا كلمات تعد على أطراف الاصابع، كما سنرى، والى جانب ذلك، فللجزء هذا، أهمية عظيمة في تاريخنا، فهو يسد بعض الفجوات التي ما زالت شاغرة فيه، خصوصا في مراجعنا العربية المنشورة للان، فما ذكره عن البرغواطيين، وان كان غير مستوفى، مفيد جدا بالنسبة الى ما ذكر في جغرافية البكري والعبر مثلا أو روض القرطاس ثم الاستقصا، وكذلك ما ذكره عن بني مدرار أصحاب سجلماسة

أما المعلومات التي أوردها عن صقلية وأمرائها من بني أبي الحسين، محمد بن الفضل، الى أن تغلب عليها روجار، فهي في الواقع فريدة، قلما نعثر على بعضها في غير هذا المرجع

وبمثل هذا الكتاب، الذي لم نطلع الا على جزأين منه، تبدو قيمة كتب ابن الخطيب التاريخية الحافلة، وحبذا لو كان كتب لهذا الكتاب أن يتم، بما شوقنا به صاحبه، رحمه الله، من تناوله لسبتة وأمرائها وأخبارها، مما نتصيده في حرص ولهفة من مراجع ومصادر منتثرة هنا وهناك، وهي حتى الان لما تبل لنا صدى .

وبعد هذا، لنا بعض الوقفات القصيرة، ففي المقدمة ذكر الناشران المحققان، أن المؤلف تناول .. جميع عهود السلاطين والخلفاء غاية ما في الامر أنه حرص في كل مرة تعرض فيها لعهد ملك، لم يبلغ الحلم بعد، أن يضيف العبارة التالية وهو من شرط كتابنا نقول هذا صحيح الا أنه لم يلتزمه دائما و «كل مرة»، بل سكت عن ذلك في ترجمتين، الاولى لنصير الدولة أبي مناد، باديس بن بليقين، والثانية لابراهيم بن تاشفين ابن علي بن يوسف اللمتوني، والا فيكون قد سقطت العبارة من الاصل، ولم ينبه عليها المحققان الفاضلان، كما حصل في حفصة 145، اذ وردت هذه

العبارة، وقدموا الفتح بن الامير مدرار والصواب الفتح بن الامير ميمون بن مدرار، وكما حصل في العنوان الذى ابتدأت به صفحة 148، اذ سقط منه «ميمون» .

وهناك مسالة تاريخية، لم ينبها عليها، ذلك أن الكتاب ذكر في صفحة 183 أن صالح البرغواطي استخلف على برغواطة لما قرر أمره ولده الياس .. وأمره .. أن يتمسك بالمروانية ملوك الاندلس «ثم يقول» فكانت أيام صالح بن طريف نحوا من ست سنين، وكان انصرافه عنه سنة ثمان وعشرين ومائة .

اذن فالوصية بالتمسك بالمروانية كانت قبل تملك عبد الرحمن الداخل بالاندلس بما يزيد على عشر سنوات .

فهل كان هذا من صالح تكهنا وعلما بالغيوب ؟

وعلى كل حال كان لا بد من تعليق على هذه القضية

وفي صفحة 188، نجد هذه العبارة التي هي من قبل ما حصل فيه سقط أو تحريف، وهي وكانوا ممن قامت بالمغرب دعوة زاحموا بها ايام العباسية بالمشرق، وايام الاموية بالاندلس، الحسنيون الطالبيون .

فلا شك أن القارئ الكريم يجد معي قلقا في هذا التعبير، ان حاول اصلاح اوله يخونه اخره .

ملخصات لاهم المقالات المنشورة

في مجلة « Hespéris-Tamuda » المجلد الثاني (1961) والثالث (1962)

مذكرات عن المغرب

هذه اربع مذكرات كتبها القنصل الفرنسي بروسني الذى عين ملحقا بالقنصلية الفرنسية بالصويرة في اواخر القرن الثامن عشر . مهد لها الاستاذ جاك كايي بمقدمة عن حياة هذا القنصل كطبيب وعالم من علماء النبات وعضو بالمعهد الفرنسي، وعن نشاطه في المغرب حيث اشتغل اولا بالبحث عن مجموعة من النباتات بضاحية طنجة والتنقيب عن المخطوطات العربية التي اقتنى من بينها مخطوطات تتعلق بفتح المنصور الذهبي للسودان .

ومن خلال مكاتبات القنصل مع وزارته يتضح جانب من النشاط الذى قام به في مدينة الصويرة فقد ترجم الى العربية المنشور الذى اذاعه نابليون بعد احتلاله لمصر، ووزعه في جميع الانحاء الى حدود الصحراء كما يقول وأخبر بذهاب الحجاج المغاربة من موانئ الجديدة والرباط وتطوان، وتدخل في عدة قضايا تجارية معقودة بين المغاربة والفرنسيين نشأت عن اعمال القراصنة، وجمع عدة اصناف من النباتات الموجودة بناحية الصويرة لدراستها، واعطى معلومات عن الوباء الذى اجتاح المغرب سنة 1799 فقال ان الوباء ظهر اولا بتلمسان ومنها تسرب الى فاس ومكناس والرباط وازمور وبقية الانحاء حيث فتك بمراكش في يوم واحد بـ 1800 نسمة . وفي الرباط حيث تـدر عدد السكان بنحو 30 الفا فتك الوباء بالثلثين منهم

اما المذكرات الاربع التي كتبها هذا القنصل فتحدث في اولاها عن امكانيات المغرب في ميدان الدراسات العلمية ففي سهوله وجباله الكثير من المواد التي تثير الاهتمام من الناحيتين العلمية والاقتصادية وكذلك الامر في موانئ التجارة والاقتصاد حيث يتمتع المغرب بثروة حيوانية كبرى .

ويهتم في مذكرته الثانية بصناعة دبغ الجلود بفاس وتطوان ويصف مختلف الاعمال التي يقوم بها اهل هذه الحرفة خلال عمليات الدبغ ويبين الاصطلاحات العربية المستعملة في هذه الحرفة، والمذكرة الثالثة عبارة عن تعليق كتبه على المخطوط العربي المتعلق بفتح السودان في عصر السعديين .

وفي المذكرة الرابعة تفاصيل تتعلق ببلاد البربر وهي عبارة عن مشروع لاحتلال المغرب كما يتصوره القنصل حيث يقول : ان جيشا يتركب من 30 الف رجل كاف لاحتلال المغرب ذاكرا ان هذا الاحتلال سيعود بفوائد لا حد لها اذ يصبح المغرب مستعمرة للاسكان فمناخه معتدل وارضه خصبة صالحة لجميع المزروعات وباطن ارضه ثمين بالمعادن المختلفة . ومن المغرب يمكن بسهولة ارسال القوافل الى داخل افريقيا لمقاومة النفوذ الانجليزي بها كما يمكن انشاء جيش من العبيد بنفقات ضئيلة .

وبعد هذه المقدمة يبدي الاستاذ كايي بعض الملاحظات على ما جاء في هذه المذكرات وينشر النص الاصلي لها كما كتبه المؤلف .

قطعة جديدة من البيان المغرب

مقال بالاسبانية كتبه المستشرق الاسباني المعروف هويثي ميراندا وادرج فيه قطعا لم تنشر من البيان المغرب لابن عذارى بنصها العربي، وتشغل هذه القطع 70 صفحة تتعلق بتاريخ المرابطين ثم الموحدين الى حدود سنة 540 هـ.

محمد بن عثمان

مقالان بالاسبانية الاول عن حوادث المغرب في عهد المولى يزيد ويضم النص العربي لرسالة من المولى سليمان الى محمد بن عثمان ورسالة منه ايضا الى قناصل الدول المعتمدين بطنجة ثم جواب القناصل على هذه الرسالة ثم رسالة من ابن عثمان الى وزير اسباني .

والمقال الثاني يتعلق بسفارة ابن عثمان في عهد المولى محمد ابن عبد الله سنة 1780 وبه ثلاث رسائل الاولى الى كرلوس الثالث ملك اسبانيا والثانية الى الوزير الاسباني والثالثة الى الملك كرلوس .

المنارة المرابطية بمراكش

يعالج الاستاذان دوفردان و«الان في هذا المقال قصة منارة المسجد المرابطي الذي بناه على بن يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش ويعتمد الكاتب على ما اورده ابن القطان ويتفقان على ان منارة المسجد الجامع بنيت في مرحلتين ابتداء من سنة 527 هـ ثم تعرضت للتحطيم على يد الموحدين اولا ثم حطم ما بقي منها في عهد المولى سليمان عند تجديده للمسجد .

وبعد الحفريات الاخيرة اكتشفت قاعدة المنارة وطول كل جهة من جهاتها يبلغ نحو الخمسة امتار وحولها بعض الممرات والدرج ومن بابها يبتدا الممران اللذان يؤديان الى درج مزدوجة تلتقي عند سطح المنارة، ويشبه الكاتبان هذه المنارة بمنارة مسجد قرطبة كما انها كثيرة الشبه بمنارة الكتبية التي بناها الموحدون على غرار المنار المرابطي .

وفي هذا البحث صور ورسوم تبين اشغال الحفريات التي كانت ميدانا لاكتشاف هذا الاثر القديم .

رايات الدول الاسلامية

هذا البحث تابع لما سبق نشره في المجلد الاول وهو دراسة عن الرايات المصرية التى عرفت في القرن الماضي وفي العصر الحاضر الى قيام الثورة المصرية .

ثم يستعرض الباحث تاريخ الرايات في الدول الاسلامية الاخرى فيصف رايات سوريا ورايات العثمانيين ثم رايات الدول العربية كالسودان والحجاز واليمن والبحرين وقطر والكويت وعمان ومسقط والشحر والمكلا والاردن والعراق ولبنان .

ويختتم البحث بذكر رايات الدول الاسلامية الاخرى كايران والافغان واذربيجان والملايو وباكستان واندونيسيا .

وجميع صور الرايات المشار اليها مطبوعة بالالوان المختلفة .

خزائن الكتب بالمغرب ونوادرها .

بحث للاستاذ محمد الفاسي افتتحه بكلمة عن خزائن الكتب بالمغرب الخاصة منها والعامة فتكلم عن اهتمام المغاربة بالكتب وشغفهم بها وكيف كانوا يتسابقون في اقتنائها واستنساخها وجلبها من الاماكن النائية ومن المشرق بصفة خاصة ابان موسم الحج وبين كيف كان الملوك والامراء والعلماء والاعيان يتهافتون على اقتناء المخطوطات حتى تجمعت في المغرب خزائن كبرى في كل من المدارس والقصور والزوايا والمساجد خلال القرون المتتابعة . ثم فصل الباحث الكلام على بعض النوادر التي توجد بمختلف خزائن المغرب فذكر 33 من نوادر المخطوطات ووضع لكل

مخطوط عنوانه الاصلي بالعربية ثم تكلم عن كل واحد على حدة وعرف بالمؤلفين وتاريخ النسخ والاماكن التي يوجد بها المخطوط .

النخيل في الزخرفة الاسلامية

مقال للاستاذ كولفن عن تاثر الزخارف الاسلامية بالنخيل في كل من بناءات قرطبة والزهراء والقيروان وصقلية وتونس وطرابلس، وهو بحث علمي وفني مرفوق بامثلة مصورة مما وجده المنقبون في هذا الميدان في البلاد المذكورة .

حول كتاب القدح المعلى .

النص العربي لتكملة البحث الذى كان القاه الاستاذ ابراهيم الكتاني بمؤتمر المستشرقين الدولي سنة 1957 عن كتاب المورد الاحلى ومع النص العربي ترجمته الى الفرنسية .

رسالة لابن مسكويه

النص العربي لرسالة ابن مسكوية الى ابي حيان التوحيدى في العدل واقسامه مع مقدمة بالفرنسية بقلم الاستاذ محمد اركون .

دولسيبس في المغرب

ماتيودولسيبس هواب فرديناند ولسيبس منشىء قناة السويس وهذا المقال خصصه الاستاذ جاك كاييي لاستعراض حياة هذا الشخص الذى قضى شطرا من حياته في المغرب في عهد المولى سليمان ثم في عهد المولى عبد الرحمان كملحق بقنصلية فرنسا في المغرب، وخلال مقامه تجول بانحاء المغرب وكتب في مذكراته الكثير عن المغرب وسكانه وشؤنه التجارية والاقتصادية .

قضية الوثائق التاريخية المغربية

وهذا البحث مهم جدا عالج فيه الاستاذ جيرمان عياش قضية الوثائق التاريخية فاوضح فيه بادئى ذى بدء ان الوثائق المغربية متعددة الانواع عرف بعضها وبقي البعض الاخر وهو المهم في طي الاهمال، فهناك مجموعة الوثائق المغربية المبثوثة في مجموعة «اصول التاريخ المغربي» وهناك مجموعة

اخرى جمعها الاستاذ ميبج الا ان جميع هذه الوثائق تنعكس فيها «اراء الاجانب عن المغرب من عسكريين وديبلوماسيين وتجار ولا يمكن الاستفادة منها الا بحذر والى حد ما نظرا لكون اصحابها كتبوا ما كتبوا لا للمغرب بل لانفسهم ولغايات سياسية او اقتصادية أو عسكرية ولذلك فان الرجوع اليها والاعتماد عليها لا يغني عن مراجعة الوثائق الوطنية التي يبقى لها القول الفصل في كل موضوع، وتتمثل هذه الوثائق الوطنية في المجموعات الخاصة للافراد والجماعات وبكيفية اخص في مجموعات وثائق الدولة التي تجاهلها البعض والتي تعنينا في هذا البحث بالذات .

ويرى الباحث ان بعض المشتغلين بتاريخ المغرب اهملوا هذه الناحية ومروا بها مر الكرام مؤكدين أن الوثائق التاريخية الجديرة بهذا الاسم تكاد تنعدم في هذه البلاد بل ان بعضهم اشار الى ضرورة الاهتمام بالوثائق الحبسية ناسيا اهمية وثائق الدولة وما تزخر به من معلومات هامة في جميع الميادين .

ثم اشار الاستاذ الى ان بعض وثائق الدولة جمعت ونشرت في اوائل هذا القرن كالوثائق التي جمعها م. فومي ونشرها بباريس سنة 1903 بعنوان «مختارات من المراسلات المغربية» وهي مجموعة رسائل مخزنية اقدمها مؤرخة سنة 1784 صادرة من مختلف رجال السلطة بالمغرب وكانت هذه المجموعة مودعة في السفارة الفرنسية بطنجة .

وبعدها نشرم . نهليل «رسائل مخزنية» سنة 1915 وهي رسائل موجهة من السلطان ووزرائه الى كبار موظفي المخزن منذ عهد المولى عبد الرحمان، وهذه الرسائل تدلنا على شيء واحد له اهمية وهو ان للدولة وثائق مكتوبة لا يستهان بقيمتها .

وبعد ذلك بسنوات اصدرم. مرتان سنة 1924 كتابه القيم «اربعة قرون من تاريخ المغرب» وهو كتاب حافل بالوثائق التي جمعها المؤلف اثناء اقامته بتخوم الصحراء وهذا الامر وحده يدل على ان وثائق الدولة موجودة في كل مكان حتى في اطراف الصحراء .

وفي سنة 1929 جمع المولى عبد الرحمان بن زيدان في كتابه «الاتحاف» طائفة من هذه الوثائق التي احتفظ باصولها او نقل بعضها من محفوظات القصر الملكي .

فبعد هذه الاكتشافات ايمكن القول بان وثائق الدولة غير موجودة ؟ ابدا خصوصا اذا علمنا ان م. كوفوريي احد التراجمة رتب وفهرس نحو العشرة الاف من هذه الوثائق التي توجد الان محفوظة بالقصر الملكي . ومجرد القاء نظرة على فهرس هذه الوثائق التي رتبها الترجمان المذكور تدلنا على ان هذه الوثائق تتعلق بجميع مظاهر الحياة المغربية منذ اواخر القرن الثامن عشر، نعم ان هذا الفهرس لم ينشر - وهذا امر في منتهى الغرابة - ولكن دراسة للاستاذ ريش عن «وثائق المغرب» التي نشرت سنة 1939 هي التي لفتت انظار الباحثين اليه ثم يقول الباحث ان مجموعات الوثائق المعروفة بالمغرب اليوم والتي تدفعنا اهميتها الى ذكرها تنحصر فيما يلي :

1) مجموعة تطوان - وهي الوثائق التي كانت بقصر «النيابة» بطنجة عند ما كان على رأس النيابة محمد العربي الطريس، وقد اصبحت هذه الوثائق في حوزة ورثته ثم تنازلوا عنها لاسبانيا سنة 1940 وما زالت مودعة بقسم الوثائق بتطوان وتظم هذه المجموعة 15 الف وثيقة في 165 ملفا مرتبة حسب الترتيب الزمني .

2) مجموعة الخزانة الزيدانية بمكناس - تضم على الاقل عشرين الف وثيقة قسم منها يقع في ستين مجلدا . ويظهر ان قسما من اصل هذه المجموعة من محفوظات عائلتي الزبدي وبركاش اللتين تحتفظان بالقسم الاخر بالرباط وتضم الزيدانية كمية اخرى من وثائق مختلفة محفوظة في دواليب .

3) مجموعة الخزانة الكتانية بفاس - وتضم نحو خمسة الاف وثيقة توجد اليوم مودعة بالخزانة العامة بالرباط .

4) مجموعة القصر الملكي بالرباط وتقدر بنحو 200 الف وثيقة نقلت من القصور الملكية بفاس ومراكش عند ما اصبحت الرباط عاصمة للمملكة سنة 1912 .

5) مجموعة الباشا الكلاوي - وهي عبارة عن وثائق محلية تتعلق بعائلة الجلاوي وعلاقتها بالسلطة المركزية وبالقبائل المجاورة لها . وتوجد اليوم مودعة بالخزانة العامة بالرباط .

6) مجموعة الوزير المقرى - وهي مجموعة من الوثائق المخزنية التي احتفظ بها صاحبها خلال نصف قرن وهي المدة التي قضاها في الوظائف العليا المختلفة، وتوجد اليوم بخزانة القصر الملكي بالرباط .

7) مجموعة القصر الملكي الثانية ـ وهي مجموعة الوثائق التي نقلت من فاس الى الرباط سنة 1962 ويباشر الان ترتيبها بخزانة القصر الملكي .

ثم يستعرض الباحث بكلمة موجزه مجموعتي تطوان وفاس ويحلل ما بهما من وثائق وما تمتاز به هذه النصوص من معلومات دقيقة حول علاقات المخزن بكبار موظفيه من وزراء وقواد وخلفاء وغيرهم وينتهي الى القول بان لهذه الوثائق اهمية كبرى في توضيح معالم التاريخ المغربي خلال القرنين المنصرمين وفي كشف الستار عن كثير من الحقائق وختم الكاتب بحثه القيم بقوله :

ان المغرب يزخر بالوثائق الوطنية وبوثائق الدولة خلافا للبعض ممن يقول بان «المغرب قطر بدون وثائق» فقد كان للمغرب وثائق وهذه الوثائق وجدت في الماضي وتوجد اليوم بل وستستكشف وثائق اخرى بدون شك ولكن الشيء الذي يحتاجه اليوم هو العناية بهذه المجموعات ونفض الغبار عنها وترتيبها وتصنيفها وفهرستها، ويكفي لذلك صدور الامر بانشاء مصلحة الوثائق التاريخية كما هو الشان في الدول الاخرى وعند ذلك ستقوم هذه المصلحة باداء مهمتها في احسن الاحوال .

واخيرا شرح الكاتب المبادىء الاساسية التي يجب ان تتوفر لدى المشرفين على هذا العمل وابدى رايه في القواعد والاسس التي تجب مراعاتها عند تنظيم هذه الوثائق تنظيما علميا يضمن الاستفادة منها محذرا من عواقب الارتجال التي تؤدى الى عكس الغاية المرجوة منها .

سفارة مغربية الى النمسا (ص 35)

بحث للاستاذ جاك كايي الشهير بابحاثه التاريخية المغربية، وفي هذا البحث يبرز الاستاذ جانبا من جوانب النشاط الديبلوماسي الذى قام به السلطان المولى محمد بن عبد الله خلال حكمه الذى امتد من سنة 1757 الى سنة 1790 ففي اوائل سنة 1782 انتشر بين الاوساط القنصلية الاروبية بطنجة نباء عزم السلطان على ارسال سفارة الى بعض البلاد الاوربية كايطاليا والنمسا وروسيا على راسها الباشا السيد محمد بن عبد الملك الذى قام قبل هذا التاريخ اى في سنة 1778 بمهمة سفير لدى امير طوسكان بايطاليا ووقع معه معاهدة ثم عاد الى طنجة رفقة سفينتين كانتا اولى السفن الروسية التي تصل الى شاطىء المغرب كما صحب معه 62 من الاسارى المغاربة وعدة هدايا من امير طوسكان الى سلطان المغرب .

وفي شهر يونيه من سنة 1782 بدأت الاستعدادات لارسال هذه البعثة فوصلت سفينتان الى طنجة احداهما من السويد والاخرى من البندقية لنقل السفير وحاشيته وهدايا السلطان الى ملوك طوسكان والنمسا وروسيا، وفي منتصف الشهر غادر السفير طنجة مصحوبا بعشرين شخصا من بينهم كاتب السفارة الحاج محمد المهدي ومحمد بن عبد الرحمان وبعض الضباط وكاتب السفير الخاص وستة من موظفي المخزن وعدد من الاعوان، وكانت المهمة الاساسية لهذه السفارة هي عقد معاهدة بين المغرب والنمسا تبودلت في شانها رسائل بين بلاط السلطان محمد بن عبد الله وبلاط ملك النمسا يوسف الثاني ووصلت السفارة الى مدينة ليفورن يوم 14 اكتوبر وبقيت بها نحو أربعة اشهر، ثم وصلت الى فيينا يوم 20 يبرير 1783 وقدم السفير اوراق اعتماده الى المستشار دوكو نيتز وتذاكر معه حول المهمة التي قدم من اجلها ثم استقبل اخيرا من طرف الملك يوسف الثاني يوم 28 من الشهر نفسه .

وبعد ما وصف الباحث باسهاب الكيفية التي استقبل بها السفير المغربي من طرف رجال الحكومة النمساوية والحفلات التي اقيمت على شرفه ذكر المراحل التي مرت بها المفاوضات بين السفير المغربي وساسة النمسا تلك المفاوضات التي توجت بعقد اتفاق بين المملكتين بتاريخ 17 ابريل 17833 وقال الباحث بعد ذلك : ان بنود المعاهدة تشبه الى حد بعيد بنود المعاهدات الاخرى التي ابرمها المغرب مع غيره من الدول فهي تنص على الصداقة المتبادلة والعمل على حفظ السلام وحرية رعايا الدولتين في تعاطي التجارة والمساعدات المتبادلة بين الطرفين في ميادين التجارة والتنقل البحري .

وهناك بندان يثيران الاهتمام الاول ينص على انه في حالة حرب بين الدولتين المتعاهدتين لا يحق لاحداهما ان تهاجم الاخرى الا بعد مرور ستة اشهر على اعلان الحرب وخلال هذه المدة يكون لرعايا احدى الدولتين القاطنين بارض الدولة الاخرى الحق في ان تضمن حياتهم وتصان حقوقهم وتعطى لهم الحرية الكاملة للعودة الى اوطانهم :

اما البند الثاني فينص على ان البضائع النمساوية الموجهة الى المغرب لا تؤدى الا نصف الرسوم المفروضة على بضائع الدول الاخرى .

ويعلق الاستاذ الباحث على ذلك بقوله «حقا انه لمن المؤسف ان لا يبقى ما ورد في البند الاول اعلاه مبدأ اساسيا في العلاقات بين سائر الدول فقد كان كفيلا بان يبعد عن الانسانية كثيرا من المصائب والمحن .

ويظهر ان مشروع ارسال السفارة الى روسيا وقع العدول عنه في «اخر الامر ولذلك عاد السفير المغربي الى مدينة تريستا ومنها ابحر الى طنجة حيث وصلها يوم 15 يوليوز بعد ان نجح في مهمته نجاحا كبيرا ووثق صلات بلده باحدى الدول الاوربية .

(وبآخر البحث صورة السفير المغربي)

النقود والاقتصاد (ص 63)

في اسبانيا النصرانية في القرنين الثامن والتاسع مقال حول الحالة الاقتصادية بشمال اسبانيا ووسطها ابان الحكم الاسلامي واثر التبادل بين المسلمين والنصارى في تكييف الحالة الاقتصادية وما يتعلق بذلك من تبادل النقود الاسلامية والمسيحية .

وذكر الكاتب ان المسحيين باسبانيا غير المحتلة كانوا يتعاملون بالنقود المسيحية المضروبة في البلدان الاوربية وبالنقود الاسلامية التي كانت تضرب بقرطبة واشبيلية وجيان وباجة خلال القرن الثاني عشر .

وبعد سقوط ملوك الطوائف اصبح التعامل جاريا بالدينار او الدرهم المرابطي الذى انتشر انتشارا واسعا دفع الملك الفونس السابع الى تقليد الدينار المرابطي فامر بسك نقود تحمل اسمه، وهكذا ظهرت لاول مرة في تاريخ اسبانيا النصرانية نقود ذهبية قشتالية تسمى – «مرابطي الفونسي» وذلك سنة 1173

وابتداء من هذا التاريخ اخذت هذه النقود القشتالية تحل محل النقود الاسلامية بسبب تدفق الذهب السوداني على الاندلس .

الموسيقى المغربية

مقال للاستاذ محمد الفاسي حول الموسيقى المغربية المسماة بالاندلسية وقد نشر النص العربي لهذا البحث في مجلة تطوان المجلد السابع 1962 .

محمد بن ادريس .

مقال للاستاذ ناصر الفاسي عن الاديب محمد بن ادريس العمروى وزير المولى عبد الرحمان وشاعره، ونشر النص العربي لهذا البحث في مجلة البحث العلمي العدد الاول 1964 .

مقـالات مختلفـة

ـ مقال بالاسبانية (ص 1) عن بيعة مولاى مسلمة بـن السلطـان محمـد ابن عبد الله وبـه النص العربي لرسالة من الحاج مصطفى بن الدحمورى الى الحاج اسماعيل تتعلق بحوادث المغرب في عهد مولاى اليزيد (ص 5) .

ـ مقال بالاسبانية عن بعض القطع الاثريـة المستكشفـة بسبتة مـزيـن بالصور (ص 107) ـ تحليل دقيق ونقد نزيه للكتـاب الذى وضعـه الاستـاذ دوفيردان عن «مدينة مراكش» منذ تاسيسها الى سنة 1912 (ص 127) .

ـ مقـال عـن اكتشافـات اثـريـة بنـاحيـة شيشاوة (ص 75) .

ـ البيليوغرافيا المغربية لسنتي 1952 ـ 1953 مـن اعـداد الاستـاذ رييس والسيده ليل يتناول التعريف بما كتب عن المغرب من تاليف وبحوث ومقالات بمختلف اللغات وما نشر من ذلك في الصحف والمجلات ومجموع ذلك 3693 بحثا .

عـدد خـاص .

بمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لجلوس المولى اسماعيل على العرش المغربي نشر النص العربي لهذا العدد كله بمجلة تطوان كملحق لسنة 1962 .

فهرست

محمد بن تاويت – من زوايا التاريخ المغربي 7

محمد المنوني – الطباعة الحجرية الفاسية 131

محمد بن شريفة – اسرة بني عشرة 177

الصديق بن العربي – شعر المعتمد بن عباد 221

محمد ابراهيم الكتاني – الورقات الاخيرة من البيان المغرب 237

محمد بن تاويت – نقد الكتب 245

ملخصات لاهم المقالات 259

مطبعـة اكـدال زنقـة بيـارن رقـم 22 – الـربـاط